
نوافذ على الأمس
محمد فقير

هــذا الكـــتاب

لَكِ يا مَنازِلُ في القُلوبِ مَنازِلُ أقفَرْتِ أنْتِ وهنّ منكِ أواهِـلُ

ليس مثل الأستاذ من يغيثكَ عند حوجةَ التعبير ، هو يوسْوس لك فينقذك ، هو المتنبي ، وبقوله أستشهدْ .. نعم ... أقفرتْ منازل قريتنا ... ديارٌ حوت طفولتنا وصبانا ...
شهدتْ محاولاتنا الأولى ونحن نفك الحرف ... عاشت حكاوينا ... وعواطفنا الأولى ...
ولكنها أقفرتْ ... كما أقفرَ علي عُبيْدٍ من أهلِه ملحوبُ ... أراها من هنا ... من هذا البعد السحيق في ضواحي الإسكيمو... أراها مرة تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ ... كما لاحت لطرفة ببرقةِ ثهمدٍ ... أو كما لاحتْ للحارث ببرقة شمـّاءَ ورياضُ القطا والإبلاءُ ... لا أري من عهدتُ فيها فأبكي ... ولا يحيرُ البكاءُ ... وأراها مرة أخري كما رآها إمرؤ القيس بسقط اللوي بين الدَخول فحومل .. وأراها مرة ثالثة بعين زهير ... فتبدو كديار الرقمتين ... مراجيعُ وشمٍ في نواشر معصم ... وأكاد أَشكو إليها وأكلمها، كما فعل ذوالرُمّـة بجرعاء حزوي.. أكاد أدع الدمعَ ينحدر ، لعلّه يعقب راحة ... ولكن ليست لي رَواحل ... وليس لي خـلاّن ... لأسوقهم الي هناك :

خليليّ عوجا من صدورِ الرواحلِ == بجرعاء حزوى فابكيا في المنازل
لـعل انحـدار الدمـع يعقَـبُ راحةً == من الوجـد أو يُشـفي نجيّ البلابـل

وأراها مرة رابعة كما رآها الشريف الرضي ... ومَثلما فعلَ قلبه ... تلفّتَ قلبي، .. وما زال يتلفتْ ... أقفرتْ ديارنا كما أقفرتْ ديار بالجواء علي عنترة بعد أم الهيثم ... وعفتْ كما عفتْ ديار لبيد في مني بحمي ضرية ومدافع الريّان ... وأقوتْ كما أقوتْ دارَ ميّة علي النابغة بالـعلياء والسند ... وقفَتْ منازلنا خاوية علي عروشها .. هاجرَ منها من هاجرَ شرقاً ... وهاجرَ منها من هاجرَ غرباً ... وهاجرَ منها من هاجرَ من الدنيا الفانية ... أقفرتْ تلك المنازل ... ولكن لها في قلوبنا منازل آهـلة بذكراها ... مليئة بالشوق إليها ... طالَ بها الحنين ... وفاضَ بها الشجن ... وكيف لا .. فبها مسقط الرأس ... وذكريات الأمس ... رونق الشباب وموطن الأحباب ... مراتع الصبي ومرابع اللهو ... حين كان للحِسان فينا إربٌ ... ولنا فيهن مثل الذي لهن ... وأكثر ... فيها دار أبي ... ومنازل قومي ... أغنام أمي ودجاجها ... مزرعة جدي التي أَطعمتني ... وأزيار جدتي التي روتني ... شجِرة اللالوب التي ظللتْ طفولتي ... تل الرمل الذي إرتميتُ عليه في ليالي القرية المقمرة ... أشجار النخيل الباسقة التي تحفّ بيتنا الطيني الوديع ... مزارع القمح والفول والبرسيم .. .الجدول وصوت البربخ ... الجامع والخلوة والمدرسة ... كان ذلك في سنين العمر الفرحة المرحة ... المليئة بالتفائل ... كان ذلك قبل أن يماطلني زماني ما منيتُ نفسي به من آمال ... كما ماطل العباسي من قبل ... حين كان (العودُ أخضرُ ... والأيام مشرقةٌ ... وحالة الأنس تغري بي وتغريني) ... حينئذ كانت الدنيا ممتدة أمامنا كسهلٍ منبسط ... في ذلك الوقت لم تكن المدن البعيدة من أحلامي ... ولا المرافئ الغريبة من مقاصدي ... ولا كانت الهجرة من خواطري ... لم يكن المتنبي من معارفي ... ولم يكن شِعره من رفقائي ... ولم أكن (قلقاً كأن الريح تحتي) ... كانت البلدة مطمئنة ... والحالة رخية ... والنفس راضية ... والروح مرحة ... تركتُ كل ذلك وهاجرتُ ... قطعتُ الصحارى وعبرتُ المحيطات ... فقط لأكتشف (أن ما جئتُ أبحثُ عنه هنا تركْته ورائي هناك) ... فكانت العودة بهذا الكتاب ... لعلّ لي فيه بعض من عزاء ... وللقارئ بعض من متعة ... ذلك ما أتمنى .



نوافذ على الأمس

نوافذ على الأمس

محمد فقير



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان
ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر

الكتـــاب : **نوافذ على الأمس**

المؤلــــــف : **محمد فقير**

رقم الايداع: ٥٨٢٨ / ٢٠١٥

سنة الإصدار : ٢٠١٦

الطبعة الأولى

الناشــر: دار عـــزة للنشـــر والتــوزيــع

الإدارة: شارع الجامعة – الخرطوم – جنوب وزارة الصحة

ت : 83787200 فاكس : 8379084 (1-249+)

التوزيـــع : دار عزة للنشر والتوزيع ت : 8378201

السودان – الخرطوم ص.ب : 12909

بريد إلكترونى: azzaph@yahoo.com

ردمك: 500 – 54 - 99942

إهـــــداء:

- إلي والدي ووالدتي وأُختى وزوجتي في عالم الخلود ، في الظل الممدود ، عند الخالق المعبود.
- وإلي شقيقىّ عبد الله وشيخ طويل في عزيّهما المجيدين ، وعمريْهما المديدين.
- وإلي جدّى الأمين ، مربينا النبيل ، فقد تعلمتُ منه ، فيما تعلمتُ، فضيلتيْ الصمت والقناعة.
- وإلي جدتي خديجة ، الملهمة الحقيقية لهذا الكتاب.
- وإلي إخوان لي لم تلدهم أمى،أجدهم بجانبى كلما إدلهمّ الظرف، ودمع الطرف، وعجزالحرف.
- وإلي أصدقائى الكثر النبلاء ، في أطراف الأرض وضواحيها، لهم مني السلام حفياً ، والحب نقيا.
- وإلي إنسانة عزيزة ، لها بين سطور الكتاب مخابئ ، لعل كلماتي تصادفها وهي في تمام الصحة وكمال العافية.
- وإلي كل من تعلمتُ منه حرفاً أو معني .

وفي البدء والمنتهى إلي أبنائى وفاء ، علي ، وأليسا ، الذين ، رغم فرحتهم الكبيرة بهذا الكتاب ، إلاّ أنهم لن يستطيعوا قراءته ، فقد حُرموا ليس من النوبية فحسب ، بل حتى من العربية ، لهم حبى في مداه إن كان للحب مدى.

شـكر وتقـدير :

خالص تقديرى للأستاذ الكبير والكاتب المعروف جعفر عباس . الذي شجعنى على الكتابة ، ثم تكرم بمراجعة الكتاب ، ثم تفضل وأعطى الكتاب نكهة خاصة بتقديمه النفيس . فله منى الشكر الذي مهما أجزله لا أوفيه حقه. وقد استفدتُ من كتاباته الكثيرة عن العادات والتقاليد النوبية، خاصة سلسلة الكتابات التى عنونها الأستاذ بـ (سيرة فى مسيرة) . والتى تحدث فيها عن بدين كثيراً، والتى جَمعْتُ جزء من حلقاتها من سَقَط لَقَط .

وشكري الجزيل وإمتناني الكبير موصول للكاتب الروراني البديع الأستاذ طه جعفر . صاحب رواية (فركة) الحائزة على جائزة الطيّب صالح للإبداع الروائي في دورتها الثامنة 2009 – 2010 . وفركة رواية لا تقل في إفادتها وإمتاعها ولغتها وفنياتها وشجاعتها وطريقة تناولها للقضية المعنية بها. لا تقل عن روايات عالمية لكتاب عباقرة تناولوا بعض (المسكوت عنه) كلٌ في بيئته . لا أقول هذا لأن ألأستاذ طه برني وشرف الكتاب بتمهيد ضافي، ثم ساعدني في إعداد الكتاب للطباعة إنما لأن الرواية تستحق له صادق التقدير.

والشكر موصول لكل الذين شجعونى علي هذا العمل ، وانتظروه كثيراً . كان منهم التشجيع ، وكان منى التأخير ، ولكن أليست الكتابة "كالصيد ... تحتاج إلي صبر". كما قال ماركيز . لهم إعتذارى . والحقيقة أن إصدار كتاب بهذه الصورة كان من أحلام الصبا . ولكنه حلُم . كغالب أحلام الصبا . ظل مصلوبا على أبواب الرجاء والتمنى . إذ أخذتنا الحياة مناحىَ شتىّ . وتوهتْنا في طرقاتها المعوجّة . وأخذنا أنفسنا بالإهمال مرة . وبالكسل مرات . وعلى كل. فها هو الكتاب يصدر . إن أسعدتُ به أحداً فذاك ، وإلاّ فإننى أكتفى بأجر المحاولة .

بالغ شكري وإمتناني للاخ الشاب الرائع دكتور عاصم عبدون الذي لم اتعرف عليه شخصياً الا عبر الايملات . ولكنه رغم ذلك بذل جهداً خارقاً ليرى هذا الكتاب النور ولو لاه لقبع الكتاب في مكانه الذي كان فيه منذ سنوات عديدة. له تحيه وتقدير مستحقين.

تصـدير:

ليس هذا العمل سرداً لتاريخ جزيرة بدين . ولا هو بحث إجتماعي عن أهلها . ولا هو. بأي حال . دراسة في التراث النوبي . بل هو مجرد خواطر وذكريات . بدأتُ كتابتها في شكل حلقات في الإنترنت . وبالتحديد في سودانيز أون لاين . ثم . وبتشجيع من الكثيرين . تطورت الفكرة . إلي جمعها واصدارها في كتيب . فتوسعتُ فيها . وضمنتها بعض العادات والتقاليد التي عاش عليها الناس في المنطقة النوبية الكبيرة ردحاً من الزمان . ومازالوا يعيشون على بعضها . وتطرقت الي الحياة الإجتماعية . والإقتصادية . والمعيشية لإنسان المنطقة . وذكرت طرفاً من التاريخ النوبي . مع بعض التفصيل في بعض هذا التاريخ . وقمت بإلقاء بعض الضوء على اللغة النوبية . والتى . وبكل أسف . أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الإنقراض . ثم حاولت إعطاء بعض شخصيات الجزيرة حقهم في التوثيق . بذكر سيرة كل منهم . وليس في الإمكان ذكر كل الشخصيات مستحقة الذكر. فلمن فاتني ذكره العتبى إن كان حياً . ولأهله إن إرتحل . وجدير بالذكر أن بعض العادات والتقاليد التى سوف أسردها هنا . لم تكن مشترَكة (بفتح الراء) كلها في كل مناطق النوبة. بل كانت هناك بعض الإختلافات . وبعض العادات تختلف في تفاصيلها وأسمائها من منطقة الي اخرى . وحتي اللغة . كما هو موضح في ثنايا الكتاب. تختلف بعض مفرداتها وطريقة نطقها من منطقة إلى أخري . كما أن اللغة النوبية الثانية (نشكرين) أو (الأشكر) أو (الأنداندي)، أو الدنقلاوية . تختلف إختلافاً كبيراً عن ال (نوبين) . وهى لغة بقية النوبة في حلفا والسكوت والمحس. هذا وقد ختمتُ الكتاب بجزء تناولت فيه بإختصار مأزق الهجرة وتداعياتها في شكل رسالة إلي إبني على.

أريد أن أنوه إلي أننى أكتب من منطلق قارئ مهتم . وليس من منطلق باحث ولا موثق ولا مؤرخ . ولذلك فلا تقسيم ولا تبويب للكتاب. ولايوجد في الكتاب قسم خاص بذكر المراجع . ولا إشارة إلى صياغات منقولة إلاّ قليلاً. فأنا آأخذ المعلومة وأعيد صياغتها . وأضيف المعلومات بعضها إلي بعض . إلاّ بعض الفقرات التي شارك بها بعض الإخوة . فقد رأيت أن أعرضها كما هى . وعلي كل حال فمراجعى تتلخص في ذاكرتى الخربة . ثم أوراق قديمة كنت أسجل فيها بعض الخواطر. والتى لا أنقلها كلها . ثم المنتديات النوبية وغير النوبية في الإنترنت . وهذه المنتديات من الكثرة بحيث لا أستطيع ذكر أسمائها هنا . ولكنى أشير الي منتدي واحد . هو (arkamani.org) . فقد أستفدت كثيراً من ترجمات الراحل. الدكتور أسامة عبدالرحمن النور . الذي أسدي إلي الحضارة النوبية خدمة لا تضاهى . ألا رحمه الله . ثم أشير الي كتاب (السودان . المأزق التاريخى وأفاق المستقبل) للمفكر للراحل محمد أبوالقاسم حاج حمد . المجلد الأول . ثم كتاب لا إسم له . عن التراث النوبي واللغة النوبية . أصدره الكاتب النوبي محمد متولي بدر. وهو من أبناء تبج. ولكن مذكور في الكتاب أنه كُتب في عنيبة عام 1955 . ثم المعلومات التي جمعتها من هنا وهناك . في السودان وفى بلدان الشتات في الغربة. والغربة في النوبية تسمي (باربا) . ردّ الله غربتنا وأعادنا من هذه الباربا إلى بلادنا سالمين . أمين. أمّا الصور داخل الكتاب فبعضها بكمرتي وبعضها من المنتديات المختلفة.

مقدمة:

بقلم جعفر عباس

اختار شاعرنا الضخم الراحل محمد عبد الحي البحث عن جذوره كسوداني ب"العودة إلى سنار". وكان الله رحيما به فلم يمهله طويلا ليشهد انهيار حلمه. وحلول عصر تهافت المواطنين السودانيين للابتعاد عن سنار، والبحث عن أوطان بديلة. ولأن "النوى ترمي بالمفترين المراميا". فقد انتهى الأمر بصاحبنا محمد فقير في كندا، التي لجأ إليها بعد دهر قضاه في المملكة العربية السعودية. فإذا بالبعد العاطفي والوجداني عن وطنه الصغير "جزيرة بدين". يتضاءل ويتقاصر متحدياً البعد والمسافة الجغرافية. وسيكتشف كل من يقرأ هذا الكتاب. أن محمد يطل على بدين من نافذة الأمس القريب. ليس بحساب السنين ولكن بحساب مخزون الذاكرة. ورغم أنني شهدت مولد معظم فصول الكتاب هذا قبل سنوات من قرار مؤلفه إصدارها في كتاب. إلا أنه ما فتئ يدهشني بقدرته على اجترار تفاصيل الحياة والناس وحتى الطقوس التي اندثر معظمها وكأنه ظل يدون يومياته منذ ان تعلم فك الخط. وكتب فصول هذا الكتاب كلها داخل بيت أو مسيد في " شبة". أو "فتني أرمنتو". وليس في تورنتو. وبيني وبين المؤلف قواسم مشتركة عديدة. لعل أقواها اعتزازنا الشديد بالانتماء الى بدين وحبنا الشديد لها. وبدهي أن كل شخص ببلدته أو قريته أو مدينته معجب. ولكنني أقول بعد تسواح في أربع قارات. أنه لو كانت لدينا في السودان دربة ودراية بفنون جذب السياح. لجلبت علينا بدين وصويحباتها ذوات الأعناق المطوقة بعراجين النخل التي تغرد فوقها القماري. مثل ما كان يجلبه مشروع الجزيرة الزراعي قبل وأده مع سبق الإصرار والترصد. ورغم أن كلينا عاش بعيدا عن الوطنين الصغير والكبير دهرا طويلا قضيناه في المهاجر. فإن الغربة لم تزدنا إلا اقترابا من بدين والسودان. فبدين شأنها شأن كل بلدات أراضي النوبة. يفوح منها عطر التاريخ. فينشأ عيالها وهم مدركين أنهم يعيشون في أراض ورثوها عن أسلاف رحلوا قبل مئات أو آلاف السنين. ويفسر هذا احتفاء النوبيين بالأرض والنيل. بسبب إدراكهم الغريزي بأنهم قوم راسخو الجذور في حوض النيل. خاصة وأن الشواهد على حضارتهم العريقة تبقى في مرمى أبصارهم في أي اتجاه حدّقوا.

وكنت أحسب نفسي "موسوعي المعرفة" في كل ما يتعلق ببدين والثقافة والتراث النوبيين. ولكنني قرأت هذا الكتاب في شكله النهائي أكثر من مرة (ليس بهدف المراجعة والتصحيح والتنقيح - بدليل أن هناك أخطاء هنا وهناك تجاهلتها كي لا أفسد على نفسي متعة القراءة). واكتشفت أنني "كبشة" كما نقول في العامية السودانية. عن الشخص الذي لا يجيد شيئا ما. فأنت تقرأ عن طقوس الولادة في منطقتنا في ديار النوبة فتحسب أن محمد فقير كان داية (غير قانونية) دهرا طويلا. وتقرأ له عن الزراعة وتحسب أنه ما زال "إروتي" أي ذلك الصبي الذي يجلس على "تُكُم" الساقية. وأنه لم يسمع بعد باختراع مضخات الماء التي تعمل بالكهرباء والمحروقات. ويصطحبك إلى حفل عرس. فتخرج بانطباع بأنه كان في الجوقة الموسيقية ل"تورين جافر" أي جعفر ابن تور إكّي. الذي كان معروفا أيضا باسم

جافر بادي. وهكذا أدركت كم كان فقير أكثر قربا مني من تفاصيل الحياة في بدين. وكم هو أكثر "ثقافة" مني في الشأن النوبي عموما.

وأود تنبيه القارئ إلى أمر مهم للغاية. وهو أن الكتاب هذا ليس مجرد خواطر وذكريات. كما يقول صاحبه في التقديم له. بل هو سجل وثائقي اجتماعي لمجتمع ذو تاريخ عريق. وبالتالي فإنه كتاب ينبغي أن يحتفي به من هم من غير أهل بدين. قبل أهل بدين. لكونه ذا قيمة ثقافية عالية. وبه معلومات رفيعة مثبتة بالرجوع الى مصادر ثقاة. ورغم أن المؤلف نوبي أعجمي، وتعلم العربية بنفس الطريقة التي يتعلمها به أبناء – مثلا – تشاد أو بوركينا فاسو. إلا أنك تقرأ ما سطره يراعه (أو الكيبورد بالأحرى). فلا تملك إلا تنتشي طربا لجمال ديباجته وعبارته الفصيحة الموسقة والمدوزنة. ولاستخدامه شواهد من جميل الشعر العربي كلما ناسب المقال المقام.

نعم يقرّ المؤلف أن بدين هي ملهمة فصول هذا الكتاب. ولكنك تقرأه فيأخذك إلى منابع النيل في وسط وشرق أفريقيا متتبعا مساره. والنيل هو الحبل السري الذي يربط معظم أهل السودان ببعضهم البعض. ولكنه عندنا في ديار النوبة ما زال محل تقديس وتبجيل. وستجد في الكتاب شواهد كثيرة على طقوس ذات طابع مسيحي ما زالت تمارس في حالات الزواج والولادة والختان. ليس فقط من قبل النوبيين القابضين على جمر نوبيتهم. بل أيضا النوبيين المستعربين في عموم السودان الأوسط. ومنها غمر الأطفال حديثي الولادة في ماء النيل (التعميد). ومنها طقوس تعود إلى الديانات النوبية التي سبقت المسيحية، ومنها أن يغسل العريس والعروس وجهيهما بماء النيل طلبا للخصوبة. ومنها "الجرتي". الذي صار في العامية السودانية "الجرتق". لأن القاف غير المقلقلة والكاف في أواخر الأسماء تفيد التعريف والتوكيد في اللغة النوبية. وهذا الطقس يكون بتطويق عنقي العروسين بالخرز والتمائم و"الجعارين" لدرء العين الحاسدة. كما كان يفعل قدماء النوبيين قبل آلاف السنين. وحتى "الجنيه الإنجليزي" الذي يحمل صورة الملك البريطاني جورج في أحد وجهيه، والذي ما زال يوضع على جبهة العروس السودانية. لا "يكمن سره". في حمايتها من العين الحاسدة. إلا في الصليب الكبير الذي في الوجه الاخر من القطعة. وهذا من استمرار تأثير الثقافة النصرانية التي طبعت الكثير من جوانب الحياة يوم كانت مملكة النوبة تمتد من جنوب مصر إلى جنوب الخرطوم.. وبعد أن تقرأ هذا الكتاب ستعرف – مثلا – لماذا يتطير/ يتشاءم أهل السودان الشمالي والأوسط من يوم الأربعاء. فلا يتزوجون فيه. وستعرف منشأ عبارة "أربعاء وعقاب شهر". وأن الأمر لا يتعلق بأن يصادف يوم أربعاء "آخر الشهر" حيث تكون الجيوب خاوية. بل بكون العبارة مترجمة من أصلها النوبي "أربها أون أباق". وتعني أن اكثر أيام الأربعاء شؤما هو ذاك الذي يأتي بعد اكتمال دورة القمر. ولربما لا يعرف الكثيرون أن مسميات الشهور السائدة إلى يومنا هذا في أجزاء كثيرة من السودان ك"ذكريات أيام الأجداد والحبوبات": أمشير وكيهك وبؤونة وأبيب. قبطية وما زال أهل النوبة يستخدمونها خاصة لتحديد تقلب فصول السنة. تماما كما ابتدعوا نظام ال"تَتِّي" لتحديد المواعيد (الساعة) مستخدمين حركة الشمس خلال النهار. ومن طول ومسار ظل ال"تتي". وهو وتد خشبي

يغرس في الأرض بارتفاع متعارف عليه. كانوا يحددون به مواعيد فتح جداول الري وتوزيع المياه بين أحواض المزروعات.

ومدخل الكتاب لا يعطي فقط "الانطباع". بل يؤكد بصريح العبارة أنه عن بدين "بنت النيل وست الجيل.. عطر الأرض البكر والنوار". ولكنني ما زلت عند اعتقادي بأن من لا يعرفون بدين أو لم يسمعوا بها قط، سيجدون فيه متعة أكبر من تلك التي سيجدها أبناء وبنات بدين. فبالنسبة للأخيرين سيتعلق الأمر بالعودة إليها بالذاكرة والنوستالجيا، أو حتى التباهي بالانتماء لها، بينما هو بالنسبة لغيرهم وجبة دسمة من معلومات ذات قيمة وثائقية عالية، مصبوبة في قوالب لغوية شيقة، ومسنودة بلقطات فوتغرافية منتقاة بعناية لتضفي على المفردات الألوان والظلال وتكسُّر الضياء، فكانت النتيجة "أنشودة" الحب التي استهل بها المؤلف كتابه هذا.

هذا كتاب يسافر بك في عالم حقيقي تكاد معظم معالمه أن تندثر. فاركب قطار صفحاته لتستمتع بأشياء هي خليط من الحاضر والغابر، وخالط أناسا حقيقيين، وقم بزيارة مواقع تشهد أحداث الولادة ووقائع الطفولة والصبا والشباب والرجولة والأنوثة. وستعجب في خاتمة المطاف كيف أن "تورنتو" بكل بهائها لم تبهر محمد فقير، بل جعلته أكثر إحساسا واعتزازا بأنه ابن بلدة ريفية بهية رغم أنه عاش فيها قبل أن تعرف الكهرباء والهواتف والسيارات.. وستعرف معنى الوفاء للناس والأمكنة، وأن ما انغرس في جيناتك البيولوجية والعاطفية في سنوات نشوئك وارتقائك، وشم في الذاكرة لا يزول طالما النفَس طالع ونازل، ونحن جميعا في السودان إما سلالة رعاة أو مزارعين، ولكن المدن ببهرجها وطيلسانها تسرق كثيرين منا، وتسرق منا جذورنا. وبلغة "ابن حلال يفتح الباب"، فتح محمد فقير بابا أتمنى أن يلج منه غيره ليوثقوا للحياة في مختلف أصقاع السودان. ويا ويل أمة تحسب أنها تنتمي للقرن الحادي والعشرين وهي جاهلة بما كان عليه حالها حتى قبل أربعة عقود من الزمان.

جعفر عباس

تمهيـــد:

بقلم طه جعـفر

لقد اهتم المؤلف بتسجيل الوقائع التي عاشها بين أقرانه و وسط أهله . و أجد ذلك ذهاب بعلم التاريخ الاكاديمي لمراقٍ مهمة ، ألا و هي سيرة صناع التاريخ من الناس العاديين في جزيرة بدين ومناطق النوبيين بشمال السودان . و في تسجيله لتلك التفاصيل أورد المؤلف اوصافاً دقيقة للعادات المتّبعة فيما يتعلق بالحمل و الانجاب و احتفالات تسمية المولود والزواج ، ثم وصفا دقيقا للمآتم و ما يسبقها من أعلان و ما يستتبع الموت من مراسم للدفن. لم يكن التسجيل تقريريا مبسطا او مسطحا بل كان عميقا يحاول ايجاد الصلات بالواقع المعاش في فترة ربما تمتد من الخمسينيات الي بداية الثمانيات من القرن العشرين بجزيرة بدين بالماضي النوبي العريق بطبقات تاريخه القديم و المسيحي و الإسلامي. الكتاب شهادة علي الواقع و الحياة و تشبه كتابة الرحالة نوعا ما ، ورغم جزالة اللغة و شاعريتها إلا أن الكتاب مليء بالمعلومات المهمة و الضرورية لدراسي الفلكور و ربما لكل من يهتمون بدراسة السودانيات عموما في التاريخ و الثقافة. عند قراءتك للكتاب ستجد متعة في المقاربات اللغوية التي بذلها الكاتب بين اللغة النوبية و العربية الدارجة وهنالك اثبات لكل مفردة نوبية اوتعبير نوبي احتاجه السرد الممتع لتفاصيل الموضوع المحدد بالنطق السليم. تابع المؤلف مجري نهر النيل بأفرعه من المنابع للمصب ليناقش اهمية الماء في اقتصاد المنطقة الزراعي و ارتباط الري بالساقية و الشادوف: آلالات الري الزراعية النوبية العريقة مع اسماء اجزائها و المناطق التي انتقلت لها تلك التقنيات حتي خارج حدود الوطن بدول الجوار. بالكتاب ايضا تغطية لمشروعات التنمية الزراعية و مجهودات الحكومات المتعاقبة في تغيير ملامح الحياة بادخال الانتاج الزراعي الكثيف. اورد المؤلف سردا لبعض الخرافات و الاساطير المرتبطة بالنهر مع محاولة لتحليلها .و صاغ الكاتب رأيا وجيهاً حول موضوع استعراب و أسلمة النوبيين بنقاش المعتقدات الشعبية حول الاصول العرقية و المعتقدات الرائجة. ثم ناقش باستفاضة اهمية الرقم سبعة في اللاهوت النوبي و المسيحي و اهميته في الاسلام و اهميته حاليا عند سكان جزيرة بدين. يستعرض الكاتب كل ما يتعلق بالنخلة و اهميتها في حياة الناس مع تفصيل للكلمات النوبية المتعلقة بزراعتها و استغلالها و رعايتها و ارتباط العرب من غير النوبا بحصاد التمور.و بالكتاب وصف دقيق لسوق بدين و سوق كرمة النزل و ما فيهما من طرافة في حقب زمنية مختلفة كانت هي فترات حياة المؤلف في تلك المنطقة. ثم سرد المؤلف وقائع لحياة الداخليات و مراحل الدراسة ،الإبتدائية في بدين بمدرسة "شبَّة" و ذكريات المدرسة الثانوية العامة في البرقيق . لقددرس المؤلف المرحلة الثانوية في عبري وحينها كان قد اشتدعوده و انشحذت ذاكرته فلم تترك حتى الشوارد من التسجيل خاصة عندما كتب عن السفر باللواري عبر مناطق النوبة و شمل التوثيق تاريخ التعليم في بدين و سيرة حفظة القرآن و الخلاوي. و بالكتاب وصف دقيق للقباب في بدين مع تأريخ لسيرة ساكنيها

من الأولياء الصالحين و تغطية مفصلة للعادات الاجتماعية المرتبطة بصيام رمضان و العيد.يتخلل السرد الممتع فاصل من الحنين ما ينفك يلاقيك و انت تنتقل في صفحات الكتاب . في سرده لتاريخ الممالك الكوشية (اعتراض المؤلف علي اطلاق لفظة "حضارة نوبية" لانها تختزل تاريخ السودان جغرافيا و عرقيا، ببساطة لأن الامر عنده تاريخ وطنٌ كامل و مترامي الأطراف). و سجل الكتاب شهادات عن لغة او قل لغات سكان جزيرة بدين . ومن اطرف ما في الكتاب سيرة الحمار ذلك الحيوان الذي رافق الانسان خادما له باخلاص و اهميته في حياة سكان جزيرة بدين . بالكتاب أيضا توثيق لسِيَر بعض الشخصيات المؤثرة في حياة الجزيرة خاصة الذين امتد تأثير بعضهم ليشمل كل السودان. وينهي الكاتب سِفرَه بكلام في الحنين و افتقاد الوطن في قالب سردي متماسك لا يترك فنانا او شاعر اصيلا صاغ جمالا في في دواخل السودانيين .

طه جعفر

مدخـــل : ـــ
كنتِ وكنّا

::::::::::::

أنتِ فدين وأنتِ بدين

كان الإسمُ وكنتِ وكُنا

إسم نوبى . نصرانى . وثنى . أو عربى

كلّ مَقبول

فلكلٍّ فيكِ حديثٌ وعبارة

لكُلٍّ فيكِ مقالٌ وإشارة

لكُلٍّ فيكِ رموزٌ وحضارة .

لكُلّ فيك إمارة .

لكُلٍّ فيك مَزارْ

لكُلٍّ اثرٌ منقوشٌ فيكِ

لكُلٍّ تذكارْ

::::::::::::::::::::::::::::::

كنتِ هناكَ، وكنتِ بدين

وكنتِ وكنا

منذ خرجتِ عروساً من جوفِ النيل

يا بنت النيل وست الجيل

يا لؤلؤة الوادي. يا فاتنةُ سمراء

كنتِ هناك، وكان الفصلُ ربيعاً

كان الطقسُ جميلاً

حين خرجتِ إلي الدنيا

مُشرقة الوجهِ وقاراً ونضارْ

حين خرجتِ الي الدنيا طارتْ نحوكِ كلّ الأطيار

من كل بقاع الحسن الأخضر من كلّ الأشجارْ

إمتدت نحوكِ كلّ الأبصار

حين خرجتِ الي الدنيا فاحَ العطرُ العَطّار
عِطرُ الأرض ـ البكر، عِطرُ الأرض العذراء، عطرُ النوّار
حين خرجتِ الي الدنيا
غني القمْريّ بلحن الحب
زغردت الأشجار
رقص الموج علي الضفة
وإنتشت الأزهار
حين خرجتِ الي الدنيا
تجمّعتْ السُحْبُ من الآفاق
إشتعل البرق ضياءً
إحتفل الرعدُ فدوي
وإبتلت أرضك بالأمطار
حين خرجتِ الي الدنيا
هَبتْ نسماتك باردةٌ، نشوي
أسكرت الخُطّاب علي طول الوادي
جاء العِرسان: رجالٌ سمرٌ أخيار
من مملكة النوبة جاءوا
من تلك الأديار
جاءوا يسعون الي أرض الخير المدرار
من كرمة جاءوا. جاءوا من كجبار
من أرقو. من دلقو. من عبري
من حلفا أرضُ الحجر الناطق بالأسرار
جاء بعانخي ، جاء القائد تهراقا،
جاءت (كنداكة)* . في(شُوقر ـ)* عِزِّ جَرّار
جاءوا في (سِقِر ـ)* نوبي الرِيّس والبَحّار
عبروا النيل إليكِ
والقوا فيكِ عصا التسيار

في ساحتك الخضراء

أناخوا قافلة ـ الأحرارْ

قافلة التاريخ ـ الموغل ـ في الأطوارْ

قافلةَ المجدِ العابق بالآثارْ

عندكِ ناموا، قاموا

عبدوا (آمون)* الجبارْ

عبدوا النيل خُرافيَّ ، المجرى والتيارْ

عندكِ جاء كتاب التوراة وجاء الإنجيل

عندكِ جاء الفرقانْ

شمِلَتهم رحماتُ الرحمن

فصاموا، قاموا بالليل، وصلوا في الأسحارْ

فكنت بدين وأنتِ فدين

أنتِ الأصل وأنتِ الفصل

أنتِ الدارْ

أنتِ القيمةُ والمقدارْ

أنت بدين وكنت فدين

وكنتِ وكُنا

::::::::::::::::::::::::::::::

*(كنداكة) لقب ملكات النوبة.

*(شُوقَرْ) يعني سَيرة(سيرة العريس) .

*(سِقِرْ) بكسر السين والقاف يعني مُركَب شراعي.

*(آمون) اسم إله النوبة والمصريين القديم.

- 1 -

بنفسي تِلْكَ الأرضُ ما أطْيَبَ الرُّبى :::: وما أحْسنَ المُصْطافَ والمُتَرَبَّعا

وأذْكُرُ أيـامَ الحِـمى ثمَّ أنْثَني :::: على كَبِدي مِن خَشْيَةٍ أنْ تَصَدَّعا

فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمى بِرَواجِعٍ :::: عليكَ ولكنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعا

سَلامٌ على الدّنيا فما هِيَ راحَةٌ :::: إذا لم يَكُنْ شَمْلي وشَمْلُكُمُ معا

الصِّمة القشيرى

نعم، هكذا تركتُ عينىَ تدمع، وتركت قلبى يدمع، وتركتُ قلمي يدمع، علي تلك الأرض، ما أطيبها ربى، وما أحسنها مصطافا، جزيرة بدين، مسقط الرأس، ملاعب الطفولة ومراتع الصبا، غبت عنها . وعدت إليها بعد عشرين عاماً . ولما وطئتْ قدماي أرضها أحسست وكأنني ولدتُ للتو، غمرني دفئ العشيرة . وطاف في ذهني ذكريات الطفولة والصبا . إستعدت مع بعض أندادي أيام الخلوة ومراحل التعليم الأولى . في فرحة طفولية جلسنا نحكي . خرجتْ أصواتنا مشحونة بالشجن والحنين . كان كل واحد منا يجد نفسه في حديث الأخر . طفتُ بالبلدة أتحسس أماكن عزيزة . وقفتُ علي شاطئ النيل كما كنتُ أفعل . سيطر عليّ شعور حزين ومؤنب . كم كنت قاسياً عندما غبتُ كل هذه المدة عن بدين وأهلها . تغير الكثير من معالم البلدة . عشرون عاماً . لم يعد المكان هو المكان ولا الزمان هو الزمان . ولكن بدين هي بدين . بأرضها وسمائها . بليلها ونهارها . بشمسها وقمرها . بأهلها الثابتون كالنخيل . كانت بدين هناك، دائما كانت هناك، حيث هي . منذ أن خرجَتْ من جوف النيل . متى؟؟ مالنا ومتى . كيف جاء إسمها؟ لا ندري، المهم جاء إسمها وكان فدين أو بدين، وكانت وكنا، هناك خرجَتْ من جوف النيل . عروسا كاملة الزينة، حورية شاملة الجمال، زينتْها الطبيعة . زفّها ملائكة النيل بالعديل والزين، فى ثوب زفاف أخضر رطيب، ثم تركوها فى حضن النيل، وأي حضن كحضن النيل، تمددت هناك محاطة بالماء من كل جانب، وأي نعمة كالماء . توسدت صخور الشلال الثالث شمالاً وتمددت نحو الجنوب بضعة أميال، إستلقت هناك علي بعد حوالي خمسة وثلاثون ميلاً شمال مدينة دنقلا، إكتملت أنثي خصبة، بكرا، ولودا، ترنو بعين حسناء الي أبوفاطمة وكبرنارتي وكرمة ووادي خليل شرقاً، وتنظر إلي مقجور وأكد والحفير غرباً، وهم يتغزلون فى جمالها الخلاب، دخل عليها إخوان بيا (بعانخي) ونهارقا، وألقوا رحالهم في ساحتها الخضراء، حضَنَتهم بصدر أم رؤوم، أعطتهم الأمن ووهبتهم الأمان، أرضعتهم الطيبة وسقتهم الحنان، فسكنوا في مودة ورحمة، وتوالدوا عندها، عاشوا مطمئنين سعداء، مارسوا حياتهم في ظل وثنية أو حنيفية، من يدري!!، جاءهم دين موسى فقبلوه، جاءهم دين عيسى فعاشوا عليه دهوراً، حتي جاءهم الإسلام فأهتدوا به بعد أن عقدوا مصالحة بينه وبين عاداتهم وتقاليدهم القديمة، وما تزال بعض تلك العادات الهجين سارية وقيد الممارسة إلى يومنا هذا، وما زلنا نذكر طقوس الولادة والسماية والختان والزواج، ميراث أجيال وأجيال، منذ فجر التاريخ، طقوس عبادات متراكمة، حضارة إنسانية تعايشت فيها الوثنية والنصرانية والإسلام.

سارت عملية التكاثر علي فطرتها السهلة. تحمل النساء وتلدن في بساطة. لم يكن هناك طبيب ولا جدول شهري ولا أسبوعي للمراجعة. لا أجهزة ولا سماعات ولا موجات صوتية ولا بصرية. لا بنج ولا تعقيم ولا مضادات حيوية ولا يحزنون. عندما يحين موعد الولادة تصرخ المرأة وتولول بطريقة معينة فتجتمع حكيمات الحي قرب سريرها مع الداية البلدية. التي تعرف ما عليها. وعلي دراية فطرية تامة بكل تعقيدات العملية. ورغم الصعوبة في التوليد بسبب خضوع نساء أجيال متتالية للطهارة (الختان) الفرعونية اللعينة. إلا ـ أن العملية كانت تتم بدون نتائج كارثية في الغالب. فيخرج الطفل إلي الدنيا صارخاً في وجهها ووجه من فيها. يحدث ذلك دون الخضوع لكل الإجراءات الطبية المعقدة التي رأيناها لاحقا في بلاد الله. والتي توصف ب "المتحضرة". أثناء الولادة كانت الأم تمسك بحبلين أو فرعين من السعف (جريد النخل) تعلق في السقف فوقها. كانت الولادة تتم بطريقة بدائية في غرفة بلدية بأدوات بلدية . هكذا وُلدنا . أما أبناؤنا الأعزاء فقد وُلدوا بطريقة أخرى . في مستشفيات عالمية من الدرجة الأولى . في غرف فيها من الأجهزة الحديثة ما لو رأها أجدادنا وجداتنا لأصيبوا بالذهول الدائم . وهنا يحضرني موقف طريف . فأحد هؤلاء الأبناء هو (طلب) أو طلوبي كما يحلو للأسرة أن تناديه . وهو إبن أخينا وصديقنا العزيز الصادق فرحان . وقد وُلد طلوبي في إحدى مستشفيات تورنتو الراقية . ونشأ في هذه المدينة الساحرة مستمتعاً بترف الحياة فيها . وفي سنواته الأولى أصبح مولعاً بالحيوانات حد الهوس . فما أن يرى حيواناً في التلفزيون أو في أفلام الأطفال حتى يقفز ويتقلد شخصية الحيوان . ومن كثرة مشاهدته للحيوانات أصبح يجيد تقليدها بصورة مذهلة وطريفة . ثم تطور موهبته في التقليد فيما بعد فأصبح يقلد الناس بنفس الطريقة . وكان للفيل نصيب الأسد من إعجاب طلوبي . ثم لمّا علم أن كل أنواع هذه الحيوانات موجودة في أفريقيا فقد ترسخ في ذهنه أن أفريقيا ليست إلاّ غابة كبيرة يسرح فيها الحيوانات في الشوارع جنباً إلي جنب مع البني آدم الأفريقي المتخلف . وحينما بلغ طلوبي من العمر الخامسة عشرة قررت الأسرة السفر إلي السودان . وما أن علم طلوبي بذلك حتى هلل صانحاً بمجموعة من أصوات الحيوانات . معبراً عن فرحته الغامرة بغزو أفريقيا وإكتشاف مجاهلها المثيرة. وهكذا أخذ طلوبي في تهيئة نفسه لرحلة العجائب والغرائب . وفي اليوم التالي من معرفته بالسفر ذهب إلي المدرسة وتبختر بين أصحابه ناشراً للخبر بإنجليزية فصيحة لا تأتيها العربية ولا الرطانة من بين يديها ولا من خلفها . وأصحابه يتساءلون في دهشة :

(Really ? You are going to Africa? WOW!! That is coool)

وطلوبي كغيره من أبناء المهاجرين لا يعرف عن أفريقيا إلاّ ما يشاهده في برامج التلفزيون . والتلفزيون لا يعرض من أفريقيا إلاّ الحيوانات ومناظر الكوارث والجفاف والتصحر والناس الذين يموتون جوعاً. ذهب طلوبي إلي السودان . وبعد أيام قضاها في الخرطوم سافر إلي البلد . إلي الحفير . وهناك طاف به عمه معرفاً إياه بأهل البلد ومعالمها . من هذه المعالم بيت عتيق متهدم مهجور. كان يوماً ما عرينُ أسد حصور. يهابه الغادي والرائح . وقف طلوبي على أطلال قصر جده متعجباً . فقال له عمه يا طلوبي : أبوك مولود هنا . في البيت ده . فقال طلوبي على الفور:

(دا كان Hospital؟) . جزاك الله عنا يا طلوبي . (ده ما كان هسبتال) . كان بيتاً عامراً لرجل كريم مضياف . بيت وُلد فيه رجال ونساء . نشؤوا وتربوا وتعلموا، ولمّا ضاقت بهم الحياة . ولمّا كانت أرض الله واسعة ساروا في مناكبها يأكلون من رزقه . هكذا رمت الأقدار بوالديك في تورنتو . فوُلدتَ ولادة (محنكشة) . أما عندنا فقد كان الأطفال يولدون (ولادة حبل) . ورغم بدائية العملية كان الطفل يولد ويستمر في النمو سليماً معافى . لا سميلاك ولا سيريلاك ولا دايبر . لا تايلنول ولا تطعيم ضد الشلل او التايفويد أو ... أي شئ . كل الذي كا ن متوفراً من مستحضرات الطب الحديث شئ يسمى (ماء غريب) وكان غريباً فعلاً . علاج سحري لكل أمراض الأطفال . رغم إنتهاء صلاحيته قبل زواج الأب والأُم بكثير.

أشرتُ في المقدمة وأعيد الإشارة هنا إلي أنّ بعض الفقرات منقولة من عدة منتديات نوبية بتصرف . وذكْرُ هذه المنتديات أو الإشارة إليها بإسمها صعب لسببين . أولاً لكثرتها . وثانياً لأن المعلومات متفرقة فقمت بإضافة بعضها إلي بعض . وهي في النهاية لا تخرج عن كونها معلومات شعبية متداولة بين الناس. منها ما عايشناه ومنها ما كان قد أنقرض قبل جيلنا . وهذه الإشارة لتثبيت الحق الأدبي لمن نقلتُ عنهم وأخذتُ منهم.

أكثر ما كانت تقوم به المرأة النوبية قديما . أثناء فترة الحمل. والحامل تسمي (جُنتي)(Junty). هي الزيارات الدائمة لنهر النيل. للتبرك بمائه المقدس. ولإلقاء بعض الهدايا لملائكة النهر (أنقلسرى Angelesry)... هل تسمع ثمة صدى لكلمة angel التي تعني "الملاك" في العديد من اللغات الأوربية؟ وتذكر ان ديار النوبة ظلت مسيحية لفترة طويلة بعد دخول الإسلام. وكانت هذه الزيارات تتقارب وتكثر في الشهر الأخير من الحمل. وكانت تلك الهدايا تتمثل بصورة أساسية في العصيدة الـ (قِرِي) تحملها الى النهر مع الصباح الباكر. وتلقيها فيه. متمنية أن يحقق لها ذلك ولادة سهلة ميسرة. أما إذا تعثرت الولادة فكانت النساء تستغيث بـ (ماريا) (السيدة العذراء) في إبتهال باللغة النوبيّة. وكان يُطلب من الزوج الإبتعاد من البيت. ومن الإعتقادات التى كانت تسود عالم الحمل والولادة قضية طائر الشؤم (البومة) والتى كانت تمثل خطراً كبيراً على الحامل وطفلها. إذ كانوا يعتقدون أنّ فى مقدور البومة إسقاط الجنين بالتحليق فوق رأس الأم . ولتحفظ المرأة نفسها كان عليها أن تضع قطعة معدنية (إبرة أو دبوس) في شعر رأسها ليكون حاجباً بينها وبين البومة. ولهذا الحقد الذي تكنه البومة على المرأة الحامل جذور في الأساطير النوبية إذ يقال إن البومة كانت في الأصل بنتا إسمها (فانة) ولم يتقدم لها أى شاب حتى فاتها الركب. و ذات مرة. وهي في حزنها من عدم تقدم الخطاب لها ضربتها أمها بعود. فإنقلبت في الحال الى طائر (البومة) الذى نراه اليوم. ومنذ ذلك الوقت تكره البومة عنصر الرجال. لأنهم لم يتزوجوها. ولذلك فإنها تحاول إسقاط الجنين من الأرحام حتى لا يرزق أحد بولد . وكان يُعتقد أنها تتحين الفرص لإرضاع الطفل الذكر في غياب أمه. لذا اعتاد الناس على تعليق أوراق العُشر في سقف الحجرة . ولا أدري ماذا كانت الحكمة من وراء ذلك. فالبومة تعيش أصلاً فوق أغصان أشجار العشر. ولا تخرج إلاّ بعد صلاة العشاء. وكانوا يسمون الإنسان الغشيم الذي لا يعرف الوقت بـ (بومة العشي).

بعد الولادة مباشرة كانت الداية وبعض النساء اللائي تواجدن اثناء الولادة. يذهبن الي النهر. وتحمل احدى القريبات الحجارة التى جلست عليها الأم(كانت الولادة تتم فى وضع الجلوس على قطع حجرية ملساء كبيرة نوعا ما) والرمال التى سقطت عليها دماء الولادة وسبع تمرات والمشيمة. ثم يلقين تلك الأشياء في النهر. وكان الغرض من إلقاء الحبل السرى(المشيمة) فى النيل فى حضور نساء القرية اللاتى يشهدن الحدث هو منع اى امراة تعانى من العقم من سرقة الحبل السرى واستعماله فى تعويذة تعيد لها الخصوبة وتحرم الأم منها . وفي بعض الحالات كان الأب ياخذ المشيمة وهي في النوبية تسمي (سين) كان ياخذها ويدفنها في المزرعة . إذا كان المولود ولداً. أما إذا كانت بنتاً ، فتدفنها الأم في المطبخ (التكل) (إيقن شا) . وفي مرحلة متقدمة أصبحت المشيمة تدفن في المسجد تفاؤلاً بأن يتعلق الطفل بالمساجد.

كانت الأُم ترقد فى المنزل (فى غرفة خاصة) مع مولودها ولاتخرج منها ، كانت تلك الغرفة تسمي (مارينْ نوق) يعني بيت ماريا ، في إشارة إلي مريم (العذراء) ، والتسمية فيها تخويف ضمني. إذ توحي ب"قدسية المكان". لتخويف النساء من ممارسة أي من (أعمال) الشر التي تضر بالأم أو المولود. وكانت هناك أشياء خاصة بهذه المناسبة توضع بجوارها وتحفظ فى إناء نحاسي كبير يوضع بالقرب من سرير الأم. كانوا يضعون في هذا الإناء روائح وحنة ، وكحلا ، وسكرا، وماءً ، وسكينا وشيئا من البلح والقمح والقرظ (القرض). وهو ثمرة شجر السنط. وقطعة حديدية. كما يوضع إناء به زيت وقطن مشتعل. وعند إرضاع الطفل كانت الأم تضرب ذلك الصحن النحاسي بالمكحل حتى يصدر رنينا ثم بعد ذلك تعطى ثديها للطفل ليرضع. وهذه الاشياء لم تكن تزاح عن مكان رقاد الأُم النفساء إلا بعد الأربعين. أي مرور 40 يوما على الولادة ، وعادة ما كان الإحتفال بالسبوع. أي إكمال المولود لسبعة أيام – وهو اليوم الذي يتم فيه اختيار اسم للمولود – حافلا بالطقوس والمراسيمً. إذ تذبح الذبائح وتقام الولائم. ويسمى ذلك اليوم في السودان الأوسط "السماية" ويسميه النوبيون (كُلدن أقْ) وكلد colod في النوبية تعني "سبعة". و(أقْ) يعني يوم. ك (بلين أق) يعني يوم العرس. (فوشن أق) يوم الثلاثاء. ولكن عند النطق يدمج النون والألف فيبقي (كُلدنق) وأسماء الأيام عند النوبيين هي :-

السبت : سَنتي . Sante (هل تسمع صدى لكلمة سينت "القديس" اللاتينية"؟

الأحد : كِرَقِ . Kirege (وباليونانية كرياكي ويجدر بالذكر ان الكنيسة النوبية كانت قبطية وان اللغة النوبية كانت تكتب بالحروف القبطية أي اليونانية القديمة)

الإثنين: فوش . Foosh

الثلاثاء: فوشنوقو. Foosh nugu

الأربعاء: فوشنباق Foosh nabag

الخميس: ميسقو دب Missogo dip

الجمعة: ميسقو. Missogo (ميسي في اللهجة النوبية الشمالية هو "الصوم" ويوم الجمعة هو يوم الصوم عند الأقباط)

كان النوبيون يعتقدون ان يوم الأربعاء يوم نحس . وكان هناك يوم في السنة يسمي (أربها مُري) يكون يوم أربعاء، كان يوما غير محبوب، يتشاءمون منه كما يتشاءم الأفرنج من الرقم (13). وكانوا يمنعون الأعراس في هذا اليوم. ولا يمنحون الحليب أو أي من مشتقاته . ولا يتداولون الأشياء بينهم . ولا يغسلون الملابس، ولا يمارسون الزراعة ولا الحصاد، وال (مُري) هو الكعب او السئ، و(كديس مُري) هو الكديس الذي يعض او يؤذي، وأكثر ايام الأربعاء شؤما كان ذاك الذي يأتي بعد اكتمال دورة القمر ويسمى "اربها أون أباق" Oon abag

. كما أن يوم السبت يسمى (سبت جز مري) ومعناه اليوم الذي يقطع الظهر (جر)،والغريب أن يوم الأربعاء كان يوم شؤم عند العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام . وهو أيضاً يوم شؤم عند بعض الشعوب الأوربية.

كانوا يفضلون يوم السبت لبداية إرضاع الطفل، وبعد الإحتفال بالسبوع، ومع بداية أول هلال من الولادة كانت الأم تحمل المولود وتقفز فوق النار سبع مرات، وتخرج لتشاهد الهلال، وتنثر الماء نحوه مع الدعوات والإبتهالات، ثم تتخطى بخوراً يتكون من سبعة رؤوس من الشوك، وقليلا من القرظ/القرض، وورق البصل، وقليلا من الملح، وتتخطى هذا البخور سبع مرات وهي تحمل المولود، وفي حالة عجزها عن ذلك، تقوم امرأة أخري بتلك الطقوس نيابة عنها تجنباً (للمشاهرة)، وأول هلال من الولادة هو الهلال الذي كان يتعلق به مفهوم

(المشاهرة)، ولا أعرف ما إذا كانت هذه الكلمة نوبية المنشأ أم لا لكونها مستخدمة في أنحاء السودان الناطقة بالعربية، والإصابة بالمشاهرة هي أن تصاب العروس (نُقُدو) او البنت المختونة/المطهرة (برُو مَرَفي) أو المرأة النفساء (إدينْ أنَادافي) وطفلها (بتان) أو (أسَرْ) الي الأذي الذي يلحقهن نتيجة الإخلال ببعض الطقوس التي يجب مراعاتها، وهذه الطقوس هي أن لا تتعامل أو ترى أيّا من هؤلاء :.

1 . من رأي جنازة 2 . من رأي دماً 3 . من قتل عقرباً

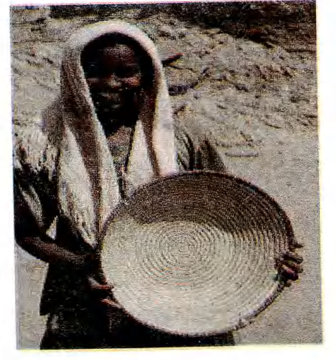
وإذا كانت هناك وفاة . كانوا يصرّون علي العريس الذهاب ورؤية الجنازة . وبذلك يمنع الباقين من "مشاهرة" عروسه . وكان من غير المسموح لمن رأى دماً أو جنازة، أن يدخل على العريس أو العروس، ومن نتائج الإصابة بالمشاهرة حدوث نزيف للمرأة النفساء، أو جفاف لبنها، أو إصابتها بالعقم بعد ذلك، أو إصابة الطفل بأمراض خطيرة، أو إصابة العروس بالعقم، أو الجنون، أو حدوث عدم وفاق في الزواج، أو إصابة البنت المطهرة بإلتهاب الجرح، وكان علاج المشاهرة يتم بالآتي:

وكما في كل المعتقدات البشرية عبر التاريخ الإنساني، يتعلق الأذى بكائنات شريرة، وتتنوع وتتداخل طقوس إرضاء هذه الكائنات والفكاك من أذاها حسب تقييم الجماعة الشعبية المعينة للأذي وطريقة العلاج، وفي المشاهرة إذا كان المتسبب ممن رأى جنازة، يأتون بتراب من فوق القبر الذي دفن فيه الميت، ويذاب هذا التراب في ماء ثم تستحم به المصابة، أو تغسل المصابة بالصابون الذي تم غسل الميت به، وإن لم يُعثرعلي نفس الصابون، فبصابون متوفٍ

أخر يتم تسريبه من وراء ظهور أهل المتوفي، ولذا كانت المشاهرة لسبب آخر تنزل المصابة في الصباح الباكر. أو بعد أذان المغرب، الى النيل، ترافقها امرأة كبيرة السن، تحمل مبخراً وسبعة رؤوس من [illegible] وحبوب ذرة، ثم تشعل المرأة النار في المبخر، وتقف المصابة بالمشاهرة فوق المبخر، وتستنشق الدخان المتصاعد، ثم تذهب الى النيل ، وتأخذ من مائه بإناء ، وتغسل وجهها فوق المبخر، بشرط أن تتساقط ذرات الماء من وجهها على المبخر حتى تنطفئ النار. وتعالج المشاهرة أيضاً بتخطي ثعبان يتم قتله وبالاستحمام في البيت مع وضع قطعة ذهب تحت القدم، وبعد إحتفالات السبوع تتوجه الأم وبصحبتها الفتيات الصغيرات والداية وبعض القريبات الى النهر، وتقوم الأم بالقاء سبعة قطرات من العطر/الريحة . وكمية من الحنة فى النهر. وبعدها يتم وضع الكحل فى عيون المولود. وعند العودة الى المنزل تُملأ بعض الأوانى بماء النهر، ليسكب هذا الماء فى حجرة الوليد لكى تباركه وتصاحبه ملائكة النهر طيلة الأربعين يوما التى تمكث الأم فيها فى المنزل، وبنهاية "الأربعين". تتم زيارة النهر مرة أخري فتغسل الأم وجه الطفل ويديه ورجليه بماء النهر (هل تسمع هنا صدى التعميد الكنسي؟) ثم تملأ سبعة جرادل من الماء لتأخذ الأم (حمام الأربعين) وكانت الأم تسكب الماء أربعين مرة فوق جسدها لكى تتطهر، وكانت تتلقى بعض النساء، اللاتى لم يحالفهن الحظ فى الحمل، بعض من هذا الماء، كهدية من الأم، على أمل أن يحالفهن الحظ بعد ذلك، وفى بعض القرى كانوا يستدعون طفلاً حسن الأخلاق، ويطلبون منه أن يمضغ بعض التمر ثم يمس شفتى الوليد بلسانه.أملاً فى أن تنتقل إليه الأخلاق الحميدة مع حلاوة البلح، ويقال أن هذه العادة في الأصل سنة فعله الرسول (ص). وفي اليوم الأربعين كانوا يذهبون إلي قبة/ضريح "الشيخ" وهن يحملن الطفل وقراصة (قرص سميك يصنع من عجينة دقيق القمح بالسمنة) لها سبعة قرون، يسمونها "كرامة أو نذر". ويتبركون بتراب القبر ويتوسلون بالشيخ أن يحفظ طفلهم من شرور الإنس والجن، ودائماً ما كانت هذه الإحتفالات تنحصر علي النساء والأطفال، ولا يشارك الرجال فيها. أما الأُم فكانت لفترة طويلة تتمتع بعناية جميع نساء الحي. ومن ناحية غذائية كانت الأم تعتمد علي الـ (فنتي قري) وهي عصيدة مركزة من البلح، أو الـ (كَرْمِنْ قِري) وهي عصيدة الحلبة. أما الزوار فكان يقدم لهم شئ يسمي (الأسلي) يتكون من بلح مع قمح و(كوشي) مقليين علي النار. ولا أعرف للكوشي اسما بالعربية وهي من الحبوب التي تنتمي الى عائلة الشعير.

والغباء، ويشتمها بأقذع الألفاظ ، ويضربها ضرب غرائب الابل. كان يفعل ذلك رغم أنه لم يكن بليداً ولم يكن يجلد (كثيراً) ، والجلد المؤذي كان شائعا في المدارس ، وكان هناك من المدرسين من يمارس الجَلْد كهواية ، ليس لأن التلميذ يستحق الجلد إنما لأن المدرس كان يستطيع أن يجلد ، فلا معنى إطلاقاً لجلد التلميذ 20 و30 و40 جلدة ، هذه الطريقة العبيطة في العقاب كانت من الأسباب المباشرة التي دعت الكثير من التلاميذ لترك المدرسة والهروب من البلد ، ولا أدري ما إذا كان أسلوب الجلد هذا متبعاً حتى الآن ، أتمنى أن يكون قد إنتهى.

وعلى كلٍ ففاروق أيضاً لم يغترب، إستقر في الخرطوم، منتقلاً من عمل الي آخر، إكتفي من الدنيا بالقليل، فعاش في هدوء وقناعة ، أما الصديق الأقرب فقد كان الأخ فضل عبدالمطلب فضل، أخٌ لم تلده أمي ، كان يأتيني في البيت فأقوم بتوصيله إلي بيتهم، فيقوم هو بتوصيلي إلي بيتنا، وهكذا حتي ينتصف الليل، إفترقنا بعد مرحلة الثانوية العامة، ولكن إستمرت صداقتنا، سافر إلي العراق حيث درس المرحلة الجامعية، ثم إجتمعنا في السعودية، وتركناه هناك وهاجرنا، وهو رجل يحمل قلباً كبيراً، ثم أذكر علي محمد إبراهيم، كان صديقاً مقرباً، إفترقنا بعد البرقيق، ولم

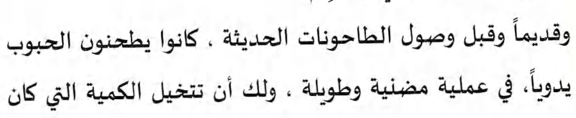


أقابله بعد ذلك إلا مرة أو إثنتين، أين أنت الآن يا علي؟ كلهم تزوجوا وخلّفوا وعاشوا في أمان، أبقاهم الله حتي يكملوا مشوار التربية الصعيب.

أعود الآن الي مراسم الزواج وما كان يتبعها من أمور، كان هناك نوع من الأعراس طريف، كان اسمه (تُوقِنْ بَلي) والترجمة الحرفية (عرس الريح)، وكان عرساً كاذباً، بدون عريس ولا عروسة، إحتفال تقوم به إمرأة ليست لديها أولاد أصلاً، أو ليست لديها أولاد في سن الزواج، وهي تقوم بهذا الإحتفال لتجمع من الناس مقابل عطاياها التي شاركت بها في مناسباتهم، لتجمع ما دفعته في الكشوفات، وتسمي تلك المساهمات (كَسي) بفتح الكاف، أو (كري) والكَسي نادراً ما كان يكون في شكل مبلغ كاش، فقد كانت المساهمات عينية، ديك او دجاجة او ملوة قمح مع زجاجة سمن بلدي(مسلي) ، تحمله المرأة في (كُنْتي) وهو طبق عميق او مسطح منسوج من سعف النخيل، ومقابل هذه المساهمة تعود المرأة إلي بيتها بقدر بسيط من اللحم يسمي (أوِد) ، ومن العجائب ان كل إمرأة كانت تحفظ تماماً كل (الكسيهات) التي اعطتها



للأخريات، واذا تأخرت واحدة عن الحضور، أو لم تحضر الكَسي تقوم ملاسنة أعجمية نوبية رهيبة، تسمع فيها العجب العجاب، ولم يكن الزواج مكلفاً، كان المهر و(الشيلة) تتمثل في أشياء محلية بسيطة، ويوم العقد كان يتم تقديم التمر والكعك للضيوف علي صحون نحاسية تسمي (السِلِمْ).

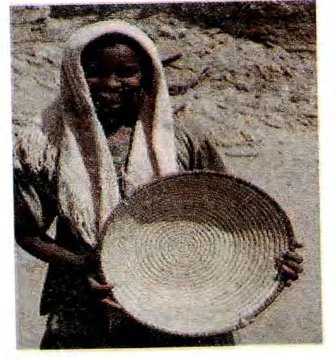


وقديماً وقبل وصول الطاحونات الحديثة ، كانوا يطحنون الحبوب يدوياً، في عملية مضنية وطويلة ، ولك أن تتخيل الكمية التي كان

و(بوشى) و(قرى) و(دكشو) و(تنقى) و(أفلخ) وهذا الأقلح هو اكثر انواع الاسماك قابلية للوقوع فى السنارة، وهى سمكة صغيرة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فكنا نعيدها إلى الماء . وكان لمحيي الدين مواهب عديده، فقد كان عداء، وكان يجيد (نط الحبل) وكان بارعا في صناعة عربات الصفيح . ومن خلال نظاراته الطبية التي إضطر اليها منذ الصغر، كان (يشربك) نفسه في أعمال دقيقة، وعندما كبر أخذ يعمل في تصليح الساعات وأجهزة الراديو والمسجلات. ثم كان من أوائل من إفتتحوا أستديو للتصوير في بدين. رجل نبيل ووديع. صبور علي الدنيا. قنوع بما تجود به عليه. إستقر به المقام في البلد. ولم يحاول الإغتراب الذي كان هاجس الجميع. والذي أضعنا فيه عمراً كان جديراً أن نقضيه في البلد. ولكن أراد الله غير ذلك. وما زال يكافح وينافح في البلد. تاجر ومزارع. يتدبر أمر نفسه وأسرته في صبر جميل. ومن دفعتي في الحي، وزملائي في المدرسة أيضاً. أخي محمود محمد طه. كان عاقلاً بالميلاد. فيه من حكمة والده الكثير. قضي جل وقت الطفولة مع والده الشيخ محمد طه. وفي عمر مبكر تعلم أصول الحساب ومسك الدفاتر. ووالده كان من تجار البلد المعتبرين. ومن حفظة القرآن. مؤتمناً من جميع أهل البلد. كانت الأسر تأخذ حوجتها من دكانه بالدَيْن. "تحت" الحساب. وكان له طريقة معينة في تسجيل هذه الديون. طريقة فيها دقة كبيرة وأمانة بالغة. وكان يكتب ويوقع بخط مميز. وكنا نتعجب كيف أن محموداً تعلم طريقة والده في الكتابة والتوقيع بذلك التشابه. إغترب في السعودية وما زال. ومنهم أخي تاج السر عكاشة. الذي كان يهوي السباحة، ويعشق كرة القدم. أما في الكشتينة. فلم يكن يقبل الهزيمة. إذا غُلب يلخبط ويجوط ويخرخر. يكسب الجولة ويستمر في اللعب. حتي لو إستبدل زميله. وربما لم يكن من قبيل الصدف أن يتخرج من كلية الحقوق. ويزاول مهنة المحاماة. لم يغترب. إستقر في الخرطوم. حباه الله عقلاً راجحاً ونفساً مطمئنة. يمد يد العون لهذا وذاك. يسعي في مصالح الناس بماله ووقته. ومنهم أخي الجزولي سعدالدين. الذي زاملني من الخلوة الي الثانوي. كان من ظرفاء الشلة. ذو روح مرحة . ساخر أحياناً . لم يكن مشاغباً. كان حريصاً علي سلامته الشخصية ولم يدخل نفسه في متاعب الأطفال الكثيرة. كان يلزم البيت بعد الغروب . دخل الحياة العملية تاجراً. كافح في التجارة كفاحاً مستميتاً. ينتقل بين بدين والخرطوم، وبدين ووادي حلفا. عمل شاق وممل. حالفه الحظ مرات وخذله مرات أخر. إغترب لمدة قصيرة نسبياً. ثم عاد. وأخذ سيرته الأولي. والعود أحمد يا صاحبي. ومنهم أخي فاروق عبد القادر. الذي كان أطولنا. ورغم أن الطول عز كما يقولون. إلا أننا كنا نتندر بطوله. كان حريفاً في الكشتينة. يدمن التبغ المعروف عند النوبة بالقامشة. كان يأتي بالقامشة ويصفيها من الشوائب، ويحتفظ بالشوائب. وعندما لا يجد شيئاً من القامشة يعود الي تلك الشوائب ويطحنها في الـ (جُو) بتلك الطريقة البدائية. ثم يبرمها برمة محترفٍ حريف. يشعلها بولاعة أو كبريت أو جمرة. كما إتفق. وينفث دخانها في السماء وكأنها بنسون أو روثمانز أو برنجي. وكانت له هواية غريبة. وهي (جلْد) المساطب والأشجار. بين المدرسة والبيت كان يحمل عصا طويلة يجلد بها المساطب أمام البيوت. وكانت مسطبته المفضلة في بيت مهجور غرب الجدول. قرب كبري قبة. بين (قبة) و(تورن مار). هناك كان يقف شامخاً كالمدرسين. يلقي الدرس علي المسطبة المسكينة. ثم يقرر أن المسطبة لم تفهم الدرس، ويتهمها بالبلادة

والغباء، ويشتمها بأقذع الألفاظ ، ويضربها ضرب غرائب الإبل. كان يفعل ذلك رغم أنه لم يكن بليداً ولم يكن يجلد (كثيراً) . والجلد المؤذي كان شائعا في المدارس ، وكان هناك من المدرسين من يمارس الجَلْد كهواية ، ليس لأن التلميذ يستحق الجلد إنما لأن المدرس كان يستطيع أن يجلد ، فلا معنى إطلاقاً لجلد التلميذ 20 و30 و40 جلدة ، هذه الطريقة العبيطة في العقاب كانت من الأسباب المباشرة التي دعت الكثير من التلاميذ لترك المدرسة والهروب من البلد ، ولا أدري ما إذا كان أسلوب الجلد هذا متبعاً حتى الآن ، أتمنى أن يكون قد إنتهى.

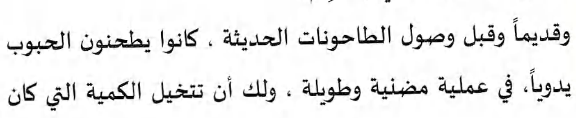
وعلى كلٍ ففاروق أيضاً لم يغترب، إستقر في الخرطوم، منتقلاً من عمل الي آخر، إكتفي من الدنيا بالقليل، فعاش في هدوء وقناعة ، أما الصديق الأقرب فقد كان الأخ فضل عبدالمطلب فضل، أخٌ لم تلده أمي ، كان يأتيني في البيت فأقوم بتوصيله إلي بيتهم، فيقوم هو بتوصيلي إلي بيتنا، وهكذا حتي ينتصف الليل. إفترقنا بعد مرحلة الثانوية العامة، ولكن إستمرت صداقتنا، سافر إلي العراق حيث درس المرحلة الجامعية، ثم إجتمعنا في السعودية، وتركناه هناك وهاجرنا، وهو رجل يحمل قلباً كبيراً، ثم أذكر علي محمد إبراهيم، كان صديقاً مقرباً، إفترقنا بعد البرقيق، ولم أقابله بعد ذلك إلا مرة أو إثنتين، أين أنت الآن يا علي؟ كلهم تزوجوا وخلّفوا وعاشوا في أمان، أبقاهم الله حتي يكملوا مشوار التربية الصعيب.



أعود الآن الي مراسم الزواج وما كان يتبعها من أمور، كان هناك نوع من الأعراس طريف، كان اسمه (تُوقِنْ بَلي) والترجمة الحرفية (عرس الريح). وكان عرساً كاذباً، بدون عريس ولا عروسة، إحتفال تقوم به إمرأة ليست لديها أولاد أصلاً، أو ليست لديها أولاد في سن الزواج، وهي تقوم بهذا الإحتفال لتجمع من الناس مقابل عطاياها التي شاركت بها في مناسباتهم، لتجمع ما دفعته في الكشوفات، وتسمي تلك المساهمات (كَسي) بفتح الكاف، أو (كري) والكَسي نادراً ما كان يكون في شكل مبلغ كاش، فقد كانت المساهمات عينية، ديك او دجاجة او ملوة قمح مع زجاجة سمن بلدي(مسلي) ، تحمله المرأة في (كُنْتي) وهو طبق عميق او مسطح منسوج من سعف النخيل، ومقابل هذه المساهمة تعود المرأة إلي بيتها بقدر بسيط من اللحم يسمي (أوِد) ، ومن العجائب ان كل إمرأة كانت تحفظ تماماً كل (الكسيهات) التي اعطتها للأخريات، واذا تأخرت واحدة عن الحضور، أو لم تحضر الكَسي تقوم ملاسنة أعجمية نوبية رهيبة، تسمع فيها العجب العجاب.



ولم يكن الزواج مكلفاً، كان المهر و(الشيلة) تتمثل في أشياء محلية بسيطة، ويوم العقد كان يتم تقديم التمر والكعك للضيوف علي صحون نحاسية تسمي (السِلِمْ).



وقديماً وقبل وصول الطاحونات الحديثة ، كانوا يطحنون الحبوب يدوياً، في عملية مضنية وطويلة ، ولك أن تتخيل الكمية التي كان

يجب طحنها لتكفي مناسبة زواج. كانوا يستعملون آلة حجرية تسمي (أرشي) أو (رحايى) والرحاية كما هي واضحة في الصورة السابقة (من متحف كرمة) فكرتها بسيطة. يؤتي بحجرين كبيرين مدورين. واحد أصم والأخر به فتحة نافذة في المنتصف، تثبت خشبة صغيرة في وسط الحجر الأصم ويوضع فوقها الحجر الأخر الذي به فتحة في المنتصف فتخرج الخشبة الصغيرة بتلك الفتحة، تم تثبت خشبة طويلة بعض الشئ في طرف الحجر العلوي، وتوضع الحبوب المراد طحنها في تلك الفتحة ثم يدار الحجر الأعلي بإستمرار عن طريق الخشبة الفوقية. فيتم طحن الحبوب. وبعد وصول المطاحن الحديثة كانت الرحاية تستعمل في طحن الحبوب الأخري غير الذرة والقمح. وكانت هناك طريقة أخري لطحن الحبوب بدرجة ناعمة. وهي طريقة إستعمال (الجو). الذي كان يسمى في السودان الأوسط "المرحاكة". وهي حجر كبير مقعر توضع عليه الحبوب ويستعمل حجر أملس صغير لهرس الحبوب وطحنها وصولا الى النعومة المطلوبة، والحجر الصغير تسمي الـ (جون تود) أي الجو الصغير. تظهر في الصورة الرحاية والجو والجونتود والعنقريب والكُبى الصغير المعلق في الشجرة.

والذهاب الي الطاحونة لطحن الحبوب كان برنامجاً مملاً لا يحبه الصبية. وكان يمكن لأي إمرأة في الحي أن تكلف أي صبي للذهاب الي الطاحونة. وكان هناك نظام دقيق متبع في طاحونة "مشروع شبة وتشي". قام عليه لفترة طويلة عمنا سعيد هاشم رحمه الله. فكان يحمل دفتره ويجلس تحت شجرة نيم قرب الجدول الرئيسي بجانب الطاحونة. ويسجل أسماء الواردين حسب وصولهم. ثم تبدأ الطاحونة بطحن القمح اولاً. أمّا من يريد طحن الذرة فكان عليه الأنتظار حتي النهاية. وكان الناس يتسابقون الي طحن ذرتهم بعد آخر كيس قمح مباشرة. لأن باقي القمح في الطاحونة يختلط بالذرة فيعطي دقيقا أفضل طعما ونعومة. والعكس تماماً. فإذا حدث أن جاء دور القمح بعد الذرة يتجنب الناس طحن قمحهم بعد الذرة مباشرة. وعندما تصل ومعك ذرة كان عمنا سعيد يقول لك (بابور أليل منجي) وذلك يعني أن عليك الإنتظار لأن الطاحونة مشغولة بالقمح. وكان لحديث عمنا سعيد نكهة خاصة متأثرة باللهجة المصرية. فقد قضي سني شبابه بأرض الكنانة. أما إذا حدث عطل في طاحونة شبة فكان الصبية يتحمسون للذهاب الي بابور (تِفي) في تُشى. الذي يقع علي مسافة بعيدة من شبة. فالمشوار ذهاباً وإياباً بالحمير في مجموعة. كان فيه نوع كبير من التغيير وزيارة منطقة أخري في الجزيرة .



كان هناك الـ (نافرينوق) وهو البيت الذى يخفون فيه العروس فتخضع هناك لترميمات كثيرة. يصلحون بالعطارة ما أفسد الدهر. كانوا يجتمعون صغاراً وكباراً في بيت العرس (بلين نوق) . يأكلون ويشربون هناك لأيام.

تجلس البنات مع العروس في الـ (تقون توّو) وكنت أعتقد أن التقو هو البرش، ولكن صححني البعض بان التقو هي المصطبة التي تكون أمام البيت. أما البرش فهو الـ (نِبِدْ)، بروش طويلة منسوجة من سعف النخيل والـ (هسد) وهي عيدان القمح، ومصبوغة بأ لوان مختلفة من (التفتة)، تفتة (دسي) يعني أخضر وتفتة (قيل) يعني أحمر و(هندبوسا) وهذا إسم غريب كان يطلق علي التفتة البنفسجية. تسمي هذه البروش بالـ (قَجَري) أو (القجلي)، يعلقون هذه البروش في غرفة تسمى الكجرة يكسون بها الجدران الأربعة مع الأرضية. ويفصلون بين البروش الملونة ببرش أبيض ، تجلس البنات هناك ويغنين طوال النهار. وتتحول هذه الغرفة الي غرفة النوم حيث يقضى العرسان شهر العسل، وكانت هناك فتحة مابين الحائط والسقف تسمي الـ (ناشي) وفي ليلة الدخلة كان الشباب وبالذات أصدقاء العريس يحاولون المتاوقة (البصبصة) عبر تلك الفتحة. وبعد إنتهاء طقوس العرس تلف هذه البروش داخل بعض وتعلق في (الكبس) او تعلق في شئ كالمشلعيب (أُلّر) ودائما ما تعلق هذه البروش في (تنون نوق)، أي الغرفة الغربية، وهي عادة المخزن المجاور لـ (إيقن شاّ) أو (ديون نوق) أي المطبخ ويفصل بينهما الـ (أُسمون نوق) وهي بمثابة صالون نسائي، وكان هناك الـ (بتّن نوق)، والبتي هو او هي الند أو الدفعة في العمر (لا يوجد تأنيث وتذكير في النوبية، وذلك ما يفسر عدم إجادة النوبة للتذكير والتأنيث عندما يتحدثون العربية كما ذكرتُ في موضع آخر) ، وكان هناك الـ (إسكرين نوق) أو (اسكرين أوده) وهو البيت الذي ينزل فيه الضيوف القادمون من بعيد، والـ (تقون توو) هي الغرفة التي كانت تتحول الي غرفة النوم، ويقضي فيها العرسان أسابيع شهر العسل، وقد تطورت العادات الآن وتغيرت، فما أن ينقضي الزواج حتي يختفي العرسان ، فلا تجد لهم أثراً، وإذا سألت عنهم يقولون لك إما أنهم سافروا أو أنهم في اللفة، أي لفة؟ ، اللفة، يعني شنو ؟؟ يعني ما تسأل، وهي فكرة إبتدعوها او(أبدعوها) عندنا في البلد، اذ يخصصون بيتا سرياً لا يعرفه غير المقربين، يقضي فيه العرسان بعض الوقت الهادئ، ويطلقون علي هذا البيت مصطلح اللفة. أي لفة يا هداكم الله والبلد كلها لفات.

في الصباح الباكر من يوم العرس يذبح تور كبير، وتكون النساء كبيرات السن قد قمن بتقطيع كمية ضخمة من البصل، ثم تقوم نساء مشهود لهن بالمهارة بمهمة الطبخ، فيطبخن الـ (اوُيي سما) ويكة، التي هي البامية المجففة، بكميات كبيرة من البصل واللحم، فيأتي بطعم خرافي لا يقاوم، لا تجده إلا في بيوت الأعراس، يأكله الناس بذالك الأنجويد أو الأدارا البائت فلا يشبعون، ومن العادات التي نذكرها أنه عندما ينتهي المأذون من عقد القران كانت النساء يقمن بما كان يسمي (أجلن كفري) أو (اجلقا كفينان)، وفيها تقوم إمرأة بقفل الـ (أجُل) وهو وعاء خشبي زاهي الألوان من قطعتين مجوفتين، توضع فيه عادة مكونات العطور الشرقية. وكان الأطفال يستخدمون ماكينة الحلاقة القديمة وأعواد الكبريت لعمل بعض التفجيرات التي تصدر صوتاً كصوت



البندقية. في مساء يوم الزواج يخرج الجميع رجالا ونساء إلي الساحة . يشعلون الرتائن . والرتينه هي أداة الإضاءة أيام زمان . كانت بمثابة الكشافات الحالية في الحفلات. وهى أكبر حجما من الفانوس. ومن شدة إضاءتها وجمالها سميت بها البنات . كما فى حكاية الرتينه بت سالم. الرتينة كان لها شريط أبيض ناعم جدا ومقاوم للحرارة فلا يحترق. يربط فى مكان الاضاءة. وكانت تعمل بالسبيرتو الأبيض. والسبيرتو كما واضح من لفظه جاء من الأصل الإفرنجي لذلك السائل سريع الاشتعال (والكحول). سبِريت spirit وليس بالجاز كما الفانوس. ثم عرفنا فيما بعد ان ذلك الشريط او الشاش الأبيض نسيج مشبع باكسيد السريوم. وهو الذي يولّد ذلك الضوء الساطع. يخرجون الي الساحة ويبدءون ال (الأرّقِد) وهو الرقص. يصطف الرجال في نصف دائرة والنساء في النصف الأخر. ثم تبدأ الحفلة بأن تنزل إلي الساحة فرقة مكونة من خمسة او ستة رجال. يد خلون الحلبة وهم يصفقون بكفوفهم صفقة متقطعة مصحوبة بحمحمة منغمة من الحلوق. يسمي (الهُمي) وفي المقابل سرعان ما تنزل الي الساحة فرقة من النساء كاشفات الرأس مستعرضات بشعر منسوج طويل. ضفائر رقيقة طويلة غزيرة منسوجة من شعر صناعي يسمي (الجورسي). ترقص النساء ويضربن الأرض بأقدام حافية في تناغم مع صفقة الرجال. ثم تبدأ المجموعتان في الإقتراب من بعض. فتشتد الصفقة وتتسارع. ويرتفع صوت الهُمي. وتشتد ضربات النساء للأرض. وفي إلتحام سريع وخاطف يتم أخذ الشبال. وهو ان تنثر المرأة شعرها على أحد الرجال "المصفقين". وتنتهي (غشرة) الفرقتين لتدخل الي الساحة فرقتان جديدتان. كانت هذه الفرق تسمي الواحدة منها (قرية) ولا أدري من أين جاء الإسم. وعندما تدخل الساحة فرقة معينة من الرجال. تدخل في المقابل فرقة معينة من النساء. باتفاق غير معلن تنتهي مقاصده بإنتهاء الحفلة. ولم يكن هناك فنان يغني ولا آلة تعزف. بل صوت الهمي كان هو الموسيقي والإيقاع. ولاحقا صار الرقص في الحفلات مصحوبا بالأغاني والطمبور.

وكانت إحدي النساء تغني (كلُكية) وهي طريقة لإلقاء نوع من القصائد الطويلة في وصف العريس وأهله وأهل العروس بصفات الفخر والإعتزاز. وإيراد التسلسل الخاص بالنسب. وكان من الذين يجيدون هذا الفن عمنا جعفر مرجان (جعفر بادي). فقد كان موسوعة في الأنساب. توفى رحمه الله دون أن يوثق منه أحد كل تلك المعلومات الهامة . والكلكية يعني الذي جاء من الشمال (كلو) فهي في الأصل حلفاية المنشأ ثم إنتقلت جنوباً . والكلمة كانت تطلق أيضاً علي المجادعات التي كانت تتم بين الندامى في قعدات الشراب . وهي مجادعات لحظية التأليف . وايضاً كانت هناك كلكيات في مناسبات الوفاة. رثاء منظوم في شكل مناحة . وكانت هناك في كل أسرة إمرأة تجيد هذا الرثاء وتقوم به. وعند أهل الجنوب النوبي (الدناقلة) حُرفت الكلمة قليلاً فأصبحت (كلقية) . وفي هذه الحفلات كان الرجال بصحبة العريس يمرون من أمام صف النساء وهم (يبشرون) (ويرشون) الريحة. يحمل كل واحد منهم (فتيلة) أو قارورة عطر يفرغها فوق رؤوس النساء . كما كانوا في هذه الإحتفالات يتبارون في توفير كميات كبيرة من شراب الـ (دكّا) أي الدكاي. الذي يصنع بنقع التمر في الماء لعدة أيام. ويصبح مسكرا كلما مر وقت طويل عليه. وهناك ملحمة نوبية طويلة وقديمة إسمها (سرقدن دكّا) . سمعتها مسجلة بصوت الأخ محمد الهادي حسن من

جزيرة صاي، كما أن العبقري محمد وردي تحدث عن الدكاي بصورة شاملة في ملحمته (صواردن شو). وكان الناس يحتسون الدكاي دون حساسية، كالنبيذ الحلال، او كأنه فرض من فروض الإحتفال، ربما كان جزءاً من أدبيات إتفاقية البُقط أو (البَقِد.) الشهيرة، التي عقدت بين العرب الغزاة، وبين النوبة، الذين تمسكوا بحقهم في تناول الخمور، فسمحت الإتفاقية بذلك، وقد كانت جزيرة بدين جزءا من الممالك النوبية المسيحية القديمة التي سادت قبل الإسلام، إذ كانت تابعة لمملكة كرمة الكوشية، ثم لمملكة مروي، ثم أصبحت جزءاً من مملكة المقرة النوبية المسيحية. كانوا يصنعون الدكاي في أواني فخارية (أزيار صغيرة تسمي الواحدة بـ (كُبى) يضعون في هذا الكُبى كمية من البلح مع ماء مغلي، ثم يحكمون قفلها تماماً، ويتركونها لأيام، فيختمر البلح هناك ويتحول الي نبيذ.

وكما قال الحسن بن هانئ :.

إستودعوها رواقيداً مزفّتة — من أغبر قاتم منها وغبراءِ

وكَمّ افواهُها دهراً علي ورقٍ — من حرّ طينةِ أرضٍ غير ميثاءِ

حتي اذا سكَنتْ في دنّها وهدتْ — من بعدِ دمدمة منها وضوضاءِ

حتي إذا سكنت وهدأت، جاؤوا بهذه (الدناني) أو (الكبيهات) وفتحوها، ثم جاؤوا ببعض (الأشميق) وهو ليف شجر النخيل ، وغسلوها ووضعوها فوق الدكاي داخل الكُبي ، ثم أتوا بإناء مصنوع من (الكَبى) أي القرعة . (والنطق هنا يختلف عن الكُبى الذي سبق ذكره) . وهو قدح أو مغرفة (بمثابة الكأس) . يدخلها الساقي في الكُبى ويضغط على الأشميق فيرتفع الدكاي ويملأ المغرفة . وفي هذه الحالة يكون الدكاي مصفى من الشوائب . ثم تبدأ عملية السُقيا (ومجراها اليمين) . أو في بعض الحالات كانوا يفرغون الدكاي في أواني كبيرة، يغرفون منها النبيذ بأقداح (الكَبى) فيستقي القوم وينتشون، وتعم البهجة، ويكثر الهرج والمرج (ما هو المرج ؟)، ويبدو انهم في هذه المسألة أخذوا بفقه ابو حنيفة، وإستشهدوا بقول ابن الرومي :.

أحلّ العراقيّ، النبيذ. وشُربه — وقال الحرامان المدامة والخمرُ

وقال الحجازيّ الشرابان واحدٌ — فحلُتْ لنا بين اختلافهما السكرُ

سأخذ من قوليهما طرفيهما — واشربها لا فارقَ الوازرَ الوزرُ

أو ربما بقول الأخر:

وأبو حنيفة قال وهو مُصَدقٌ — فيما يُبلغه من الأحكام

شُرب المثلث والمنصف جائز — فاشربْ علي طربٍ من الأيام

فشربوه علي طرب من الأيام وحبور، ودون أن يثلثوه أوينصفوه . وربك الغفور، وكان هناك شراب أخر يسمي بالحَسْوَة يصنع من الذرة أو الدخن، المعجونة بالتمر، تطبخ عجينتها في قدور مفلطحة (مفردها صاج في العامية السودانية)، ثم يتم تقسيم العجينة تلك الى قطع مضغوطة ومكورة، بما يسمح باستخدامها لفترة طويلة دون ان

تتعفن او تتلف، وكانت الحسوة تسمى ب"شراب الفقرا" أي شراب علماء الدين لخلوها من الكحول، وكانت وجبة غذائية كاملة تعطي من يتناولها بعد تذويبها في الماء طاقة جسدية عالية .

من ضمن طقوس الزواج، كان علي العريس أن يذهب في سيرة إلي قبة الشيخ، وأن يطوف بالقبة جرياً سبعة أشواط وخلفه الـ (د شّا) أي وزير العريس، يلهب ظهره بالسوط حتي يكمل الأشواط السبع، ثم تنزل السيرة . والسيرة تسمى (إرمر) . إلي النيل كجزء أساسي من إحتفالات الزواج، وكان العريس يحمل سيفاً يضرب به الماء في شكل صليب، أما في اليوم السابع من الزواج، ومع نهاية الإحتفالات كان تتم فعاليات الـ (كُلُدن كاشي) وكلد هو العدد سبعة وكاشي يعني يمزج ويخلط ويسوط، وكان ذلك الطقس يقام في غرفة العريسين (الكُجرة)، وهي غرفة تزدان حوائطها وأرضيتها بالبروش الملونة، وفي هذا الطقس كانوا يأتون بذبيحة يذبحونها عند باب غرفة العريس فيسيل الدم، ويأتي العريس والعروسة ويقفزان أو ينطان(تلاشا) فوق الذبيحة سبع مرات، بعد ذلك تدخل العروس الغرفة فيتلقاها العريس ويحملها ثم (يرميها) برفق وحتية على كومة من البروش، ثم يجلسان متقابلين وتضع إحدى السيدات خليطا من القمح والكوشيه في يد أحد الطرفين فيتبادل العريس والعروس ذلك الخليط لسبع مرات، والذي تنتهي عنده الجولة يضرب الآخر في وجهه بتلك الحبوب، وبعدها تشتعل معركة يتبادل فيها الجميع الضرب بالحبوب المخلوطة ويرشون بعضهم بالحليب، متفائلين بالبركة والخصب والنماء، وعند زيارة سيرة العريس للنيل كان من التقاليد المتبعة أن يرموا بسبعة تمرات في جوف النيل، إرضاءً له، خوفاً من غضبه ورغبة في بركته، وربما كان هذا بديلاً عن التقليد الفرعوني الذي كان يمارس في مصر بإلقاء أجمل فتاة في جوف النيل كل عام في إحتفال كالعرس يشارك فيه الجميع كما عبّر عن ذلك أمير الشعراء أحمد شوقي:

ونجيبةٌ بين الطفولة والصبا — عذراء تَشْربها القلوبُ وتعلقُ

كان الزفافُ إليكَ غاية حظها — والحظُ إن بلغ النهاية ِ موبقُ

وكما كانت مناسبات الزواج تتم بمشاركة جماعية من جميع أهل الحي فقد كانت حالات الوفيات كذلك ، وكان في



الماضي عندما يتوفي أحدهم يخرج الـ (كُبُدّر) وهو شخص حافي الرأس والقدمين ويربط وسطه بعمامته يركب على الحمار ويطوف البلد وهو يصيح معلنا وفاة (فلان او فلانة) وكان يقول مثلاً (أحمد ميمدنتو قايبفين هُوي) أو (فاطنة ميمد قايبفين هُوي) ، يذهب الكبدر بـ (دورن دَوو) أي الطريق الذي يعتبر فوق الحلة، ويعود بـ (تون دَوو) أي الطريق تحت الحلة، وفوق وتحت دائما يقاس ببعد الطريق عن النيل، فكلما كانت أبعد تسمي (فوق)، يطوف الكبدر معلناً الخبر وكل من يسمع الخبر ينقله للآخرين، كان هذا في زمان ولي، قبل إنتشار السلكي واللاسلكي من أدوات الإتصال ونقل

المعلومات، وعند سماع الخبر يترك كل فرد عمله ويتوجه في الحال الى مكان الوفاة أو المقابر. وفور وصوله يشارك الأخرين في العمل، وبنشاط وبسرعة ينتهون من تجهيز القبر ودفن الميت، في نفس الوقت تكون النساء كل واحدة في بيتها قد جهزت ما تيسر من الطعام ويذهب الرجال إلي بيوتهم بعد الدفن ويحملون صواني الأكل إلي المسجد حيث يجتمع الناس . وقبل وصول الطعام يقوم الشباب بإحضار شوال بلح ثم يقومون بتوزيع البلح على أواني نحاسية تسمى (السِلَمْ) ويجلس الناس في مجموعات حول هذه الأواني النحاسية ويقرضون البلح إلي حين وصول الطعام . وفي الأربعين يقام تأبين الميت وتوضع ألف قطعة حصى ملساء (كَدا) في كوم يبدأ الصغار في الأخذ منه واحداً واحدا مع ترديد عبارة (لا اله إلا الله) وكلما انتهوا من الألف توضع علامة في الحائط . يهبون هذا التسبيح لروح المتوفى، وخلال ذلك، يقرأ من يعرف القراءة ما تيسر من القرآن، ويهدون ثوابه لروح المتوفى، ثم يذهبون الي القبر ويساوون كوم التراب، ويغرزون جريد النخل الأخضر علي طرفي القبر، ويضعون الشاهد، وينثرون تلك الحصي فوق القبر.

أما إتفاقية (البقط) التي ورد ذكرها . أو معاهدة (البقط) كما تُعرف في التاريخ، فهي المعاهدة التي تمت بين المسلمين العرب في مصر من جانب ودولة النوبة من الجانب الآخر، وتعرف الإتفاقية أيضاً (بعهد النوبة)، وهناك خلاف كبير بين العلماء والباحثين والمؤرخين العرب والمستشرقين والسودانيين، حول كلمة (البقط) ومعناها، يرجح البعض أن تكون كلمة (بقط) مشتقة من الكلمة اللاتينية (Pactum)، كما ذهب الي ذلك البروفيسور يوسف فضل، ويقول آخرون أنها ربما تعود الي كلمة قبطية أو يونانية، ويعتقد الكثيرون بأنها لفظة نوبية من "البَقِد" وتعني (البعض) أو القسمة، وقد ذكر ذلك الأستاذ الطيب محمد الطيب في كتابه "المسيد"، كما ذهب الأستاذ محمد إبراهيم نقد إلي نفس الترجيح في كتابه (علاقات الرق في المجتمع السوداني)، فالنوبة ينطقون البقط بطريقتين، (بقد) و(بقت) . ولا توجد (ط) في اللغة النوبية . وقد قصَدتْ المعاهدة أن تُسمى بكلمة يعرفها ويعهدها النوبة .

بعد فتح المسلين لمصر علي يد عمرو بن العاص، بدأت المناوشات بين المسلمين والنوبة، وحدثت بعض التعديات النوبية علي صعيد مصر، فأرسل عمرو بن العاص قائده عتبة بن نافع الفهري لإيقاف هذا التعدي، وذلك سنة641 م . وقد قاوم النوبة هذه الحملة مقاومة عنيفة، الأمر الذي أجبر المسلمين علي مهادنتهم ومصالحتهم، وعلى الرغم من هذا الصلح الذي تمثل في المهادنة فإن المناوشات بين الطرفين ظلت تحدث بين أونة لأخري . حتى عُزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر سنة 645 م وتولاها عبد الله بن أبي السرح . وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان .أرسل عبد الله بن أبي السرح عام 31 من الهجرة (652 م) جيشا كبيرا لمحاربة النوبة وفتح السودان . فقاتلته النوبة قتالا عنيفاً . وكان النوبة يجيدون رمي السهام . فأصابوا عيون الكثيرين من الغزاة . حتي أطلق عليهم المسلمون (رماة الحدق)، والنوبة حتى الآن يعتبرون (فقأ العين) عقابا رادعاً، فنحن نسمع حتى الآن إذا أخطأ أحدهم علي الأخر يقول (أي إكّا ماجانق فدكتيل) أو (أي تكا ماجتنق فدكتيل) يعني سوف أفقأ او أقلع لك عينك، أو عندما يحرضك أحدهم علي الأخر فيقول لك (دمّا ماج تنق دُكتر) يعني امسكه وافقأ له عينيه . ولم يكن هناك

إنتصار حاسم لأحد الجانبين . ورغم أن المسلمين أصابوا مباني العاصمة دنقلا العجوز بالمنجنيق . إلاّ أنهم لم يستطيعوا دخولها، وتكبدوا خسائر فادحة فعقدوا الهدنة مع ملك النوبة (قيلدروث) (ملك المقرة) ، وبعد مفاوضات بين الطرفين توصلا إلى اتفاقية أو معاهدة (البقط)، وهي ليست معاهدة إستسلام ، ولا هي إعتراف بالدين الجديد . بل هي في مجملها معاهدة عدم إعتداء . التزم الطرفان بمقتضاها الأ يعتدي أحدهم علي الأخر . وقد ذُكرت معاهدة البقط في العديد من مؤلفات المؤرخين . مثل المسعودي والمقريزي والبلاذري وابن عبدالحكم والطبري وغيرهم . غير أن المقريزي هو الذي أورد بنود الاتفاقية بالتفصيل في كتابه (الخطط) ، وبموجب هذه الاتفاقية يلتزم النوبة بأن لا يدخلوا بلاد المسلمين الا مجتازين غير مقيمين.* وأن يردوا كل آبق من عبيد المسلمين وكل من يلجأ إليهم من مسلم يحارب المسلمين ، وأن يحفظوا المسجد الذي بُني بوسط مدينتهم، وأن يقوموا بكنسه وإسراجه وتكريمه، وأن يخرجوا ثلاثمائة وستين رأسا يدفعونها لإمام المسلمين كل عام من أوسط رقيقهم غير المعيب ، يكون فيها ذكران وإناث ، وليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم.

وفي المقابل يلتزم المسلمون بأن يدفعوا للنوبة ألف أردب من القمح، وألف أردب من الشعير ، وألف اقنين من الخمر، ومن أصناف الملابس المختلفة مائة ، كما يلتزمون بعدم دخول بلاد النوبة الا مجتازين غير مقيمين.* وقد كتب المعاهدة عمر بن شرحبيل سنة إحدى وثلاثين من الهجرة . وقد تعرضت المعاهدة لكثير من التعديل في بنودها وفقا للعلاقة السياسية بين ملوك النوبة وحكام المسلمين علي مر الزمن . كما أن أهل المقرة رفضوا العمل بها في فترات كثيرة . وقد إستمرت ستمائة سنة على وجه التقريب ، أي حتى عصر المماليك في مصر ، وكما فعلت المسيحية وتعاملت مع الكوشيين بتسامح كبير فقد فعل المسلمون ، والإتفاقية كما وردت وكما تم العمل بها جعلت من كوش دولة مستقلة سياسياً ودينياً عن دولة الإسلام . فلم تكن كوش دار حرب وفي نفس الوقت لم تكن دار سلام . واحتفظ سكان كوش بالحق في ممارسة شعائرهم والتمسك بعاداتهم وتقاليدهم ماداموا يراعون بنود المعاهدة ، ولم يكن كل ذلك مألوفاً لدى المسلمين العرب في البلاد الأخري التي فتحوها.

* (الجُمل التي وضعتُ تحتها خط سوف أتناول الحديث عنها في فقرة لاحقة).

. 2 .



بحيرة فيكتوريا (Victoria) وتعرف أيضاً بإسم نيانزا و أُوكريوي ونالوبآلي، باللغات المحلية، أما إسم فكتوريا فقد أطلقه الرحالة البريطاني جون هانينق سبيك (john Henning Speck) الذي يعتبر أول رحالة أوربي يصل إلي البحيرة، وكان ذلك في سنة 1858م، أما أول من ترك خريطة دقيقة للبحيرة فقد كان الرحالة العربي المعروف الشريف الإدريسي في سنة 1160م،وتعتبر البحيرة ثاني أكبر بحيرة للمياه العذبه في العالم من حيث المساحة ، والأكبر في أفريقيا ، كما أنها أكبر بحيرة إستوائية في العالم ، تبلغ مساحتها 68870 كيلومترا مربعا مقسمة بين كينيا (6 في المائة)، وأوغندا (45 في المائة) ، وتنزانيا (49 في المائة) ، وتوجد في بحيرة فكتوريا أهم مصايد البحيرات العظمى الإفريقية ، كما تضم البحيرة حوالي 3000 جزيرة ، وهي تقع علي إرتفاع 3720 قدماً فوق مستوي سطح البحر ، ويبلغ طول البحيرة حالي 337 كيلومتراً ، ويبلغ أقصي إتساع لها نحو الـ 240 كيلومتراً ، وتستمد البحيرة مياهها من العديد من الأنهار الإستوائية المنحدرة إليها من الغرب والجنوب والشرق ،



وأهم هذه الأنهار هو نهر كاجيرا (Kajera) الذي ينحدر من الجهة الغربية ، أما تصريف مياه البحيرة فيتم من الناحية الشمالية ، ومن هناك يبدأ النيل الأبيض ، بعد مغادرة بحيرة فيكتوريا، يعرف النيل في هذا الجزء باسم نيل فيكتوريا ، ويستمر في مساره لمسافة 500 كم (300 ميل) مرورا ببحيرة كيبوجا - حتى يصل إلي بحيرة ألبرت ، بعد مغادره بحيرة ألبرت، يعرف النيل باسم نيل ألبرت ثم يصل النيل إلي السودان ليعرف عندها بإسم بحر الجبل، وعند إتصاله ببحر الغزال يمتد النيل لمسافة 720 كم (445) ميلاً يعرف فيها بإسم النيل الأبيض، ويستمر في مساره حاملا هذا الإسم حتى يدخل العاصمة السودانية الخرطوم.

أما النيل الأزرق فينبع من بحيرة تانا، وتعرف أيضاً بإسم تسانا، الواقعة في مرتفعات إثيوبيا بشرق القارة ، وهي أكبر بحيرات الحبشة وتقع في شمال غرب هضبة الحبشة، على ارتفاع يصل إلى حوالي 6000 قدم (1840مترا) ، فوق سطح البحر . بينما تصل مساحتها الى 3673 كيلو مترا مربعا، أي ما يعادل 1418 ميلا مربعا، غير أن هذه المساحة تزداد في موسم المطر الغزير ، حيث يرتفع مستوى مياه البحيرة وتغطي مساحة أكبر من السهول الواقعة في غربها وتعرف بسهل فجارا وتصل مساحة منطقة تصريف البحيرة، أي المنطقة التي تنحدر مياهها إلى البحيرة حوالي 11655 كيلو مترا مربعا (4500 ميل مربع) . وتصب في البحيرة عدة أنهار، أهمها نهر " ماجاش " و " دمبرا " من جهة الشمال ونهرا " رب " و " جومارا " من جهة الشرق، ونهر أباي الصغير من جهة الجنوب.

صورة من الفضاء لبحيرة تانا يشكل النيل الأزرق نسبة (80 الي 85) في المائة من المياه المغذية لنهر النيل في موسم الصيف بعد الأمطار الموسمية علي هضبة إثيوبيا . بينما لا يشكل في باقي أيام العام نسبة كبيرة حيث تكون المياه فيه ضعيفة . وبينما يطلق عليه اسم (النيل الأزرق) في السودان. ففي إثيوبيا يطلق عليه اسم (آبباي) ويستمر هذا النيل حاملا اسمه السوداني في مسار طوله 1,400 كم (850 ميلا) حتى

يلتقي بالفرع الآخر – النيل الأبيض – عند الخرطوم في المنطقة التي تحمل اسم المقرن (لاقتران النهرين فيها) ليشكلا معا (النيل) حتي المصب في البحر الأبيض المتوسط .

طول نهر النيل الإجمالي حوالي 6,695 كم . وبذلك هو أطول أنهار العالم. ويغطي حوض النيل مساحة 3.4 مليون كم مربع. ويمر بعشر دول إفريقية يطلق عليها دول حوض النيل . وهو مسمي يطلق علي 10 دول إفريقية يمر فيها نهر النيل . سواء تلك التي يجري مساره مخترقا أراضيها. أو تلك التي توجد علي أراضيها منابع نهر النيل. أو تلك التي تجري عبر أراضيها الأنهار المغذية لنهر النيل . وهذه الدول العشر هي أوغندا . إثيوبيا . إريتريا . السودان . الكونغو الديمقراطية . بوروندي . تنزانيا . رواندا . كينيا . ومصر . ويبلغ عدد سكان هذه الدول 336 مليون نسمة. يعتمد معظمهم علي النيل مصدرا للحياة. بعد إقتران النيلين الأبيض والأزرق ليشكلا معا نهر النيل لا يرفده بالمياه إلا نهر واحد هو نهر (أتبره) عطبره . والذي يبلغ طول مساره 800 كم 500 ميل تقريبا . وينبع هذا النهر من المرتفعات الإثيوبية أيضا. شمالي بحيرة تانا. ويتصل بنهر النيل علي بعد 300 كم (200 ميل) شمال مدينة الخرطوم . ويسمي هذا النهر في الجانب الأثيوبي بنهر (تكازي). يواصل النيل سيره في إتجاه الشمال ولكن له إنحناءة عظيمة في منطقة أبو حمد يكاد معه أن يقفل عائداً نحو الجنوب. . ولكنه يستعيد سيره للشمال عابراً الحدود المصرية السودانية إلي أقصي الشمال المصري ليتفرع إلي فرعين: فرع دمياط شرقا وفرع رشيد غرباً. ويكونان فيما بينهما دلتا النيل. . ويصب النيل في النهاية عبر هذين الفرعين في البحر المتوسط . ومن المعروف أن النيل هو النهر الوحيد في العالم الذي يجري من الجنوب إلي الشمال تبعا لميلان الأرض. (راجع British Encyclopedia).

من أيّ عَهد في القري تَتدفقُ

وبأي كف في المدائن تُغدقُ

ومن السماء نزلتَ أم فجّرتَ

من عليا الجنان جداولاً تترقرقُ

وبأي عين أم بأية، مزنة

أم أيّ، طوفان تفيض وتفهقُ

أحمد شوقي

هو النيل. ليس إلاّه. فمرحي بالجلال المفيض. سليل الفراديس. نبيل موفق في مسابه. كما أفاد التيجاني يوسف البشير رحمه الله . ولكن أين منا النيل. إنه بعيد (إلاّ من أمانينا). النيل. أطول شرايين الحياة علي سطح البسيطة.

من أي عهد في القري تتدفق؟، من عهود سحيقة يا أمير الشعراء، منذ الأزل، خُلق مع الزمان والمكان، تحسه كائناً حياً، وهو كائنٌ حي، بل كائن به تحيا الكائنات، (وجعلنا من الماء كل شئ حيّ)، خرج من منابعه غداة يوم، مبكراً خرج، شمّر عن ساعديه، ثم هجّر وسار وهجّر، وما زال يسير ويهجّر، يلم في طريقه أطرافا كثيرة يستقوي بها علي المحن، ويواجه بها صعوبة الطريق ووعثاء السفر، إمتطي صهوة نفسه وإنطلق شمالاً وهو يسرع الخطي، حدد غايته وعرف مصيره، إتخذ مجراه عجباً، وإنساب في قوة وإصرار. (ربما عاكسه الخصر قليلا فمال) يمينا أو شمالاً، أو ربما التف عائداً نحو الجنوب لتفادي بعض العوائق، ولكنه سرعان ما يعود وينطلق نحو دلتاه في صبر جميل، نعم، هو النيل، الأفعي الخرافي المقدس، يسير ونيداً وهويفرغ علي الشاطئين جنة من رضابه العذب، علي كتفيه قامت حضارة الإنسان الأولي، تحت ثيابه يختبئ تاريخ الشرق،

وبأي نول أنت ناسج بردة

للضفتين جديدها لا يخلقُ

تَسودّ، ديباجا إذا فارقْتَها

فإذا حضرتَ إخضوضر الإستبرقُ

في كل أونة تبدل صبغة

عجباً وأنت الصابغ المتأنقُ

نعم، بنول الجمال والكرم، بنول النعمة الخيّرة، والعطاء غير المحدود ، ينسج للضفتين بردة خضراء، تتجدد كل يوم، هناك حيث تمر أحلام ليالي كيلوباترا الجميلة ، تطوف بالموج، فيغني ، ويغني الشاطئان ، هناك يهفو كل فؤاد ، ويشدو كل لسان، هو النيل، هناك في شاطئ النيل ، تتحدث الرياح مع النخيل ، تهمس لها بسر الحياة ، فتثمر رطباً جنيا، هناك يسبّح الطير ويشرح الحب للخميل ، هناك علي امتداد شاطئه القشيب، تنتشر العذاري ، تغرف من ماءه العذب السلسبيل ، هناك حيث أنين السواقي يحرك الأشجان ويهيج الهوي ، فيهتف القلب بلحن نبيل.

نعم، هناك في شاطئ النيل لو إنفردت بنفسك فلا بد أن تسمع أصواتا غامضة، تأتيك من الماضي السحيق، زغاريد ملايين الأعراس، أشباح ألاف الفتيات اللاتي دفعن حياتهن ثمناً كقرابين للنهر "الإله"، صور الغرقي من عصر نوح، هناك تشتم رائحة النيل المضمخة بمسيرة مئات الالاف من السنين، هناك عندما يهبط المغيب فوق الماء والأشجار ينتشر في الجو حلم هادئ، في مثل ذلك الجو ثرثر أنيس زكي مع شلته في عوامة نجيب محفوظ فوق النيل، هناك قرر صاحبنا أنيس أن الزمن التاريخي لا شيئ بالقياس بالزمن الكوني، وعليه فكلنا معاصرون لادم وحواء، هناك عندما يتقدم الليل تبدو الأشياء نصف واضحة، تبين وتختفي، بين النور والظلام، لا تستطيع أن تتبين إذا كان النيل ساكناً أم أنه متحرك، إحساسك يغيب ثم يجئ، وكأنك في حلم أبدي، هناك يسري بك الخيال، ويتفتق ذهنك، تتخفف من عقد الدنيا فتحس وكأنك وُلدتَ للنو، هناك تعيش الطبيعة في ربيعها الدائم، ((كل الحياة ربيع مشرقٌ نضرٌ / في جانبيه وكل العمر ريعانُ))، نعم، وماذا أيضاً يا جمّاع، أيها العبقري الحزين، ((ما ملّ طول السري يوماً

وقد دفنت / علي المدارج أزمانٌ وأزمان))، ونعم مرة أخري، زدنا من هذا القول العذب.((وللخمائل شدو في جوانبه / له صديً في رحاب النفس رنّان))، ليس إلاّ لمثلك أن يحدثنا هذا الحديث البديع، الذي له صديً رحيب في نفس كل عاشق للنيل، فهناك الجمال في شرخ الصبا، ملعبه سهول نضيرة، ووشاحه الشفق الزاهي، هناك علي شاطئ النيل، ما أجمل الغروب، تتحول الشمس الوهاجة تدريجياً إلي شفق، إلي لوحة متداخلة الألوان، في تلك اللحظات تحلو مراقبة الليل وهو يتسلل بخطاه الوئيدة، في تلك اللحظات تتحقق من ولوج الليل في النهار.

أتت الدهور عليك مهدك مترع

وحياضك الشُّرق الشهية دفقُ

تُسقي وتُطعم لا إناؤك ضائقٌ

بالواردين ولا خوانك يَنفقُ

والماء تسكبه فيسبك عسجداً

والأرضَ تغرقها فيحيا المغُرقُ

أيّ تعبير وأيّة إجادة، (الأرض تغرقها فيحيا المُغرق)، هو كذلك، يفيض النيل ويُغرق الجروف، ثم ينسحب إلي مجراه فيبدأ الناس عندنا ما يسمي (النّاقري) زراعة الجروف وهي ما تزال رطبة، يزرعون الـ (الأشرنكي) اللوبيا، والـ (كوشي) الذي لم أعرف إسمه بالعربية رغم انه من فصيلة الشعير، والـ (فتّو) الدخن، والـ (أكندي) الترمس، وبعض المحاصيل الأُخري. وهذه الزراعة لا تحتاج إلي ري، فلا تسقي بل يكتفي الزرع بماء الطمي، وفي زراعة الجروف كانوا يستعملون آلة إسمها السلوكة (بفتح السين وتشديد اللام المضمومة) آلة من الخشب حدباء مقوسة ذات رأس مخروطي تستخدم لإحداث حفرة في الارض يوضع فيها (التيراب) وهو التقاوى أي البذور. والسلوكة والساقية كانت تطلق علي الأرض المعينة والمملوكة لأسرة معينة ، كأن يقولوا (سلوكة ناس فلان) أو (ساقية ناس علان).



دين الأوائل فيك دين مروءةٍ

لم لا يؤلّه من يقوت ويرزقُ

جعلوا الهوي لك والوقار عبادة

إن العبادة خشية وتعلّقُ.

لم يكن كثيراً علي النيل أن يعبدوه، إذ كانوا يعتقدون أنّ النيل ينبع من بين أصابع الآلهة ، وأن ماءه يهبط من السماء ، وقد كان النيل مصدر الرزق الأول والأخير ، وفيضانه العارم شكل لغزاً مخيفاً لإنسان وادي النيل، وعن طريق عبادة النيل إنما عبد ذلك الإنسان آلهة النيل، نيلوس وهابي وبابة، وكان لهذه الآلهة ملائكة يسكنون في

النيل. وكان في إمكان الملائكة السيطرة علي حياة الناس. فكان من الطبيعي، والوضع كذلك، أن يتعلق سكان الوادي بالنيل ويخشونه في نفس الوقت، رغبة ورهبة. وكان لسكان الجزر رهبة أكبر. فقد كان النيل بالنسبة لهم هو مصدر الخير كله. عليه اعتمادهم. عليه يتوقف وجودهم نفسه. يحيط بهم من كل جانب. لولاه لما كانوا ، وكما هو مصدر الخير فهو مصدر الخوف. هادئ هو. كالشيخ المعمر. عطوف نبيل. يفيض بالخير دون حساب. يعطي ويعطي. يسقي ويطعم. ولكنه عند الغَضب يثور كطالب الثأر. يتحول إلي وحش كاسر. يغرق الديار ويتلف الحقول. ولكنه سرعان ما يتراجع. فيتسامح الناس معه. ينسون له ما فعل. فهم دونه لا شئ. كان سكان جزيرة بدين كما سائر ساكني الجزر النيلية. يستقون من النيل مباشرة. يمهدون لأنفسهم طريقا متدرجة على جزء من (الأبُل) وهو الشا طئ. يسمي هذا الجزء باك (أتي) لتسهيل عملية النزول والطلوع لأخذ الماء.

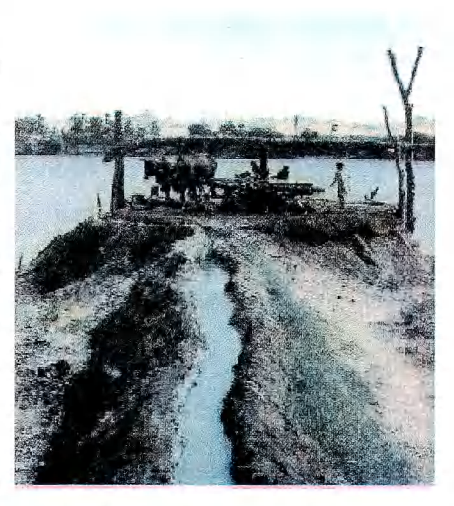
تنزل البنات بهذا الأتي إلي الماء وهن يحملن جرادل من الصفيح. (تحولت الي جرادل بلاستيكية ثم وصلت الماء إلي البيوت جرياً على الماسير). يملأن الجرادل بالماء ثم يضعن فوق رؤوسهن شيئا يسمي (التّفِل) وهو وسادة دائرية من القماش المبروم. تمتص ثقل الجردل عند وضعه على الرأس وتحفظ توازنه. يمسكن الجردل بيد وتبقي اليد الأُخري طليقة. يتبخترن في مشية إستعراضية فيها من الدلال غير قليل. يصلن البيوت ويفرغن الماء في الأزيار حتي تمتلئ.

أما البعيدات من النيل فكن يملأن من ال (مَرتي) أي الجدول. وكان برنامجاً عصراوياً فيه بعض التنزه والفسحة.

كان ذلك يا صاحبي علي أيامنا في الزمن الجميل. قبل ان تتحول الجزيرة الوادعة الوديعة إلي شبه مدينة إمتدت فيها مواسير المياه إلي البيوت مصحوبة بكل ضجيج المدن وآفاتها. وحتي الكهرباء إمتدت إليها . وكان الظلام جزءاً مهماً من جو الجزيرة . إذ يعطي لليل سره المخيف والأمن في الوقت ذاته. وأنت تسير في الظلام . ذاكرتك تحفظ الطرق والمنعطفات . ويعتريك إحساس الإنسان الأول . الخوف. ذلك الإحساس الغامض الذي يزيده سكون الليل رهبة. هو نفس الإحساس الذي أدي بالإنسان الأول إلي إختلاق الآلهة. في تلك اللحظات تظهر لك أشكال غير مكتملة. تنقلب الأشجار إلي مخلوقات متحركة. وبالذات أشجار (الهبد) أي العشر . تعبر في ذاكرتك حكاوي الذين ساقهم الجن إلي الخرابات أو ال (دُكي نلُو). أي التلّ الرملي في أقصى الجزيرة من الناحية الشمالية. قرب الشلال. كانوا في الماضي يذهبون إلي هناك في المناسبات ويذبحون الذبائح. وكان طقساً متعلقاً بشئ مقدس. ويقال أن المنطقة التي تقع بين حركية حتي مشارف بدين ساب القديمة كانت خلاء مسكونة بالجن. ويُحكي عنها اساطير كثيرة تقشعر لها الأبدان. يسيطر كل ذلك علي إحساسك. فيسرح خيالك في تلك الأساطير عن الجن والشياطين التي تخرج للناس في شكل الحيوانات. أو في شكل إنسان بأرجل حيوانات. أو تتوهم أنك تري نيرانا تشتعل وتنطفئ. أو تتوهم أن هناك أصواتا تنادي اسمك. أو توسوس في أذنيك. فتتلفت ولا تجد أحداً. أما في الليالي المقمرة فكان ليل الجزيرة يتحول الي شيء أخر . الي طقس ساحر . صامت وناطق في نفس الوقت. في الليالي المقمرة تبدو الطبيعة أكثر قرباً منك. تبدو الصور أكثر ضياءً. ويعتريك شعور دافئ. ويتملكك إحساس بالتسامح. فتحس بالتصالح مع نفسك ومع من أساء إليك. لو وجدت عدوك لعانقته. ولو وجدت من تحب لبُحت له بما تتحفظ في قوله نهارا. وربما ألقيت

القبض علي نفسك وأنت تغني. ما أجمل ليالي القمر، هي جميلة أينما كنت. في الطرقات. فوق التلال الرملية. علي شاطئ النيل. هي جميلة حتي لو إستلقيت علي سريرك في (سَمن تو) أي (حوش) البيت. تحس بالسرير بارداً ناعماً. تسامرك الغيوم القليلة التي تمر وهي تشكل لوحات رائعة. يخلب لبك منظر النجوم المبعثرة في السماء بغير نظام. يتركز نظرك علي نجمة صغيرة. تحس وكأنها تلّوح لك بالتحية. ثم فجأة تتحرك نجمة أخري غاضبة. تنطلق كسهم مشتعل. تضئ السماء لجزء من الثانية وتنطفئ. تلك هي سماء الجزيرة. بقمرها ونجومها. أما هنا. في مدن النيون. فالقمر حزين باهت اللون. لا يحتفي به أحد. ربما كنتُ أنا الوحيد الذي أبحث عن القمر في هذه المدينة. أبحث عنه. فهو صديقي القديم. بيني وبينه ودٌ طارف وتليد. كنت أنتظره إذا غاب. في شوق عارم. في فجر الطفولة أحببته. وفي مقتبل الصبا تعلقتُ به. ومع طوالع الشباب عشقته. هو صديقي القديم. وكلما امتد عمر الصداقة تحولت إلي شجون. إلي ذكريات. تهرب إليها كلما ألمت بك المحن. هو مخزن الأسرار. هو دفاتري القديمة. هو القمر. في طرف السماء. دائماً هناك. يغيب ويهل. ينتظرك. يتبعك أينما ذهبت. أفتح النافذة. وأنظر إليه. أبحث عنه كما أفعل. فأنا ابحث عنه. وأسائله عن ذكريات أثيرات. شهد عليها في السنين الخوالي. وإذا تنكرت السنين وخانت. فالقمر وفيٌّ. وهل يستطيع القمر أن يتنكر أو يخون؟.

.3.



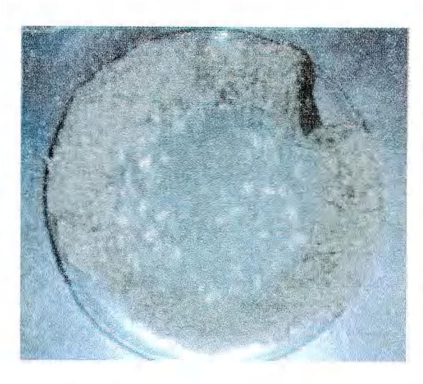
عاش سكان الجزيرة (وهو حال ينطبق على ديار النوبة كلها) في توافق إجتماعي عجيب، خلطة، بعض نوبية وبعض عربية وبعض زنجية، عاشوا في رغد من العيش وسعة، كان إعتمادهم الكلي علي الزراعة، يزرعون أرضهم الخصبة في تقسيم شتوي وصيفي، كانوا يحفرون الأرض بسواعد رجال ذوي بأس وشدة، يدفنون التيراب أو التقاوي (البذور) ويغطونها ويسقونها بمجهود يدوي قاسٍ لو قام به (حناكيش) هذه الأيام لزهقت ارواحهم.

كانت الساقية هي ماكينة الزراعة الرئيسية لسكان الجزيرة، وهي فكرة قديمة إستمرت حتى عهد قريب، فكرة عبقرية لجلب الماء من النيل الي الزرع، ومن الصعوبة بمكان شرح فكرتها، ولكنها قائمة علي فكرة الحلقات ذات التروس، كانت تدار عن طريق بقرتين مربوطتين إلي الساقية وصبي يجلس خلف البقرتين على مقعد يسمى "التُكُم"،صبي يسمونه (اروتي أو أوْرتّي) وأورتي هذا من (أوْري) او (أورر) وهي الزراعة، تدور البقرتان ومن خلفهم الصبي في دائرة كاملة ، وتدور الـ (فيشينجي) جمع فيشي (القواديس) وهو الأواني التي تحمل الماء في دائرة رأسية كاملة لتنقل الماء إلي بداية الجدول، في بعض الحالات كانوا يربطون ثوراً واحداً بدلاً من البقرتين وكان يسمي (أرقوق)، وبينما تسمي الساقية (كُلي) عند الدناقلة، تسمي (أسكلي) عند المحس، وواضح أنها نفس التسمية، فالكلمة أسكلي مكونة من كلمتين، (أسي) و (كلي) (أسن كلي) أسكلي.



كانت هذه السواقي تبدأ عملها في الـ (شاييق) أي الفجر المبكر، وتظل تعمل حتي وقت متأخر من الليل، وكانت حلقاتها وتروسها تصدر أنغاما موسيقية شجية، كأنها تستعطف الرزق، فيأتيها رغداً، كان يوم العمل في الري بالساقية ينقسم إلي (فجرن تتي) أي القسم الصباحي ، (ودُكرن تتي أو دُهرن تتي) أي الذي يبدأ بعد الظهر، كانت زراعة السواقي مباركة ، يزرعون مساحة ليست

كبيرة، فتفتح الأرض مواطن الخصوبة و يغمروها بالماء فتهتز انتشاء، وتحبل بالبذور، ويعم من الخير ما يكفي، فيأكل البشر ويأكل الطير وتأكل البهائم، وتمتلئ الأثداء والأضرع، فيحلبون منها حليباً كامل الدسم، يستخرجون منه السمن، يغلونه ويشربونه، ويأكلون القراصة بالسمن، صحة وعافية، لا كلسترول ولا حبس بول.



كان الـ (السُو) اللبن الطازج ومشتقاته مع الـ (إلّي) القمح و(الفُتُو)الدخن والـ(فنتي) البلح والـ(أرجي) البليلة والـ (هميريين كابد) وهي قراصة بالعجوة، أو جنقرة كابد Gangra Kabid تؤكل باللبن، والـ (كرمن قرى) مديدة الحلبة ، والـ (جدى قرى) يتكون من عطرون وقمح ولبن ، ثم قراصة الملوحة (التركين) وهي أكلتي المفضلة ، كان ذلك هو الأساس الغذائي للسكان، وكان المزارع يأتي بالحليب حين عودته الي البيت مع المغرب ، فتقوم النساء بـ (شك) أي خضّ الحليب لإستخراج الزبدة بوضع الحليب في (السعن) وهو ما يسمي بالنوبية (بينج) ثم تغلي تلك الزبدة فتتحول الي سمن ثم يعبأ السمن في زجاجات للبيع أو للإستعمال البيتي ، أو إرسالها كهدية للأهل في المدن ، أو حفظها للمساهمة بها في كشوفات الأعراس، ويتحول الحليب بعد إستخراج الزبدة الي روب (سو نري) وهو يُشرب أو يستخدم للأكل بغمس (الكبا نري) أي الكسرة البلدية فيه، وكان محصول البلح هو الاساس الإقتصادي، ويقاس الناس في غناهم بعدد النخلات التي يمتلكونها، والنخيل والبهائم كانت هى مفتاح الحل في لحظات الضيق المادي.

وفي تقسيم العمل كان هناك "البصير" الذي يصلح أعطال الساقية، و"الصمد" الذي يحدد توزيع المياه وحصة كل مزرعة منها، والحداد (التبد) الذي كان يصلح ويصنع الأدوات الزراعية والمنزلية، مثل التريب (المنجل) والتوري (فأس عزق الأرض والتي حرفها أهل السودان الأوسط إلى طورية) والكارندي (الجرافة اليدوية الخشبية، والأُلد (الفأس) والكندي (السكين)، وهناك رئيس المركب، وإمام الجامع أو شيخ الخلوة أو المرأة التي تملأ أزيار السبيل ، كل هؤلاء كان لهم نصيب معين من محصول كل حقل من القمح والذرة، وكان المزارعون يتعاملون مع شيخ الخلوة وإمام الجامع بكثير من التقدير والإحترام، كانوا لا يبخلون عليهم بإنتاج مزارعهم، وعندما تلد البقرة كانوا يعطون الشيخ الدفعة الأولىً من (السُو) الحليب، فتجد بيوت (الفقرا) عامرة بالمنتجات الزراعية رغم أنهم لا يقومون بأي عمل زراعي ولا يفهمون فيه شيئاً، ولكنهم كانوا يوفرون الأكل للعابرين في المساجد في كل الأوقات، وكانت الساقية مؤسسة أو شركة لها قوانينها ولوائحها، كان الصمد هو المسئول الأول، والصمد هو رئيس مجموعة المزارعين المنضوين تحت ساقية واحدة ، أو رئيس الساقية كمؤسسة، أي رئيس العمال الزراعيين ، وهم الذين يطلق عليهم أسم (الترابلة) المفرد بالنوبية (تُربا) والجمع(تُربري) ، وعادة ما يكون الصمد كبير السن، وأكثر خبرة بأعمال الساقية، وأكثر نصيبا في أراضي الساقية في بعض الحالات، والصمد هو المسؤول عن كل ما يتعلق بالساقية من صيانة وتوزيع أعمال على

المزارعين، ويشرف الصمد أيضا علي جمع المحصول وتوزيعه، كما أنه المسؤول لدى السلطات المحلية في ما يتعلق بالساقية من ضرائب.

أجزاء الساقية (واعتذر لاستحالة ترجمة معظمها لعدم وجود مقابل لها بالعربية:

ديو - أرقدي - أرقدنتود - سلقدي - توندي - سندقي - إسلنق - فيشي / بيشي - مِشي - تُكُم - كرب - ساب - أسنّري - أسِّكاق - بُقدو - سوي - قُرمدي - ألويل - كرُانج - جومب - أُلس - أقلو - قردي - سبلو - دلو - شيقر - كودي - دُنقر وكان لصبيان الساقية (الأورتي) أغان يترنمون بها لطرد الملل والنعاس والخوف من (الدُقُر) والـ (أمن دال) و (السُرنق جدي) وهي كائنات عدوانية وشرسة تخرج من النيل وكان البعض يؤمن بها لدرجة أنهم بعض الأحيان كانوا يطلقون أرجلهم للريح هرباً من هذه الكائنات، عندما يخيل للواحد منهم انه سمع وشوشة او دمدمة. ولا أنسي أنني والحبيب محي الدين عبدون كنا نصطاد السمك مرة، وكان الوقت بعيد المغرب، وكان الموسم موسم فيضان، وبينما نحن مشغولون بتجهيز (الجكّار) أو السنارة، إذا بقطعة كبيرة من الطين تقع في الماء نتيجة النخر (الهدام) وتحدث صوتاً داوياً، وكان هو في الجانب الأقرب من الصوت، وفي اللحظة التي ألتفتّ فيها رأيته وقد أطلق ساقيه للريح ، وكان محي سريع العدو، ولم أفهم أنا ما حدث، فتجمدتُ في مكاني من الخوف، وزحفتُ إلي أعلي قليلاً قليلاً ثم جريت، وعندما وصلت منزلهم وجدته أمام الباب قلقاً، وعندما رآني جاءني متسائلاً (مِنامنو)، يعني كان شنو؟. ورغم أنني كنت أستطيع البقاء علي الشاطئ منفرداً بالليل إلاّ أنني في تلك الليلة أصبت بخوف بالغ، وبقيت تلك ذكري لم أنسها.

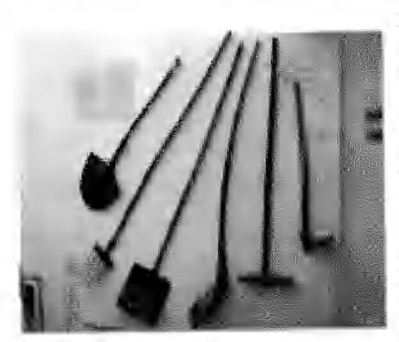


هذه الصورة النادرة (لبرج) خشبي يسمى(هيلو) كان يُبنى وسط الزراعة على إرتفاع ثلاثة أو اربعة أمتار وفيه مكان (منصة) لجلوس شخص أو أكثر ، تمتد من المنصة حبال طويلة إلي أطراف المزرعة في كل الإتجاهات وهذه الحبال تعلق بها علب فارغة بداخلها بعض الحصى أو الحجارة الصغيرة ، يقوم الشخص الجالس بهز هذه الحبال بصورة مستمرة فتُحدث صوتاً يبعد الطيور عن الزراعة.

كانت الزراعة تقوم على نظام الري النوبي الذي كان يعتمد علي السواقي والشواديف، وتسمي الساقية (أسكَلي) كما سبق الذكر، وانتقلت هذه الكلمة من (عندينا) عكس التيار الي ضفاف نيل الخرطوم مع النوبيين الذين سكنوا جزيرة توتي، وحتى أواخر سبعينات القرن الماضي كانت هناك ساقية على الطراز النوبي على شارع النيل في الخرطوم على مقربة من نقطة انطلاق عبارة/ معدية توتي، قبالة المتحف القومي، وتلك العبارات تسمى في السودان "بنطون"، وهي مأخوذة من الأصل الإنجليزي pontoon وقد كانت كامل المنطقة الممتدة من الموقع الحالي لوزارة الصحة حتى موقع قاعة الصداقة في الخرطوم تعرف بـ (سواقي المحس) ويبدو أن كلمة أسكلي تحولت الي "أسكِلا"، ولعل ذلك مرده أن رصيف تحميل الركاب في العبارات والزوارق من وإلى جزيرة توتي كان هو المزلقان الذي يقود الى تلك الساقية (الأسكلي)، ثم كان ما كان من أمر الذي (من الأسكلا وحلاّ وقام من البلد ولّي)، عندما ذاب قلب شيخنا الشاعر ودالرضي و"اختلّ"، فكتب تلك القصيدة الرائعة التي تتبع فيها درب بابور النيل (الباخرة) ذاكراً كل المحطات النهرية من الخرطوم حتي الرجاف في أقصي الجنوب. والحقيقة أن السواقي كانت منتشرة علي إمتداد نهر النيل، محتفظة بالأسماء النوبية لأجزائها، وإمتدت الي أرض الجزيرة والنيل الأبيض ونهر عطبرة ، وعلي ضفاف نهر القاش في كسلا، حيث أوحت الي الشاعر الكبير توفيق صالح جبريل برائعته كسلا، عندما حلّ ضيفاً في حديقة العشاق، في ذلك الفجر الندي، طلق المحيا، إذ نغم الساقيات حرك أشجانه، وأهاج هواه أنين السواقي، وكيف لا وهو النوبي، فهو من جزيرة مقاصر، ولم تكن اللغة العربية هي لغته الأم، إلاّ أنه أبدع بها كما فعل النوبي خليل فرح، ورغم أنه يعتبر أبوالوطنية، ورغم إنتاجه الشعري الغزير، إلاّ أن توفيق غير معروف بالدرجة التي يستحقها.

ووصلت الساقية إلي إرتريا في تسني وأغردات بنفس الأسماء النوبية، وبجانب الساقية كانت هناك آلة صغيرة تسمي (كِيّه) أو الشادوف، وكما هي واضحة في الصورة ففكرتها بسيطة، تتلخص في عودين من الخشب مثبتتين موصولتين بعارضة من الخشب، وتربط في وسط العارضة خشبة أخرى طويلة في طرف منها يربط جردل لغرف الماء، وفي الطرف الآخر كتلة ثقيلة من الطين اليابس، وعندما ترفع تلك الكتلة إلي أعلي ينزل الجردل في الماء ويمتلئ، ثم تضغط الكتلة إلي أسفل فيرتفع الجردل فتمسك به





وتفرغه في الجدول، وهكذا، هي عملية مرهقة للغاية، ولذلك كان الشادوف يستعمل في زراعة مساحة صغيرة للخضار. والشادوف الوحيد الذى شاهده أبناء جيلي في بدين كان فى جروف العنابيج . وكان يديره المرحوم عبداللطيف (أخضر).

(الصورة على اليسار لبعض الأدوات الزراعية وهي مأخوذة من متحف كرمة) . كان كل العمل الزراعي يتم يدوياً كما ذكرت، بدءاً من حراثة الأرض وتسويتها ورفع أحواضها ورش البذور وتغطيتها، والسهر علي سقايتها وحراستها وتنظيفها من الحشائش المتطفلة، وتنظيف هذه الحشائش كانت مناسبة طيبة لمن يملكون بهائم ولا يملكون زراعة، ففي نفس الوقت الذي يؤدون فيه خدمة لصاحب الزراعة كانوا يوفرون غذاءً لبهائمهم، كانت الزراعة تأخذ كل وقت المزارع، إذ كان عليه أن يبقي فوق أرضه وزرعه أطول وقت ممكن من اليوم، وغياب يوم واحد لم يكن ممكناً، حتي أنه كان يقال (تُربا تنين أجْمن) اي أن التربال . من كثرة إنشغاله . لا يتمكن من البكاء الحداد علي أمه المتوفاة، وكانوا في الزراعة يتعاملون بالأشهر القبطية ، كانت اللغة القبطية هي اللغة الرسمية للممالك النوبية لفترة طويلة، وكانت الكتابات تتم بها، وسوف نتحدث عن ذلك في فقرة لاحقة عندما يأتي الحديث عن اللغة النوبية، عموماً في الزراعة أعتمد المزارع النوبي علي الشهور القمرية القبطية ، وهي كالآتي:

1 . توت	سبتمبر / أكتوبر
2 . بابه	أكتوبر / نوفمبر
3 . هاتور	نوفمبر / ديسمبر
4 . كيهك	ديسمبر / يناير
5 . توبه	يناير / فبراير
6 . أمشير	فبراير / مارس
7 . برمهات	مارس / أبريل
8 . برامودة	ابريل / مايو
9 . بشنس	مايو / يونيو
10 . بؤونة	يونيو / يوليو
11 . أبيب	يوليو / أغسطس
12 . مسرى	اغسطس / سبتمبر.

فى عام 1948 صدر قانون الجمعيات التعاونية . وكانت الفكرة فيما يختص بالزراعة هى دمج المزارع الصغيرة فى مشروع واحد كبير ذو جدوى إقتصادية أكبر، يستخدم المضخات التي تعمل بمشتقات النفط، وهكذا قامت المشاريع الزراعية الكبيرة . من ضمنها مشروع شبة وتشى الزراعى فى بدين . ومشروع أخر فى سقدان . ومشروع شبة وتشى قام فى 1948 . بماكينات ضخمة تم جلبها من إنجلترا . وقد تعاقب عليه عدد من (الأسطوات) أشهرهم هو الأسطى

سعد ، من أبناء دنقلا المدينة على ما أعتقد ، وقد أقام فى بدين مدة طويلة ، وكون أسرة كبيرة ، وقد درس أبناؤه محمد سعد ومصطفى سعد معنا فى مدرسة شبة ، وقد إستمر المشروع يعمل بكفاءة عبر السنين ، ووضع للمشروع قوانين ولوائح دقيقة تفصّل العلاقة بين إدارة المشروع والمزارع ، وكان من نتائج المشروع أن المساحات المزروعة أصبحت كبيرة جداً بدلاً من المساحات الصغيرة التى كانت تزرع عن طريق السواقى ، وانضم معظم المزارعون للمشروع ، وهناك من جلب مضخات (بوابير) صغيرة (دوانكى، ومفردها دونكي) ركبوها فى متراتهم، والمتر بكسر الميم وفتح الباء مع التشديد، أصلا هي البئر، وصارت تطلق على الأراضي التي تسقى بماء بئر عوضا عن ماء النهر، وكان البعض يحفر المتر/ البئر على مسافة قريبة من النهر ويملأها ماء بجدول يأتي من ساقية صغيرة تسمى "كلو تود"، ويقال أنّ كلمة (دونكي) Donkey . و هو تسمية شعبية إنجليزية لهذه الالة البخارية . يقال أنه وعند قيام الثورة الصناعية فى إنجلترا فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، عجب العمال الزراعيون الإنجليز لأمر هذه الآلة التي تعمل طويلاً و بلا كلل و لا ملل مثل الحمار ، مقارنة بالإنسان ذو القدرات المحدودة ، وخافوا من أن تحل محلهم وتؤثر على أرزاقهم . ونظروا إليها بشئ من الإحتقار والغيظ وأطلقوا عليها إسم (دونكي) أي الحمار! . ولكن الجمع (دوانكى) هو مصطلح سودانى . ككثير من المصطلحات المعرّبة التى دخلت اللغة السودانية كمفردات لا ينتبه الناس إلى أصلها . وعلى كل حال فقد وفّر المشروع ترعتىْ رى كبيرتان ، وتفرعت من الترعتين جداول صغيرة إمتدت إلى داخل المزارع . وهكذا فقد أصبح المشروع هو شريان الحياة الذى إعتمد الناس عليه فى معاشهم . وأختفت السواق التى كانت حنينة الصوت . وإمتلأ الأثير بصوت الوابور الغليظ الذى يوقظ الناس مع الفجر . ثم صوت الدوانكى المطقطقة . ولكن . وفى كل العهود . عاش الناس متحابين متعاونين . كانت هناك وما زالت إشتراكية فطرية فى مجتمعهم البسيط ، لم يكن هناك جائع ولا سائل ولا محروم، ولا من يعدم غذاء ولا كساء ولا سكن، الكل بالكل، والكل أهل وصحاب، الكبير موقر ومطاع، والصغير إبن الجميع، لا شرطة ولا قضاة ولا محاكم، يتحاكمون إلي بعضهم البعض، وإذا إستدعي الأمر تدخل العمدة، فيتصافون إحتراماً له، وأشهر عُمد الجزيرة هو العمدة محجوب، الذي كان ذو شخصية آمرة زاجرة، فإذا قال لك يا ولد أملأ الإبريق، وقلت له (آبا أُمدة أبريق جنقافي) أي الإبريق مليان، يقول لك (فوفجا جنقدا كر) (افرغه وأملاه تا ني)

هم الفلاحون الذين قامت الثورات بإسمهم، وبإسمهم سقطت حكومات، عاشوا دون أن يفهموا ما هي الحكومة، وما معني ثورة، هكذا عاشوا في بساطة، يملكون أمرهم جميعاً ، آمنين في سربهم، معافين في بدنهم، عندهم قوت يومهم، سيقت إليهم الدنيا في شبيبة الزمان فسرتهم، ولم يفتروا بها، أخذوا ما أعطتهم الدنيا علي إستحياء، فكانوا سادتها الفقراء .

كان الأطفال يقضون يومهم بين المدرسة وبعض العمل الزراعي واللعب بين نخلات الجزيرة الباسقات وبين السباحة في عرض النهر. في بعض الأحيان يقضون أكثر يومهم داخل الماء يلعبون (الأبيداد) أي الغطيس. يتسابقون في السباحة. يقطعون النهر من الشاطئ إلي الشاطئ الآخر ثم يعودون. وهم يقاومون تيار الماء القوي. لايخافون من التماسيح. ولا الدُقُر ولا (أمن دال). وهو (كائن) اسطوري كان يقال انه يخرج من الماء ويشرب دماءالبشر.(دراكولا). ياكلون (الكجكول) أي الرطب ويشـربون من ماء النهر العكر. صحتين وعافية. ماء الـ (ميسوري) (الدميري) كما ننطق وهي التي صارت "دميرة" على ألسنة النوبة المستعربين. او الفيضان إن اردنا التعريب. ماء طيني عكر لو شرب منه أبناء سام لقضي عليهم في الحال. يلعبون السيجة والتاب والشرا بتري وفي الليالى المقمـرات . ويا لها من ليال مقمرات . كانوا يلعبون (الدكّي والكود والنّافابّتري) . شقاوة طفولة ممتعة ، والطفولة فى الريف تختلف عنها فى المدن ، إذ فى الريف يحس الطفل بالإنتماء الجماعى أكثر من المدن ، فكل أطفال الحى من أسرة واحدة ، أبناء عمومة وخؤولة ، وكل كبار الحى أما أعمام أو أخوال (خيلان) ، وهذا التداخل الأسرى ينمى فى أطفال الريف حميمية وتقارباً . كما أن وجودهم أمام أعين الكبار من الأعمام و الأخوال والعمّات والخالات طوال الوقت يقلل من احتمالات تعلم سلوكيات وألفاظ سوقية. كما أنه ينمى فيهم إحترام الكبير والتهذب أمامه. أكثر من أطفال المدن.وتربية الريف أفضل للطفل من تربية المدينة ، وعلى كل حال فبعد ان سافرنا وإغتربنا. وعندما نعود في إجازاتنا نقف في تلك الأماكن متمثلين أبيات إيليا :.

وطنَ النجومِ أنا هُنا... حدّقْ أتذكرُ من أنا؟

ألمحت في الماضِ البعيدَ .. فتىً غَريرا أرعنا

جذلانَ يمرحُ في حقو ... لكَ كالنسيم مُدندنا

المقتنى المملوكِ مل ... عبُه ، و غير المقتنى

يتسلّق الأشجارَ لا ... ضجراً يحسُ و لا ونى

و يعودُ بالأغصان يبـ... ريها سُيوفا أو قنا

و يخوضُ في وحل الشتاءِ ... مهللا مُتيمنا

لا يتقّي شر العيون ... و لا يخافُ الألسنا

أنا ذلك الولد الذي.. دنياه كانت ها هنا

أنا من طيورك بلبل.. غنى بمجدك واغتني

و لكم تَشيطن ، كي يقول الناس عنه : تشيطنا!

نقف هناك، نستعيد الذكري. نتساءل هل كان أجدر بنا أن لا نسافر، أن لا نغترب، أن لا نبتعد، هل كنا نقيم هناك فنبقي سعداء كالذين أقاموا وسعدوا، هل كل الذي تعلمناه، وعرفناه، ورأيناه في الغربة أفادنا؟ لا أدري .

كانت أيام الصبا أيام . ليتها تعود . لا لأخبرها بما فعل المشيب كما تمنى أبو العتاهية . ولكن لأعيش تفاصيلها مرة أخرى . تفاصيل المكان والزمان . وبينهما الحياة . هناك حيث كانت الليالي صافيات، منعشات، هادئات، و كأن القمر قد سكب علي تلك البقعة كل ضوئه، فتكاد تقرأ كتاباً علي وهجه، والطقس صافٍ ونظيف، خالٍ من كل شائبة، والنسيم بارد عليل، يهُبُ عليك من أطراف الجزيرة حاملاً صوت صفقة هنا أو زغرودة هناك، وصوت وردي أو الشفيع او عثمان حسين ينبعث شجيا من المذياع . وصوت ثغاء أو مواء أو نهيق يقول لك أنها أيضا تستمتع بسحر الليل، واوركسترا كاملة من الضفادع تعزف مقطوعة التناسل، وصياح ديك متعب، نام مبكراً، ربما بعد يوم حافل، فاختلط عليه الوقت فلم يعرف الفجر، ومثله نسميه بالنوبية (كُكلول فجركا إربمّيني) يعني الديك الذي لا يعرف الصبح، وصوت الشلال عند رأس الجزيرة يحكي عن سحر النيل، يختلط كل ذلك عند الفجر بصوت المآذن ينادي الي الصلاة والفلاح، وصوت الدوانكي ينادي الي العمل، وعند الشروق تنضم الطيور الي تلك السمفونية بشقشقة عذبة، فيصحو البشر وتدب الحركة وتبدأ البلدة فعاليات يوم جديد، تلك الأيام من عمري خوالد في ذاكرتي، ورغم البعد الزماني والمكاني من هناك، إلاّ أن يومي يبدأ وينتهي بذكريات بدين، تفاصيل الطفولة والصبا لا تفارق مخيلتي، أتذكر مراتع اللعب في تل الرمل (سبون دُكّي) أمام منزل جدنا النذير عبدالقادر، كنا نسميه يوه عجابين سيو، أتذكر الخلوة والمدرسة، والمدائح النبوية وليالي الذكر، أتذكر صوت البابور وصوت البريخ، صوت الساقية والنورج، أشم رائحة مزارع القمح والفول والبرسيم، رائحة أشجار النيم عند الغروب، مراحات البقر والغنم، برد أمشير ورياحه، وتلك الحشرة الشتوية المزعجة، الـ (كُتي ماج أو النمِتّي) التي كنا نرتدي لتفاديها أكياسا من القماش الشفاف على رؤوسنا نسميها الـ (كتّن قبا)، أصوات البهائم وهي تتناغي أو تحتج علي الجوع، أصوات الزغاريد في الأفراح، أصوات البكاء والنواح في الأتراح، أصوات النساء وهن يعانين من ألم المخاض، طعم (القلّو) التمر الأخضر و (الهمبو) الدوم، كل ذلك يمر بخاطري كل يوم، لا أحلم قط إلاّ بذكريات البلد، فهل من عودة هل؟.

هـذا وكان لي صاحب رقيق الحال، مغرم بالنيل أي غرام، يعشق الليل أي عشق، كان يقضي الساعات على الشاطئ ليلاً، في ذلك الجو الهادئ الممتع الجميل، هو والليل والنيل والقمر، و اسماك صغيرة تقفز من الماء ثم تغطس فيه، محدثة صوتا نغيماً يسبل الأذن شجيا، ثم يغني صاحبنا في مناجاة حورية تتراءي له فوق سطح الماء أمامه، فلا يكاد يستبينها حتي تختفي ، لتظهر عن يمينه، وتغمره بإبتسامة عذبة كالطفولة، دافقة كالشلال، فيكاد يقفز فوق سطح الماء، فتختفي ، لتظهر عن شماله، وما أن يلتفت حتي تختفي ثم لا تبين، فيطول ليله ويطول،و(ليل العاشقين طويل).

كانت الجزيرة تتبع إداريا لمجلس ريفي أرقو، الذي يخضع بدوره لسلطة "مركز دنقلا"، وأرقو لي فيها ذكريات، فقد كانت أُسرتنا من (خلفاء) الأدارسة، وهم يقولون أنهم من أشراف الحجاز، وكنا نجمع لهم محصول البلح، وكان العادة عندنا أن المزارعين وأصحاب الحواشات كانوا يهدون نخلة أو اثنتين للأشراف، طلباً للبركة، وتقرباً لله، وكان لهم خلفاء أو وكلاء في كل منطقة يقومون علي هذه الممتلكات والهبات بالرعاية وجمع المحصول في الموسم. وزرت مع والدي في أرقو بيوت الأشراف، او الأسياد، اسرة السيد الإدريسي فرع أرقو، و كان في الأمر إستغلال للبسطاء، وقد تمردت علي ذلك الحال لاحقا، (وتلك قضية أخري، وما أكثر القضايا الأخري)، فمثلا لم يكن والدي يسمح لنا بأخذ بلحة واحدة من محصول "سيدي" كنا نتعب في جمعه دون مقابل، ألا رحمه الله، فقد علمنا الصدق والأمانة، وكانت له ارتباطات روحية وأسرية بتلك المناطق تمتد حتي بلدة "شيخ شريف"، وكانت هناك صداقة أسرية وزمالة خلوة تربط أسرتنا مع أسرة الشيخ الكبير (حسن بُجّة) في الترعة، وخلوة الشيخ حسن بجة من أكبر وأقدم الخلاوي في المنطقة كلها، ويقدر عمرها بأكثر من 800 عام، أي قبل ان يصبح الاسلام دين الدولة النوبية الرسمي، وكان يقوم عليها اجداد الشيخ حسن، ولم تزل الخلوة موجودة حتي الآن، ويشرف عليها الآن عمنا الشيخ أحمد كامل حسن بجة، وكان الأستاذ الطيب محمد الطيب قد سجل حلقة عن الخلوة في برنامجه (صور شعبية) عرضت في تلفزيون السودان، كما ان الأستاذ الطيب قد ذكر هذه الخلوة في كتابه القيم(المسيد)، وفي عهد مايو أُخُذتْ بعض الأشياء من الخلوة الي متحف الخليفة عبدالله التعايشي، منها (جريد أنقرى) أو (انْقَري دوول) أي (السرير الكبير)، وهو عنقريب/سرير ضخم ووسيع وارتفاعه عن الأرض كان نحو متر تقريبا، وكان نظيره موجوداً في كل الخلاوي، وكان يستعمل لأغراض كثيرة، والشيخ حسن بجة هو جد أخينا مهتدي الخليفة محمد نور، ووالده هو الشيخ محمد نور المقرئ المعروف، وسوف آتي علي ذكر الخلاوي في بدين والمنطقة في فقرة لاحقة .



في زمن العموديات كانت في الجزيرة عموديتان، عمودية سقدان وعمودية توشي/شبه، وعلاقة سقدان ببقية الجزيرة عجيبة، هي إحدي مشيخات بدين الخمس ، وليست جزيرة منفصلة ، ولكنها وإلى عهد قريب كانت تنفصل في مواسم الفيضانات، لأن نهرا موسميا كان يشق جزيرة بدين ويجعل من سقدان جزيرة موسمية، كما كان هناك نهر آخر يمسى "فاسي" يجعل من عثمان آرتي جزيرة موسمية، ولذلك أبقت علي اسم جزيرة سقدان، مع انها الآن ليست جزيرة ولم تعد تنفصل حتي في الفيضانات الكبيرة ، بعد أن أحكم الأهالي سد المجرى بحيث لا يخرج النهر عن مساره حتى في أعتى الفيضانات. عمودية سقدان كان أول عمدة لها العمدة حمد حاكم وخلفه العمدة محمد حمدالله ابراهيم الى ان تم حل النظارة

والعموديات في الشمال في بدايات نظام جعفر نميري العسكري الشهير ب"نظام مايو" نسبة للشهر الذي حدث فيه انقلابه العسكري عام 1969 . وأول شيخ لشياخة سقدان هو الشيخ فضل حاكم وخلفه ابنه شريف فضل حاكم ومن ثم حفيده الشيخ عبدالرحيم محمد فضل حاكم في بداية نظام "الانقاذ" وهي التسمية التي أطلقها الاسلاميون على حكمهم بعد وصولهم السلطة بانقلاب عسكري في 30 يونيو 1989.

أما عمودية بدين فكانت بقيادة العمدة محجوب عبدالكريم. كان يُعرف بإسمه الأول (عمدة محجوب)، وعند تصفية الإدارة الأهلية في العام 1969 بقيت في الجزيرة خمس شياخات. هي بالترتيب من الجنوب إلي الشمال سلنارتي وسقدان ونُشي وشَبة. ثم شياخة جزيرة دقرتي، حتي جاءت اللجان الشعبية. وما أدراك ما اللجان الشعبية

.

من الملاحظ ان أهل الجزيرة من المجموعات التي أبقت علي العادات والتقاليد النوبية حتى إلى عهد قريب. بل وحتي الأن. وبحكم أن الجزيرة كانت شبه معزولة. وكان إختلاط أهلها بأهل (البَر) شرقاً وغرباً. إختلاطاً محدوداً. فلم يكونوا يخرجون من الجزيرة الآ نادراً. إما لسفر أو لعلاج. وهناك أناس كثيرون ولدوا وتوفوا دون أن يروا البر وما فيه. وإبقاء اللغة النوبية حية ساعد كثيراً علي إبقاء الثقافة النوبية. فالكلام بالعربية. كان لفترات قريبة "فلسفة" غير محببة. ولم يكن بإمكان الشباب المتعلم أن يتحدث مع الكبار باللغة العربية. كان تصرفاً غير مقبول وغير لائق . مثلاً جدتي من أمي كان اسمها خديجة. ولكنها لم تكن تعرف ان اسمها خديجة. ولم تكن تعرف من هي خديجة اصلاً. ولو ناداها شخص باسمها الأصلي جاء الاسم "هجيجي". كنا نناديها (يوّة حَجّي) و(يوّة او يو) يعني الأم. كانت يوة حجي نوبية (قح). ولم تكن تصدق أن هناك في الدنيا من لا يرطن. لأنها كانت تعتبر اللغة العربية لغة دخيلة. لغة يتفلسف بها أولاد المدارس. فهي لغة المدرسة ولا لزوم لها في البيت. وكانت تتضايق تماماً اذا تحدثنا أمامها بالعربية. ولم تتحدث هي بالعربية إطلاقاً. ولم تكن تفهم منها لا قليلا ولا كثيرا. وكان الناس عندنا يستمعون للإذاعة لمتابعة أخبار الوفيات. وكانوا يسمون فقرة الوفيات في نشرة أخبار الثامنة مساء والتي كانت تقتصر على الأخبار المحلية (تُوفيا). وهذه هي الفقرة الوحيدة التي كانت تهمهم من كل أخبار الدنيا. وكانت يوة حجي تستمع للمذيع كل ليلة وهو يقول (توفيت فلانة حرم الأستاذ فلان. توفيت فلانة حرم السيد علان. حرم....حرم....حرم) فما كان منها الآ ان سألت بالنوبية (انتو يا جماعة نسوان الخرطوم ديل كلهم اسمهم حرم؟) . وليقل لي كل الذين يدعون العروبة كيف كان يمكن تعريب جدتي هذه؟. كان الناس بالنسبة لجدتي ينقسمون الي ثلاثة أصناف لا رابع لهم. إما نوبي. أو عربي. أو نُفُذ. يعني من به سواد. لم تكن تقبل أن نقول أننا عرب. كان هذا الكلام مثل الشتيمة بالنسبة لها. وأنا من شيعة جدتي في مسألة العروبة. فنحن لسنا عربا. ليس فينا من العروبة غير اللغة والأسماء. التي تبنيناها بحكم أننا مسلمون. ولا شئ هناك يجعلنا نستجدي الإنتماء العربي من العرب. الذين لا يعترفون بنا أصلاً كجزء من نسيجهم الإثني او الثقافي. فنحن نوبة ودماؤنا نوبية. وهذه قضية تحتاج الي وقفة . فعند الحديث عن إتفاقية البقط . ذكرت أن الإتفاقية نصت علي الآ يدخل المسلمون بلاد النوبة (المسيحية وقتها) إلاّ مجتازين غير

مقيمين ، وألاّ يدخل النوبة بلاد المسلمين إلاّ مجتازين غير مقيمين ، ولذلك وتاريخياً لا يمكن نسب النوبة الحاليين الي أجداد عرب . كالحديث عن أن سكان بدين ينتسبون الي فلان أو علان من العرب . فكل مناطق النوبة كانت مأهولة بالسكان لآلاف السنين . ولم تكن هناك فسحة من الأرض تصلح لاستيعاب العرب البدو المهاجرين من مصر حتي يتخذها العرب ويتوالدوا فيها. فمجرى النهر في ديار النوبة مخنوق بالصحراء شرقا وغربا. والرقعة الزراعية حوله ضيقة لا تتسع حتى لأهلها الأصليين. فكيف يمكن نسب سكان محليين كانوا موجودين منذ فجر التاريخ . كيف يمكن نسبتهم الي عدد قليل من الغزاة القادمين . رضينا أم ابينا فقد ورثنا الموروث الثقافي العربي لأننا ورثنا اللغة والدين. ولنا أن نتفاخر بالإنتماء الي الثقافة الإسلامية. ولكن لا يجدر بنا إدعاء الإنتماء العرقي العربي. فالعرق هو العرق. والعرق ليس إمتيازاً . بل ميّزة . وليس هناك عرق صافٍ وعرق معكر. ولا عرق راقٍ وعرق منحط . إعتماداً علي قول الرسول (ص) نفسه. إذ يقول لا فضل علي عربي ولا عجمي الأ بالتقوي. ومن الجحد الكبير التنكر لعرقنا النوبي. ولو كنا من أبناء العرب لتحدثنا العربية بالميلاد . واستمرار التحدث باللغة النوبية . والحفاظ عليها الي الآن . يدل علي أن التأثير العربي علي مناطق النوبة كان تأثيراً طفيفاً . وكل الذي حدث أنه وعندما جاء الإسلام قامت بعض الخلاوي في مناطق متباعدة من بلاد النوبة . سافر إليها بعض أبناء النوبة وحفظوا فيها القرآن . وبدورهم عادوا الي مناطقهم الأصلية وفتحوا فيها الخلاوي . وهكذا إنتشر الإسلام . وإنتشرت معه الأسماء العربية . فقد كان الناس عندما يسلمون يستبدلون أسمائهم بأسماء عربية بإعتبارها أسماء إسلامية. ثم أخذوا في تسمية أبنائهم بتلك الأسماء. وهكذا إختفت الإسماء النوبية وإنتشرت الأسماء العربية. وبدأت اللغة العربية في الإنتشار ببطء شديد وما زال إنتشارها بطيئاً حتي يومنا هذا. ولم يكن للعرب وجود إلا في مناطق محدودة وبعدد قليل جداً . ولم يتم التزاوج بين العرب والنوبة إلاّ في حالات نادرة . والغريب في الأمر أن أسماء نسائية نوبية ظلت وما تزال مستخدمة (مسكة. هولّه. نفرين. هجلة. دانه. دوانه. شيره. جوقة. أليسا)

فكيف يمكن القول بأن أجداد النوبة الحاليين عرب. هذا حديث. بجانب أنه غير صحيح وغير موضوعي. فإنه إدعاء سخيف لا لزوم له أصلاً. وفي رأيي الشخصي فالتفسير الوحيد لهذا الإنتساب هي نظرية (الغريب الحكيم) أو (الرجل المبارك) كما يقول المؤرخ (هولت). إذ يوضح أن الناس عادة يحاولون الإنتساب الي من يعتبرونه مميزاً إمّا لدين أو مال أو جاه أو عرق أو لون . كما كان معظم العرب في الماضي يحاولون الإنتماء الي قريش لمكانتها بينهم . والحقيقة أن الإحساس بالدونية الذى يؤدى إلى محاكاة الغازى الغريب ومحاولة الإنتساب إليه والتسمى بأسمائه حدث فى أماكن عدة فى العالم . إذ فى كثير من الدول التى فُتحت أو أُستعمرت ترك السكان أسمائهم الأصلية وتسموا بإسماء الغازى . ولدينا في السودان اسماء كثيرة استخدمتها عائلات سودانية أصيلة نقلا عن الاتراك مثل شوكت وفرحات وهمت. حدث ذلك فى كثير من الدول الأفريقية إذ هناك الآن أسماء إنجليزية أو فرنسية أو إيطالية للناس والمناطق فى أفريقيا . وينطبق ذلك فى كثير من جزر المحيطات كالهاما وهاييتى وجمايكا . كما ينطبق ذلك على السكان الأصليين فى كندا وأمريكا وأستراليا ونيوزيلندا وغيرها . والكثيرون فى هذه الأماكن المذكورة لا يتحدثون إلاّ

لغة المستعمر، ولكنهم لا يدّعون إى إنتماء عرقى لذلك المستعمر، ولكن الناس عندنا يحتجون (بالتزاوج) بين العرب والنوبة ، ولنقل أن هذا التزاوج قد حدث ، ولنقل أن ثلاثة أو أربعة من أبناء أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي أو غلام الله بن عابد ، أو جابر الأنصارى هاجروا إلى السودان وأستقروا فى بلاد النوبة ، ولنقل أنهم جاؤوا بأنفسهم بدون زوجات ، وتزوجوا نساء نوبيات ، كم من نساء النوبة تزوجوا ، لنقل أن كل واحد منهم وحسب الشرع تزوج أربعة ، هل هذه الزيجات المحدودة هي التي أدخلت الدم العربى فى كل سكان النوبة . حتى فى كتابة التاريخ أو البحث فيه فالمسألة تحتاج إلى إستعمال بعض التفكير البديهى ، إذاً يمكن أن يكون هناك بعض الأسُر فى بدين أو غيرها من مناطق النوبة تنتمى نسبياً إلى أحد ابناء أو أحفاد هذا الجابر الأنصارى ، ولكن أن نقول أن أجداد سكان النوبة أفراد من قبائل عربية فحديث لا يستقيم ، وهناك من يقول أنّ (مركز الجوابرة فى السودان هى جزيرة بدين) وأن سكان بدين ينتسبون إلى (جابر الأنصارى) ، وأنا حقيقة أستاء من سماع مثل هذه الأقوال الضحلة ، حتى لو إستندت هذه الأقوال إلى بعض المراجع الكبيرة ، فليس كل ما فى هذه المراجع صحيح . فالتشكيك فى بعض ماورد فى هذه المراجع سهل جداً ، ولا يمكن للبحث أن يتركز فى الوصول إلى الجد العربى ، وإذا عدنا إلى المراجع فإن من أهم المراجع كتاب ماكمايل (تاريخ العرب فى السودان) وهو يقول أن المحس الأصليين الذين يعيشون فى منطقة الجنادل ، بين دنقلا وحلفا ، ليسوا بطبيعة الحال عرباً ، وهو فى التقرير يعتمد على شواهد كثيرة ، ثم أن هؤلاء المنتسبون يقولون أن هجرة أحفاد جابر الأنصارى حدثت فى القرن السابع الهجرى ، ونحن الآن فى القرن الخامس عشر الهجرى ، أذاً المدة التى نتحدث عنها لا تتجاوز السبعمائة عام ، ثم أننا (فى أحسن الإفتراضات) نتحدث عما لا يزيد على العشرة أشخاص من أبناء العرب الذين إستقروا فى المنطقة النوبية ، وحسب تحليل (المستعربين) فقد تمكن عشرة رجال وفى مدة لا تتجاوز السبعمائة عام من تحويل العرق النوبى إلى عرق عربى ، وبذلك فقد أصبحوا (أجدادنا) الذين ننسب أنفسنا إليهم ، وإذا أخذت المنطقة من حلفا إلى القولد يدّعى السكان الإنتماء إلى جابر الأنصارى لدرجة أن سكان كل قرية يقولون أنهم (جوابرة) ، وفى أكثر الأقوال (المعتمدة) لدى بعض الإخوة فقد وصل إلى المنطقة ثلاثة من أحفاد جابر الأنصارى ، أكبرهم الشيخ (فقير عيسي) والذى إستقر بقرية موركه بجزيرة ساي/صاي ، وثانيهم (الشيخ زمراوي) وقد إستقر بمنطقة كرمه ، أما ثالث الثلاثة فهو الشيخ منور وقد أستقر في الوادي الواقع جنوب كرمه والتي كانت تعرف بوادي الشيخ منور ، وأول ما يمكن ملاحظته هو الأسماء ، فلا أعتقد أن هذه الأسماء من أسماء سكان الجزيرة عربية ، وهناك سيناريو آخر يقول بأن أول من دخل من الجوابره الي أرض دنقلا هو الإمام نفيع أبن عامر وجاء بصحبته أبن أخيه النور إبن عطيه وإبن أخيه سالم بن عبد الله وذلك سنة 735هجريه ، والأمير نفيع واولاده سكنوا بأرض الحفير ومشو ثم بكايتود غرب جزيرة مقاصر ، وهناك من يدّعى الإنتماء إلى (غلام الله بن عابد) ثم هناك إلى الجنوب من منطقة النوبة من يدعى الإنتماء إلى نفس جابر الأنصارى ، وهناك من يدّعى الإنتساب إلى (العباس بن عبدالمطلب) ، وهذا أهون ممن يدّعون الإنتساب مباشرة إلى البيت النبوى الشريف ، وقد وجدت فى بعض المنتديات النوبية من (سلسل) هذه الأنساب منتهياً بجابر الأنصارى بإعتباره

الجد الثالث والأربعين . طبعاً هذا لا يستقيم رياضيا/حسابياً. ثم أورد أحدهم تعريفاً بهذا الصحابى . فقال إن إسمه هو جابر بن عبدالله الأنصارى . ثم قال . ((وقد دعا له الرسول (ص) يوما قائلا(جبرك الله ياجابر كما جبرت الأسلام) وقد أستجاب الله سبحانه وتعالي دعوة الرسول(ص) فظهرت له كرامات بعد سنوات طويله من وفاته...أستشهد الصحابي الجليل جابر الانصاري في غزوة أحد ودفن في بقيع الفرقد مع الصحابي الجليل عمر أبن الجموح في قبر واحد وبعد أربعين عاما من دفنهم نزل سيل وجرف مقابر البقيع بما فيها قبر الصحابيين الجليلين فكشف أرجلهما فكانت سليمه فأستدعي الصحابه أبنه عبد الله فحفر قبرا جديدا لوالده جابر ونقله أليه وبعد مرور سنوات وفي عهد معاويه أبن أبي سفيان أمر معاويه عماله لزراعة قطعة من الأرض في ذات الموقع ولم يكن يدري بأن بها قبر الصحابي الجليل فصادف أحد العمال قبر الصحابي الجليل أثناء الحفر وبتر أحدي أصابع قدميه فتدفق الدم وكأنه جرح بجسد انسان حي فأمر معاويه بتضميد الجرح ونظافته وربطه حتي برء ثم أمر بوقف الزرع وأعيد دفنهما مرة أخري.)) إنتهى نص حديث الأخ والذى نقلته كما هو . هذا الحديث العجيب والذى لا يصدقه عقل . ليس إلاّ أسطورة تمت كتابتها لإضفاء قداسة على الرجل الذى ينتسبون إليه . وتكملة لحديث العجائب والغرائب فإننى أورد بعض الأساطير الأخرى الخاصة بالصحابة والتابعين والشيوخ الذين يُقال أنهم هاجروا إلى المنطقة النوبية وماتوا ودفنوا بها. وبعض هؤلاء الصحابة ثابت تاريخياً فى كتب التراث أنهم ماتوا فى الجزيرة العربية أو بأرض الشام . ولكن الأساطير النوبية تصر على أنهم مدفونون عندنا . منهم الشيخ المغيرة بن شعبة الذى يقال أنه مدفون فى منطقة عمارة شمال عبرى . ويحكى عنه العجائب من الكرامات . ثم هناك الصحابى عكاشة . الذى يقال أنه مدفون فى المنطقة المعروفة بإسمه فى السكوت . ويعرّفه البعض بالصحابى عكاشة بن محصن . ولوجوده هناك روايتان . الرواية الأولى تقول أن المدفون هناك هو (رأس) عكاشة . وتقول الرواية أن أحدهم فى المنطقة رأى في منامه ضوءاً يتلألأ في النيل . سمع صوتاً يقول إنّه عكاشة بن محصن يُريد أن يُدفن في منطقتكم . فهَبَّ من نومه وذهب إلى الجامع وبعد الصلاة حكى للناس ما رأى وسمع . فذهبوا إلى النيل ووجدوا رأس إنسان . ولكنهم إختلفوا أين يدفنون رأس الصحابى . فتحرك الرأس وإنحشر بين صخرتين ولم يتمكّنوا من إخراجه فقرروا أن الصحابى إختار مكانه بنفسه هنا بين الصُخور . فبنوا عليه قبة هناك. أما الرواية الأخرى فتقول أن الصحابى مدفون هناك بجسده الكامل . إذ عندما ذهب الناس إلى النيل حسب رؤيا الرجل لم يجدوا الرأس فحسب . بل وجدوا الجثة كاملة فوق صخرة كبيرة . وعندما إختلف الناس إين يُدفن . إنشقت الصخرة وإنفتح فيه قبر ونزلت الجثة ثم عادت الصخرة إلى سيرتها الأولى . فبنوا له مزاراً هناك . وهذه أمثلة بسيطة . وهكذا كل الروايات التى تتحدث عن صحابة مدفونين فى المناطق المختلفة على إمتداد الأرض النوبية . وهى كلها ليست إلاّ صور خيالية شعبية نسجها الناس . ولا تنطبق على المنطقة النوبية فقط . بل أنها تمتد إلى مناطق السودان المختلفة . بل العالم الإسلامى كله . وغالبية القبب والمزارات مبنية على فكرة (البيان) والبيان هو أن يعتقد أحدهم أو إحداهنّ أن الشيخ فلان بن فلان تبين له أو لها في (المنام) في مكان معين . أى أنه ظهر . ويكون البيان في صورة نبع من الماء أو جذوة من النار أو جثة تتلألأ .

فيبتنى الناس لهذا الشيخ قبة ويصبح المكان مزاراً ومكاناً للبركة والنذر. وعلى كل حال فلو كان ما يقال عن ان النوبيين المعاصرين او أسلافهم عبر القرون الأخيرة ينحدرون عن أجداد عرب دعاة وعارفين بالدين. لورث الأحفاد عن أجدادهم اللغة العربية وملامح أهل نجد وعسير.

قلتُ أن الرقم سبعة في التراث النوبي يحتاج الي بحث ، وما أورده هنا عن الرقم سبعة ليس بحثاً ، إنما محاولة لإظهار بعض خصائصه . والحقيقة أن الرقم سبعة محاط بسرية وتقديس غريب في كل الحضارات منذ فجر التاريخ الإنساني . فهو يتمتع بمنزلة خاصة في كل الديانات السماوية والمعتقدات الإنسانية . ولا تخلو أي حضارة أو فكر من خصوصية للرقم سبعة . و(الميثولوجيا) أي الأساطير المتعلقة بالعدد سبعة متوفرة عند كل الفرق الدينية والفكرية ، في كل الحضارات عبر التاريخ. عند الرومان والفرس . وعند كل الشعوب الأسيوية بفرقهم الكثيرة ، وأمنت شعوب الشرق الأقصي . والشعوب السامية . والإغريق . والمصريين القدامي . وشعوب ما بين النهرين بالسبعة عدداً مقدساً ، وأعتقدوا في الرمزية التي يجسدها هذا العدد . وكانوا ينسبونه الي الشمس وقوي النور ، وعند كل هذه الحضارات غير واضح لماذا قدس العدد سبعة وما سرها . ربما لأن عدد السيارات سبعة (الكواكب) ، والي أن الله عز وجل خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم إستوي علي العرش في اليوم السابع . ولذلك يسود إعتقاد عام بأن الأصل في الجذر (سبع) هو التمام والكمال والإكتفاء والإمتلاء . وهذا إعتقاد قديم موجود في كل الديانات المعروفة لدينا بالديانات السماوية . كما أنه إعتقاد موجود في (المعتقدات) الإنسانية الأخري . كما أن مفهوم السبعة آلهة والسبعة أرواح موجود في المعتقدات قديمها وحديثها . وفي المسيحية فإن العدد سبعة يرمز للعذرية . وللكمال . وعدد الخلق . والتطور الكوني . كما أنه رمز الراحة الخالدة والقيامة. وينقسم العالم في المسيحية الي سبعة عصور . الأول من أدم الي الطوفان . الثاني من الطوفان الي إبراهيم . الثالث من إبراهيم الي موسي . الرابع من موسي الي داؤود . الخامس من داؤود الي جلاء بابل . السادس من جلاء بابل الي المسيح . والسابع من السيد المسيح الي نهاية الدهر . وهو عصر النعمة . وعندهم الصلاة الربانية سبعة . الأسرار المقدسة سبعة . والفضائل سبعة . والخطايا الرئيسية سبعة . والوصايا المعاكسة سبعة . ومزامير التوبة سبعة . وقد ورد ذكر السبعات في الكتاب المقدس أكثر من ستمائة مرة . وتعبير (عمل السبعة وذمتها) جاءنا من عند المسيحيين ، وهم يعنون به أن الفواحش السبعة ثابتة في ذمة الرجل الذي عصى الوصايا . المصريون القدماء قالوا أن الأخطاء سبعه وان لكل خطأ 7 قضاة يحاسب موتاهم عليها على هيكل مسبع الأضلاع . وتوزن الخطايا بسبعة أوزان . ويمر الميت بسبع مراحل من السؤال . ويقول أرسطو ان هضبات الحكمة سبع . وهي الهضبات الواجب تسلقها حتى يبلغ الرجل الحكمة . وقد توصل العلم الحديث الي 7 مستويات مدارية للألكترون. وسبعة مستويات حول النواة . وتوصل العلم الي سبعة ألوان للضوء المرئي، وسبعة اشعاعات للضو الغير مرئي . والعلامات الموسيقية سبعه . وهي على الترتيب (دو - ري - مي - فا - صول - لا – سي) أما في الديانة اليهودية ففي نهاية كل حلقة من العمر تغتفر الخطايا . وكل حلقة سبعة سنين . ونحن نعلم خصوصية الرقم سبعة في الإسلام . فكلمة القرآن سبعة

أحرف . ويقرأ القرآن الكريم بقراءات سبع . والشهادة (لا إلاه إلا الله محمد رسول الله) تتكون من سبع كلمات . وأيات فاتحة الكتاب سبع آيات . وهي السبع المثاني . وكلمة المثاني سبعة أحرف . وأية المثاني تتكون من سبع كلمات {ولقد ءاتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم} وسورة الفاتحة تحوي جميع الأحرف ماعدا سبعة أحرف . هي ث . ج . خ . ز . ش . ظ . ف . وجاء ذكر السموات السبع في سبع آيات مختلفة . وجاء ذكر الإستواء علي العرش سبع مرات . في متتالية رقمية عجيبة . والأرضين السبعة . وسبعة أبحر . والسبع سنابل . والسبع بقرات السمان . والسبع العجاف . وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . وسبع سنين دأباً وسبع شداد . وسبع ليال . وصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم . وجهنم لها سبعة أبواب . والموبقات سبع . وأهل الكهف سبعة ثامنهم كلبهم . والذين يظلهم الله يوم القيامة سبعة . الطواف سبعة أشواط . والسعي سبعة . والجسم نفسه حتي يدخل فيه الروح يمر بسبع مراحل هي السلالة . والنطفة . والعلقة . والمضغة . والعظم . واللحم . والخلق الأخر . وذكر كلمة {الفرقان} في القرآن سبع مرات . وذُكِر {بني آدم} سبع مرات . ومجموع المحارم اربعة عشر . سبع نسباً . وسبع صهراً . حسب سورة النساء . (الأيتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون) . وفي مسألة نفخ الصور ذكرت كلمة نفخ في القرآن سبع مرات . وذكرت الجملة {مخلصين له الدين} سبع مرات . وجملة {يخرج من الظلمات الي النور} سبع مرات . وذكرت كلمة{ لا أقسم} سبع مرات . والعدد سبعة عدد فريد حسابياً . فهو لايقبل القسمة . ولا التحليل الحسابي . وليس له جذر تربيعي تام، وخصوصية العدد سبعة موجودة في الإقتصاد . والرياضة . والمسرح . والشعر . والرواية . والموسيقي . والسينما . وتعتقد العرب أن الفنون الرئيسية سبعة . الشعر القريض . الموشح . الدوبيت . الزجل . الموال . الكان كان والقوما . ومعروف أن المعلقات سبعة . ويذكر أنه كان أمام هبل في جوف الكعبة سبعة قدح . وهي الأزلام . كانت العرب تستقسم بها في كل أمورها.

كان من عادة أهلنا سلق سبع حبات لوبيا. في إناء فخاري صغير.(كوبيد) وكانت المرأة تدعو وتقول(وو نور أوسكون ماجلنون نافروجي) يعني احفظ أهل البيت من أعين الحاسدين. ثم يسكبون ماءها في العتبة من الخارج. في الصباح الباكر. قبل شروق الشمس. وقبل أن يدخل عليهم أحد. وكانوا يسكبون الماء في شكل نصف دائري. وأيضاً كانت البنات الصغيرات يلبسن سلسلة. معمولة من خيط يُربط حول الرقبة. في هذا الخيط تربط سبع حبات من القرض تتدلي علي الصدر. وكان هذه العادة تتم قبل عاشوراء بمدة. وفي يوم عاشوراء وأثناء الإحتفال كنّ يرمين بهذا الخيط مع حبات القرض في النيل. وفي إحتفال عاشوراء كان الرجال يضربون بعضهم البعض. بحبال يشعلون فيها النيران. او بقطع قماش يربطون فيها حجارة. وكانت تحدث جروحات ونزيف دم. كان الناس يصومون نهاراً. وفي الليل يحملون فتة لبن. ويجمعون كل مواليد السنة من الأطفال ويذهبون بهم الي النيل. ويتم الإحتفال علي الشاطئ مباشرة. ولابد للناس بالذات الأطفال. لا بد ان يدخلوا الماء ويبلوا أرجلهم. وكانوا يقولون (اشورا فاطنة تود هي لبلب) ويبدو ان تلك الإحتفالات كانت خلطة مابين "عيد وفاء النيل". بوصفه منبع الخير. وقابل للهيجان وإحداث

الدمار (ومن ثم تتم ترضيته بإلقاء أول لقمة طعام فيه) وعاشوراء الاسلام وذكري مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما.

وايضاً من العادات العجيبة في بعض مناطق النوبة. ان البقرة عندما تلد. يصبح لبنها محرماً علي بيت صاحب البقرة لمدة سبعة ايام. ولذلك فكانوا ينادون علي الجيران لشراب ذلك الحليب. وكان الحاج عندما يعود من الحج يعتكف في بيته سبعة ايام، وأيضاً من العادات التي كانت متبعة. وفي حالات خسوف القمر او عندما (يختنق) القمر، ويسمي(أنتِّي كيقِل دافي). في هذه الأحوال كان الناس يخرجون من البيوت إلى الساحات. ويضعون الحجارة المسماة (أبرتي) وهي (الأثافي)(اللدايات). ويشعلون النار ويضعون فوقها حلل كبيرة ويغلون بليلة اللوبيا (أشرنكين أرجي) بكميات كبيرة ، والبليلة تسمي (أرجي) . يعتبرونها كرامة لله. وفي هذه الأثناء كانوا ينشدون اناشيد دينية. ويغنون. وهذه الأناشيد والأغاني كانت فيها كلمات غريبة وغير مفهومة. كانوا يدعون الله أن يخلّص القمر من تلك الورطة. وما أن ينقشع القمر حتي يذهب الجميع الي بيوتهم وكلهم امتنان لله الذي إستجاب لدعاءهم وتقبل كرامة البليلة.

بالنوبية نقول للرقم سبعة (كُلُدْ) والأرقام كالاتي:.

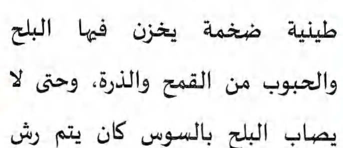
بالمحسية:	بالدنقلاوية:
1 . ويرا	1 . ويرو
2 . أوو	2 . أوي
3 . تسكو	3 . تسكي
4 . كمسو	4 . كمسو
5 . دجا	5 . دجو
6 . قرجو	6 . قرجو
7 . كُلدا	7 . كلدو
8 . إدووا	8 . ادوو
9 . أُسكدا	9 . أسكدو
10 . دمي	10 . دمنو
11 . دملاً ويرا	11 . دمندو ويرو
12 . دملاً أووه	12 . دمندو أوي
20 . دمي أووه	20 . دمن أووي

أما 100 فهي (إميل) وال 1000 (دونال). ويبدو أن أسماء الأرقام لا علاقة لها لا باليونانية ولا الرومانية ولا القبطية. وهذا دليل آخر علي وجود لغة نوبية صرفة إندثرت. بإهمال أهلها.

في معرض بحثي عن الأشخاص المهتمين بسيرة بدين والتراث النوبي، دلني بعض الأخوة على الأخ معتصم عبدالفتاح (كدود)، وفعلاً وجدته، رغم صغر سنه، ثر المعلومات، ملم بالكثير، وله إجتهادات شخصية في تفسير بعض العادات وربطها بالقديم، ومن ملاحظاته الذكية، أن التراث بقي عند النساء أكثر منه عند الرجال، ومن المعلومات المفيدة التي قالها الأخ معتصم أنه قرأ في كتاب إسمه(كوش) لأدريس البنا' ان عمر جزيرة بدين ربما ناهز المليون عاماً، وأن هناك بعض القطع الأثرية التي وجدت في بدين ، مرتبطة مباشرة بآثار كرمة (الدفوفة) وربما كانت الجزيرة لاصقة بكرمة كشبه جزيرة، قبل ان تنفصل وتصبح جزيرة، وتوجد في الجزيرة دفوفات صغيرة، ونحن نسميها (دِفّي)، واحدة في (ابسُقان)، وواحدة في (سابلكي)(ارو سابلن دفي)، ولم تتم اية حفريات في هذه المواقع الأثرية، ولا ندري ماذا تحتها، ومن العادات التي ذكرها الأخ معتصم، انه عندما تمرض إمراة، وعندما تذهب النساء لزيارتها، كن يقلن لها (ماريا مي) وهي بمثابة كفارة او سلامتك، واجتهاد معتصم ان الكلمة ربما تعود الي اسم مريم العذراء، وكأنهن ينادين لها مريم، وكنّ يقلن أيضاً (شركمي)، أستفدت من معتصم كثيراً، فله الشكر والعرفان ، ولا يفوتنى أن أذكر ايضاً الأخ عوض جمعة محمد على ، وهو رجل يتمتع بذاكرة مذهلة ، ومنذ أن كان طالباً فى الإبتدائية كان له إهتمامات أدبية ، طورها كثيراً فيما بعد ، إلاّ أنه فى المرحلة الثانوية ذهب إلى مدرسة صناعية ، وعوض . فى دفعتنا . من أكثر الذين يحفظون الشعر ، وله موهبة كبيرة فى ذلك ، وفى كل مراحله الدراسية كان بارزاً فى حصص اللغة العربية ، وكان من المبدعين فى كتابة الإنشاء ، وقد كلفتُه بجمع بعض المعلومات لهذه الا الإصدارة ، فبذل جهداً مقدراً ، له الشكر والعرفان.



من الأشياء التي لم اذكرها، رغم ما فيها من إشارة عجيبة، أن القساسيب، وهي جمع قسيبة، ونحن نسميها (قُسي) وهي كلمة نوبية ومن الكلمات النوبية الكثيرة التي حُرّفت إلي العربية السودانية . كما ذكرنا في مواضع أخرى من الكتاب عن كلمات أخرى . وهي بمثابة (المطامير)، وهي أواني



طينية ضخمة يخزن فيها البلح والحبوب من القمح والذرة، وحتى لا يصاب البلح بالسوس كان يتم رش



قليل من الرماد (الحبوت) عليه ثم يحكم قفل القسيبة تماماً ، وعندما تفتح المرأة إحدى القساسيب وتأخذ ما يلزمها كانت تعود وتحكم قفلها مرة أخرى ، هذه القساسيب كانت مبنية من الأمام في شكل أقرب لشكل الأنثي بأثداء بارزة، ربما إشارة الي الخصوبة، وكانت تزين برسم في شكل تمساح علي شكل الصليب.

من العادات النوبية القديمة بناء عتبة الباب الخارجي برسومات وزخارف فيها رموز وإشارات مختلطة ، تحيلك إلي كل العصور المختلفة التي عاشتها المنطقة . بعض هذه الإشارات والرموز تبدو واضحة في الصور. وبعضها الآخر لم تعد موجودة . ولا توجد لها صور . مثل قرون الثور ورؤوس التماسيح التي كانت توضع في أعلى العتبة . وقرن الثور كان له إستعمال آخر فعندما يشعرون بوجود ثعبان داخل البيت كانوا يأتون بقرن الثور ويشعلون فيه النار . فتطرد رائحته الثعبان من من البيت.

وكانوا يمتنعون من قتل الثعبان ، في إعتقاد جازم بأن هذا الثعبان ربما كان من الموتى أهل المقابر ، أو شيخ متطفل جاء زائراً في شكل ثعبان . وعليه فيجب التخلص منه دون قتله بإخراجه من البيت بوسيلة ما ليذهب من حيث أتى.



عيناكِ غابتا نَخيلٍ ساعة السَحرْ
أو شُرفتان راح ينأي عنهما القمرْ
عيناكِ حين تبسمان ... تورق الكُروم
وتَرقص الأضواءُ كالأقمار في نهرْ
يَرُجّه المجداف وهناً ساعة السحرْ
كأنما تنبض في غوريهما النجوم
بدر شاكر السيّاب

ما رأيت' وما أكثر ما رأيت، أجمل ولا أحلي من غابة النخيل ساعة السحر، وما أحسست، وما أكثر ما أحسست، بإحساس فيه نشوة و عذوبة بأكثر من غابة النخيل ساعة السحر، إنه عالم آخر، لا يعرفه الا من رآه، إنه تشبيه عبقري من السياب، لعيون ناعسات، ساحرات، يجلبن الهوي من حيث تدري ولا تدري، وتتمتع الجزيرة بوجود كميات كبيرة من النخل، غابات من النخل تحيط بالمزارع والبيوت، بل هي قائمة حتي داخل البيوت، والنخل هو شجر التمر وواحدته نخلة ، والنخيل إسم جمع لا جمع نخلة ، وهو يذكّر ويؤنث فنقول هو النخل وهي النخل ، أما النخيل فمؤنثه .والنخلة شجرة كريمة مباركة، ومن أروع الأقوال في حث الإنسان علي الترفع عن الصغائر، والإتصاف بالكرم والتسامح، هو طلب الشاعر له بالتشبه بالنخيل، إذ قال الشاعر:-

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً يرمي بصخر فيُعطي أطيب الثمر

وقد ذكرت النخيل في 23 موضعا في القرآن الكريم ، وهي شجرة معمّرة وقد يبلغ عمرها 500 عام ، ويبلغ إرتفاعها حتي 30 متراً، والنخلة صديقة البيئة لأن الانسان يستفيد من جميع مكوناتها ، والنخلة هي الشجرة الوحيدة من بين الأشجار التي لا يتساقط ورقها ، وكلّ جزء في النخلة له فائدة عظيمة ، ثمارها ، ليفها ، ساقها ، سعفها ، جريدها ، وخوصها ، ناهيك عن المواد العديدة الأخرى التي تستخرج من ثمار وأجزاء النخلة المختلفة . ثمرها غنيّ بكلّ مقومات الغذاء اللازمة للإنسان ، من ماء ومعادن وأملاح وفيتامينات وسكريات وغيره .و يمكن إعتبار التمور أغنى الفواكه قاطبة في محتواها من الطاقة الحرارية . فحين نجد أن الكيلو قرام الواحد من البرتقال يعطينا /500/ سعرة حرارة والعنب/800/ و الموز /1000/ نجد أن الكيلو قرام من التمر يمد الجسم بما يزيد عن 3000 سعرة حرارية ، ونحن نعلم أن رسولنا الكريم مكث شهرين على الأسودين (الماء والتمر)، وكان أهلنا يعتمدون علي التمر في غذائهم، فهو مع الحليب كان يغنيهم عن كل ترف الطعام الكثير ، بل كانوا اقوياء.



جريد النخل وجذعها يستعملان في تسقيف البيوت ، وللجريد طريقة إعداد معينة قبل إستعماله ، فهو يقطع من النخل ،ويترك حتي يجف،ثم يتم تنظيفه من السعف (كُسي) (KOSSI) وتتم تلك العملية بإستعمال المنجل (ترب) (TIRIB) ثم يربط في مجموعات ويحمل علي الحمير الي حافة النيل ، وينقع في الماء بعد ربطه في أخشاب ثابتة حتي لا يذهب مع تيار الماء ، ويترك هناك لعدة أيام فيتشرب بالماء وينتفخ ويصبح مرنا جداً ، وفي اليوم المحدد للتسقيف، يحمل الجريد علي الحمير الي المنزل المراد تعريشه ، وتكون المروق (الأعواد الخشبية السميكة التي تحمل كل مكونات السقف الأخرى) قد جُهزت فيوضع الجريد فوقها ثم تبدأ عملية نسج الجريد وربطه بعضه الي بعض بإستعمال (السلك) وكانوا في ما مضى يستعملون حبل العشميق، أي المصنوع من الألياف التي تكون بين طيات جريد النخل، وعند النسج يبقي الجريد مرناً حيث يسهل ضمه الي بعض وربطه بطريقة متوازية، وكذلك يدخل الجريد في صناعة الـ (سلِتيَ) (SILATTY) مع الـ (هَسدْ أو الأسَدْ) (hased) وهي سيقان القمح. والـ (سلتي) هو ما يصنع به ألـ (كري) (KERRI) أي الراكوبة ، التي هي التعريشة المصنوعة بالكامل من مستخلصات الأشجار والنبات، ومن الجريد والسعف تصنع أواني منزلية كثيرة جداً ، وكان يستعمل الجريد كذلك في صناعة عناقريب كبيرة ضخمة تسمي (كوسي أنقري) أو (أنقري دول) وهذه كانت أسرة تتسع لعدد كبير من الناس ، ولم ينج الجريد من عبث الأطفال فقد كانوا يشقونه الي نصفين وهو ما زال معلقاً في النخل ثم يربطون نهاية الطرفين ببعض ويستعملونه كمرجيحة (شربيل) (SHERREEL) ، كما أن الأطفال كانوا يصنعون منه أدوات لعب أخري كالـ (تاب) (TAB) أو الـ (كونيسة) وكانوا يصنعون الـ (ترُجي) (TOROGGE) أو الـ (تاجي تاجي) من الـ (هَرو) وهذا الهرو هو الجزء الأساسي الذي يتعلق منه العرجون (السبيطة)، وهو ما يقطع من النخلة عند الحصاد ، ويصنع من الهرو اشياء كثيرة أيضاء وكان الجريد هو أداة التربية الرسمية في البيت والمدرسة فكانوا يستعملونه عصاً لعِقاب الأطفال بدنيا (الجلْد) ، ومع نمو النخلة يقوم المزارع بتقطيع الجريد وما تبقي من الجريد حول ساق النخلة يسمى (أبج أو أُمباج) ويصبح الأبج هذا هو موطئ اليدين والقدمين عند الصعود الى أعلى النخلة لتلقيحها أو لحصاد البلح ، وبعد حصاد البلح يذهب الأطفال وينبشون ما بين الأبج والأمبو بالإضافة الي حلق النخلة (قلُن قلُ)، بين الجريد ، ويخرجون بحصيلة وافرة من البلح الذي أحتجز هناك أثناء قطع العراجين/ السبائط ، وتسمي هذه العملية بالـ (قلُين دولاد) ، وكان الأطفال لا يحملون كيسا ولا إناء لوضع البلح ، بل يربطون وسطهم بحبل أو بشق جريد ، ثم يضعون البلح في (العِب) بكسر الباء ، يعني من فتحة القميص البلدي (العراقي) عند الرقبة ، فيمتلئ الجزء المربوط ويُشكل البلح كرشا كبيرة تفرغ في البيت في (قسيبة) صغيرة مخصصة للطفل ، ومنذ أن يبدأ البلح في النضج ، يبكر الأطفال الي النزول الي جناين النخيل لجمع الـ (توقين فنتي) وهي حبات البلح التي تتساقط من النخيل نتيجة الرياح ، وكثيراً ما



كانوا يساعدون الرياح برمي النخيل بالحجر فتتساقط كميات إضافية . ومن ألياف النخلة الـ (أشمي) (العشميق) تصنع الحبال ، وتكون حبالا قوية لها إستعمالات متعددة ، ومما نذكره أن آباءنا وأجدادنا كانوا يقطعون من الحبل، ويربطون هذا المقطع في الرأس حول الطاقية بطرف واقف إلي أعلي ويشعلون النار في ذلك الطرف فيخرج منه دخان كثيف كان يطرد الـ (الكوتي ماج) أي النمتي ، تلك الحشرة الشتوية التي تتوالد بمئات الملايين، وتسبب تقرحات بليغة في الأذنين خاصة عند الأطفال ، وكان الأطفال يستعملون لبسة إسمها (كتن قبا) وهو قماش شفاف وخفيف جداً كانوا يخيطونه ويغطون به الرأس كاملاً حتي الرقبة، وكلمة (أشمي) النوبية تحولت الي عشميق عند الشايقية ، والذين هم في الأصل نوبة ، وكانت لغتهم حتى نهايه القرن الثامن عشر هى النوبية ، وقد دخلت كلمات نوبية الأصل كثيرة حتي اللغة العربية السودانية. وفي الغناء السوداني الخاص بالوسط النيلي ، وفي شعر المديح عند الشيخ حاج الماحي، وسوف يأتي الحديث عن ذلك. أما الجزء الأساسي من النخلة فهو الـ (أُمبو) (OMBO) وهو الساق ، وللأمبو إستعمالات عديدة ، يدخل الأمبو في تعريش البيوت كحامل رئيسي حيث يرص علي مسافات محسوبة فوق قمة الحائط ثم يأتي السيسبان بفروعه المستقيمة كمساعد للمرق ليتم رص الجريد فوقه ، والأمبو الواحد يشق الي نصفين أو الي أربعة حسب حجمه. تتكاثر النخيل عن طريق الفسائل (الشتول) وتسمي عندنا (اسّي) (assi) والكلمة تعني اصلا النسل والسلالة عند البشر ومن ثم فهي في لغة الزراعة تعني النخلة الصغيرة التي تتفرع عن النخلة الأم وتنمو عند أسفل الساق (جذع النخلة) والفسائل هي الطريقة المثلى والأساسية لإكثار النخيل ، وهي طريقة مضمونة للتكاثر، أما الإكثار عن طريق النوى فغير مضمون النتائج، حيث أن نسبة النجاح لا تتجاوز 20% ، كما أن تمر شجرة النوي يكون تمراً رديئاً يسمي عندنا (بكة) لا يتحول الي تمر، وغالبية شجر النوي تكون (ذكر). وتتلخص طريقة الإكثار بالشتول بالإهتمام بالشتلة وهي ما تزال ملتصقة بالأم، فتُدخل الشتلة في إناء مفتوح من الأعلي والأسفل ، ثم تفصل الشتلة بدرجة بسيطة جداً من الأم ، ويُدخل الإناء بين الأم والشتلة في تلك الفجوة ، ثم يملأ بالتراب ويسقي بالماء من أعلي فتتكون جذور جديدة خاصة بالشتلة وتستمر هذه العملية لمدة طويلة حتي يكتمل نمو الجذور في الفسيلة أو الشتلة، ويعتدل حجمها، وتبقي خضراء خالية من الأمراض والآفات الحشرية ، وعند فصل الشتلة يجب أن يراعي عدم تجريح الشتلة أو الأم ، وهذه الطريقة تمتاز بأنها تعطي ثماراً مشابهة للأم تماماً ، ويتم فصل الفسائل التي عمرها بين 3 الي 5 سنوات عن أمهاتها البالغة من العمر 8 الي 15 سنة وغرسها في موقع مستقل خاص بها. وتتم عملية فصل الشتلة وغرسها في موسم معين وإلاّ فقد تموت، ولتشجيع النخلة الأم علي إنتاج الشتول يتم وضع كميات من التراب حول جذعها ورشها بالماء.



ووقت حصاد البلح(حش البلح) (فنتِنْ مُكَري) من أجمل الأوقات ، تجد الناس كلهم مشتتين داخل غابات النخيل، هناك يقضون يومهم، يجمعون المحصول، والشخص المختص بقطع السبائط يتسلق النخلة بمهارة مكتسبة مع الوقت ، ويكون عادة من (العرب أو الأعراب) المستقرين في المنطقة (وليست لهم عادة أراض أو نخيل خاصة بهم)، ويقطع السبائط ويلقي بها أرضا، فيتشتت التمر، فيقوم الناس بجمعه، ثم ينتقلون الي النخلة المجاورة، وهذا الإعرابي عندما يصل قمة النخلة يختار أكبر سبيطة لنفسه ويقطعها فتقع على الأرض، ويحتفظ له اصحاب النخيل بمحصول تلك السبيطة، ويتعاون الناس مع بعضهم البعض في جمع المحصول، وفي هذه الصورة الطريفة سخلة قررت الصعود لتأخذ نصيبها من من ذلك الرطب الجني . ودائما ما يصادف موسم المحصول موسم الدميرة(الفيضان)، فيأكل الناس الرطب ويشربون من النهر مباشرة، ماء الدميرة الطيني ، وربما اكتفوا بذلك كوجبة كاملة. وكان بعض الناس يأتون الي أماكن الحصاد وهم يحملون شئ يسمي (دُقّة)، وهي شئ كالبودرة مصنوعة من ذرة شامية (مكادة) مطحونة ومحمصة علي النار ومحلاة بقليل من السكر أو الشطة والملح ، يبيعونها مقابل حبات من التمر، فلم يكن هناك قروش (نقد)، وكان البيع والشراء في معظمه بمقايضة السلع بالمحاصيل الزراعية او مشتقات الألبان، وكانوا يبيعون منها بملعقة مصنوعة من سعف النخل، كل ملعقة مقابل حبات من التمر، وفي هذا الموسم يسافر أهلنا من الخرطوم والمناطق الأخري الي البلد، لجمع المحصول من نخيلهم التي يهتم بها، في غيابهم، أفراد موكلون رسمياً من قِبَلِهم، وإذا لم يحضروا، يقوم هؤلاء الوكلاء بإرسال نصيب الشركاء اليهم أينما وجدوا، وهذا الموسم من المواسم التي تشهد حركة كبيرة في البلد، فتجد الناس (طالعين نازلين)، وتجد الحمير تحمل شوالات البلح الي البيوت، وإذا دخلت البيوت تجد البلح مكوما ومنشورا على البروش/ الحصير في كل حوش، وتجد في ركن من الحوش عنقريبا، عليه نوع خاص من الرطب، وهو الذي يصنعون منه العجوة، والعجوة لا تصنع من أي تمر، إنما من أنواع معينة، لا تجف وفي نهاية كل يوم لحصاد التمر، يقوم أصحاب النخيل بتوزيع الصدقة علي من لا نخيل لهم، وهذه الصدقة تسمي (كرامة)، وحصاد البلح يسمي (فنتن مُكَري)، وربما لا يعلم الكثيرون أن النخيل (تُلقّح) ، وعملية التلقيح أو (التأبير) تتم عن طريق الإنسان، فهناك النخل(الذكر) ونحن نسميه (فَنتِنْ أُنْدي)، أو(إدمين فنتي أو أدِم) قال تعالى : (و النخل باسقات لها طلع نضيد) الباسقات جمع باسقة وهي الطويلة العالية، و الطلع أول ما يطلع من ثمر النخيل، و النضيد بمعنى المنضود أو المتراكم بعضه فوق



بعض، وفي الآية الأخري (ونخل طلعها هضيم) أي أن ثمرها نضيج ومتدل لكثرته، وتظهر الأزهار في أشجار النخيل حوالي السنة الخامسة من عمر النخلة ، وهناك طلع نخل ذكر وطلع نخل أنثي ، وطلع الذكر يسمي (شماريخ) عند أهل الخليج ، وطلع الأنثي يسمي (أغاريض) وبوضع الشماريخ الذكرية في أغاريض الأنثى تتم عملية التلقيح (التأبير) ، ولا بد أن يتم ذلك خلال 3 الي 7 أيام من ظهور طلع النخلة ، وطلع النخلة (الأنثي) لا لون ولا رائحة له ولذلك فلا تنجذب إليه الحشرات ، أما طلع النخل الذكر فأبيض اللون مائل الي الصفرة وله رائحة ، ويقال أن لطلع النخل فوائد علاجية للإنسان والله أعلم، ومراحل نضج التمر سبع مراحل كما جاء في كتب السابقين مع إختلاف في الترتيب عند البعض، (طلعٌ وكافورٌ وخلالٌ وبلحٌ وبُسرٌ ورطبٌ ثم تمر).

وتجد من نوع النخل الذكر إثنين أو ثلاثة في كل جنينة، وهو يثمر مبكراً قبل النخلات ، وثمره مختلف ، ويقوم بعض الناس بقطع هذا الثمر وعمل ربطات صغيرة منها ، وتترك هذه الربطات لتنشف ، وعندما تنشف ، تتحول الطبقة الفوقية منها الي بودرة بيضاء ، فيقوم الشخص الملقح بوضع ربطة واحدة او أكثر في كل نخلة عندما تثمر، وتلك البودرة هي التي تلقح، بعد التلقيح يبدأ الثمر في النمو ، وقليلاً قليلاً تكبر حبات التمر ، وتكون غامقة الخضرة ، وتسمي في تلك المرحلة بالـ (قلو) أي الدفيق ، والأطفال لا يصبرون حتي يستوي البلح ، بل يبدءون في أكل القلو (قلّوندسى)، وحتي يؤكل القلو لا بد من (خرط) القشرة الفوقية الخضراء منه بالأسنان ، فللقشرة طعم حادق شديد المرارة ، وهذه العملية كانت تتسبب في تساقط القشر اللين علي الملابس ، والملابس لم تكن إلاّ عراريق بيضاء ، تنصبغ ببقع صفراء من ماء القلو ، وتبقي هذه البقع ولا تخرج من الملابس بالغسيل ، الغريبة أن هذا القلو يأكله الناس ولكنه ضار جداً للبهائم ، وربما أدي الي هلاكها، وإذا لم تلقح النخلة يفسد ثمارها، ولا يتحول الي (كجكول) أو (سبو) يعني رطب ومن ثم لا يتحول الي بلح ، وفي بعض الأحيان اذا كان ذاك (الذكر) في الناحية الشمالية من غابة النخيل، واذا لم يقطع ثمره وترك حتي ينشف، يتم التلقيح عن طريق الرياح، والثمر الفاسد يسمي(بَكّة) والتلقيح يسمي(ايري)، وفي بداية الثمر يسمي (دفّي) ويسميه الشوايقة دفيق، ك (كدي) كديق و(اوري) اوريق، و(أسّي) اسق، الي آخر الكلمات النوبية الكثيرة الموجودة في اللهجات السودانية المختلفة، وهناك أنواع كثيرة من البلح، اشهرها وأحسنها في الأكل والتجارة هو القنديل (أكنديبة) وبعده يأتي البركاوي (ابتي)، والبركاوي لا يأكله الناس عندنا ، إنما يخصص للبيع ، وهناك الأبتي مودا ، الجاو والمودا والدُكني (وهو الذي كان يصنع منه الدكاي)، وهناك المشرق والكلْما وأُرمدية ، ومن ألأشياء التى كان الأطفال يأكلونها الـ



(القُنقلُسى) وهو نوع من الصمغ تفرزه بعض أشجار السنط ، وأيضاً كنا نأكل الـ (بلْبلِكى) ، وهى قناديل ذرة يتحول لونها إلى سواد بسبب إصابتها بنوع من الفطريات



أعود الآن الي الإعرابي الذي وضعته بين قوسين، فهو الذي كان يقوم بعملية التلقيح، وهؤلاء قوم أعراب، ونحن نسميهم (أرابري) والمفرد (أراب)، وهم قوم لا أدري من أين جاءوا، ولكنهم غير نوبة، إستوطنوا في مناطق مختلفة عندنا، وكانت لهم أحياؤهم، وعاداتهم وتقاليدهم، ولغتهم دارجة عربية خاصة بهم، ولم يكونوا يعرفون اللغة النوبية، كانوا يتحدثون بها بطريقة مضحكة جداً، وفي النهاية أصبحت لغتهم خلطة طريفة ما بين النوبية والعربية، وإذا أراد أن يقول أن المفتاح في الباب يقول (الكُشر في الكُبِد) الكُشر يعني مفتاح، والكبد يعني الباب، والي وقت قريب لم يكن هناك تزاوج بينهم وبين النوبة، وكان كثير من النوبيين يستعففون منهم، ولا يأكلون منهم أو معهم، وجاؤوا بجمالهم، ومارسوا الأعمال الشاقة، كتلقيح النخل وحصادها، ونقل المواد والبضاعة بالجمال، وكانوا أثناء رحلاتهم بالجمال يغنون ويترنمون بأغان لم نكن نفهمها، وهي الحداء، كما كنا نسمع منهم الدوبيت، وكانوا دائماً يتباهون برجولتهم وقوتهم . وفي مناسبات الأعراس كانوا يمارسون (البطان) أي ضرب السوط ، وحتي العريس منهم كان يشارك، ويرتبط الجلد بالمرأة والمحبوبة . فهنالك في كثير من الأحيان حوار غير منطوق بين المعشوقة والرجل الراكز للبطان(الجلد) تمنع التقاليد من البوح به صراحة ، لكن يترجم ذلك الحوار في صورة الجلد مُعبرة في شجاعته وفروسيته وتحديه للكل من أجلها ، وكانوا يحلفون بالطلاق علي عكس النوبة الذين لا يحلفون بالطلاق علي الإطلاق، والي وقت قريب كان يعتبر من العيب أن يعمل النوبي (جمالياً)(أبالة) والجمل نسميه (كَمْ)، أما الآن فإنهم تقريباً ذابو في المجتمع النوبي وإختلطوا بهم ، وحدث التزاوج ، وأشتغل النوبة (جماليين أبالة) ، وتلك سنةالحياة ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وكان منهم رجال عقلاء، إعتمد عليهم النوبة في كثير من الأعمال، مثل موسي أراب، وعيسي أراب، إشتهروا بالشجاعة والشهامة والأمانة، وكان عيسي بصيراً، يعالج الكسور، وكان عبدالرحمن أراب مشهوراً، إذ كان أول من تخصص في زراعة الخضروات فقط ، وقد كانت الخضروات دائماً تزرع داخل المزروعات الرئيسية، وهي القمح والذرة، أو يخصص لها مساحة صغيرة، أو تزرع علي حافة الجدول، او علي التكمد، أما أبناؤهم فأختلطوا معنا، وأجادوا النوبية، ودرسوا معنا في المدارس، وأغتربوا معنا في الخليج ودول الغرب.

كان الناس. وما زالوا يتبادلون المنافع في (بدين سوق) ، وما بدين سوق سيداتي سادتي إلا سوق بدين. بلغة العاربة والمستعربة. ونحن في الأساس قوم أعاجم. وليست اللغة العربية لغتنا الأم. ما جاءتنا إلا عن طريق المثاقفة التاريخية المحتومة. وما تعلمناها إلاّ في المدرسة. عن طريق القراية أم دق ، أما الجزيرة (بدين) فتتحدث اللغتين النوبيتين بفخر وإعتزاز. وسوق بدين (سوق الله أكبر) ككل الأسواق. فيه ما في كل أسواق الدنيا. فيه الصدق. وفيه الغش. وفيه الإستهبال' فيه من إذا إكتال علي الناس يستوفي. وإذا كالهم أو وزنهم يُخسر. فيه المشاغلة والمغازلة والتحبب والإستعراض. فيه الشخصيات الظريفة والطريفة. فيه الدرويش والمجنون. وأنا ما كنت مسواقاً. ولم أكن أحب السوق. ولا أحبه الي يومنا هذا. وليس في الأمر زهد. للحسرة. ولكن لفَلَس صاحبي وصادقني وزاملني ولازمني منذ الطفولة. فأنا وهو (ترعرعنا ونشأنا ندائد). ولجيوب مقدودة. غلبني سدّها. فوسعت قدّها فلم تعد تمسك لا ديناراً ولا دولاراً. في المرات التي كنت أزور فيها السوق كنت أذهب وأجلس بجانب جدتنا حبوبة سلّومة رحمها الله رحمة واسعة. وكانت حبوبة سلومة (كنا نناديها بـ. يوة سلومة ـ) كانت تجلس بجانب إبنها خالي جمعة أحمد همت، الذي كان تاجراً بالسوق، وهي والدة أخوالي الأعزاء مهدي، جمعة ، إدريس ، عبدالقادر،عبدالهادي،عبدالعال،وفاطمة أحمد همت، كنتُ أذهب اليها فترحب بي. وتأخذني بالحضن، وتتعطف عليّ بـ (الفرّيني) أبو قرشين. فأشعر بالغني وتعمني الفرحة. والفريني كانت عملة معدنية صغيرة جداً. تساوي قرشين. أربعة تعريفات. والتعريفة كانت متداولة في ذلك الوقت. (الكلام ده ما بعيد يا جماعة. قبل كم وأربعين سنة بس). وكنت أشتري عيشة بتعريفة. وطعمية بتعريفة. ثم بطيخ بقرش وأذهب إلي أهلي أتمطي. ولم يكن من عادة أهل بدين أن يفرشوا الأكل في السوق. بل كان يأتي آخرون من كرمة لتلك المهمة. كان في السوق رجل أزهري. كان يدرس في الأزهر ثم أصابه مس كلكي ، فعاد وأستقر به المقام في البلد. كان ياتي الي السوق ويقيم ركن نقاش ممتع. يفتي ويفسر الايات والأحاديث كما يريد. وله تفسيرات غريبة لبعض آي القرآن . وإذا غالطته كان يشتمك بكلمة إشتهر بها فيقول لك (أسكت يا لوح). وكان جميل الخط ، يمسح الأرض ويكتب عليها. أما أعجب ما في السوق فكانت الجزارة. عجل صغير يذبحونه ويقطعونه فيتكأكأ عليه أهل السوق جميعاً. في زحمة لا رحمة فيها' كل يريد نصيبه من ذاك (الأرخ) او (الكُسُو) اللحم العجالي الطازج. يقفون أمام الجزار ويتصايحون في وقت واحد. هذا يطالب الجزار بنصف كيلو. وتلك تطالب بربع كيلو(ابقا ربو وبكا). وصاحب ميسرة يطالب بكيلو كامل. والجزار يعمل كالساحر. في خفة عجيبة جداً يقطع قطعة لحمة من هنا وقطعة من هناك. ثم عظم وشحم. ويضع كل ذلك في الميزان. وقبل أن يستوي الميزان وبسرعة خاطفة يرفع اللحمة ويلفها لك فلا تعرف ماذا أعطاك الا بعد أن تصل البيت. وأثناء ذلك. عندما تقع يده علي لحم طري يقطعها ويلفها في فوط مشبوهة. ويدسها تحت الدرج. ذلكم للخواص. ولكل إمرئ خواص. وفي كل ذلك يطلق الجزار عبارات بذيئة. ويتحدث بلغة غير نظيفة. لغة لا يستطيع

إستعمالها خارج الجزارة، ولكن تلك محميته، يقول من داخلها ما يريد، فلا يحاسبه أحد ، كأنه في الهايد بارك حيث كل حديث مباح.

وكان أهل بدين يذهبون أيام الأحد الي سوق كرمة النزل . كانوا يسمون كرمة (اورتا) وسوقها (أُرتان سوق) ، و(اورتا) هذه محرفة من (الأورطة) . يعنى معسكر الجيش . لأن الجيش التركى فى طريقه إلى الخرطوم نزل بكرمة ، ومنها أخذت إسم كرمة النزل . وكان سوق كرمة النزل هو السوق الرئيسي للمنطقة كلها، يأتيه الناس من الشمال والجنوب، والذهاب الي سوق كرمة النزل بالنسبة لأهل الجزيرة كان فيه نوع من التنزه والتغيير، وكانوا يستمتعون تماماً بتناول وجبة في مطاعم السوق، او تناول (حاجة باردة) من المحلات القليلة التي بها ثلاجات، كمحل محمد سعيد كرشاب، أو تناول شراب ساخن كان إسمه (سحلب) من الأكشاك المنتشرة علي شاطئ النيل، وكانت كرمة النزل علي صغرها هي المدينة، وكان بها مركز بوليس فيه شرطة لا عمل لهم، يجلسون تحت الأشجار، يشربون الشاي، كنا نمر بكرمة في (الخميسيات)، في طريقنا من و إلي البرقيق، حيث درسنا الثانوية العامة، ففي عام 1972 إنتقلنا، من مدرسة شبة الإبتدائية الي البرقيق الثانوية العامة، كأول دفعة من شبة، إنتقلت دفعتنا بكاملها إلي البرقيق، وقد تكونت الدفعة من:

حسب الحروف الأبجدية، والإعتذار مُقدّماً إذ سقط أحد الأسماء من الذاكرة:

الجزولي سعدالدين محمد

إبراهيم محمد إبراهيم (رحمه الله)

تاج السر عكاشة إدريس

سليمان عبدالواحد

(صلاح) صالحين محمد حامد

صلاح علي حسين ابوضروس (رحمه الله)

علي عبدالرحيم علي بشير

عبدالله عثمان محمد عادل

عبدالعظيم عبدون عبدالقيوم

علي محمد إبراهيم

عبدالله علي عمسيب

عوض جمعة محمد علي

عبدالرحمن عبدالرحيم محمد خير

عبدالله محمد عبدالله

عبدالله حسن نوري

فاروق عبدالقادر فضل

فاروق جمعة محمد علي

كمال سيد أحمد عثمان

محمود محمد طه

محي الدين عبدون طه

محمد لطيف عبدالواحد

محمود حسن محمود

محمد عثمان خليفة (رحمه الله)

ميرغني إدريس كبوش

محمود عوض الله طه

محمد أحمد فرح ترجمان

محمد لطيف عبدالواحد

محمد عبدالجليل أحمد

مصطفي إسماعيل عثمان

مصطفي عبدون (سُكراب)

محمد فقير علي

وهناك وجدنا أمامنا الكثيرين من أبناء بدين من المدرستين الشمالية والجنوبية في الفصول المختلفة. كانت المدارس الإبتدائية حتي ذلك الوقت تسمي (أولية). والثانويات العامة تسمي (وسطي). كنا في رابعة أولية نحس بالفخر والإعتزاز لأننا ممتحنون للوسطي. وكانت للمدارس الوسطي في ذلك الزمن (شنة ورنة). وكان طلبة الوسطي يتبخترون في الحي كأنهم في أكسفورد. ونحن في ذلك الحلُم الجميل. إذا بالدكتور محي الدين صابر يخرج علينا بإختراعه سيئ الذكر (السُلم التعليمي). والذي بموجبه تم إضافة فصلين دراسيين في الأولية لتصبح 6 سنوات. وتصبح المدرسة (إبتدائية). فتبخرت أحلامنا. وأجبرنا للبقاء في مدارسنا حتي العام الدراسي السادس. بعدها ذهبنا إلي البرقيق لنجدها وقد أصبحت (ثانوية عامة) بدلاً من وسطي. كان السلم التعليمي كارثة من كوارث السودان الكثيرة. فهناك سياسات تضر بالبلد وأبنائها لفترات طويلة. والسلم التعليمي هو ما أوصل التعليم في السودان إلي هذا المستوي المتدني الذي نراه الأن. وعلي كل حال ذهبنا إلي البرقيق بكل ذلك التشوق لإرتياد مرحلة اخري. وبكل ذلك الإحساس المتضارب عن السكن في الداخليات. والتعرف علي (غرباء) ليسوا من بدين. وكان للكثيرين منا هي المرة الأولي التي نخرج فيها من الجزيرة. فاذن هو مشروع اغتراب وابتعاد عن الأهل. ذهبنا ونحن نحمل شنط الصفيح. بها قليل من الملابس مع الرداء (الشورت) والقميص الكاكي. وكثير من البلح والفرقوش. والبرقيق تقع

جغرافياً في منتصف الطريق تقريباً. ما بين كرمة النزل وأرقو. جنوب كرمة البلد. شرق جزيرة أرتقاشي. وهي منطقة زراعية اساساً. بها احد اقدم واكبر المشاريع الزراعية في الشمالية. وكان بها ايضاً المستشفي الرئيسية للمنطقة بأكملها. من فَرَيق شمالاً. الي حدود دنقلا جنوباً. والمدرسة. والمشروع الزراعي. كلها منشآت (استعمارية) من ايام الإنجليز. وكانت الفصول. ومكاتب المدرسين. والداخليات. والسفرة أي قاعة الطعام. وبيوت المدرسين مبنية بتخطيط رائع. الفصول ومكاتب المدرسين من الناحية الجنوبية. وامامها ساحة لطابور الصباح. وبها مسرح الجمعية الأدبية. وعلي البعد من هناك تري المستشفي بحديقتها الجميلة. ومن خلف هذه المباني من الناحية الشمالية. (فَسَحَة) كبيرة. بها ميدان كرة السلة أو الطائرة. لا أذكر. وبها ايضاً مبني صغير مكون من غرفة وبرندة وحمام. كان هو سكن المدرس المشرف والمسئول عن الداخليات. وفي نهاية هذه الفسَحة من الناحية الشمالية توجد مباني الداخليات. وخلف الداخليات ميدان كرة القدم. في مساحة كبيرة مفتوحة علي الفضاء. وفي نهاية الداخليات من الناحية الشرقية الجنوبية يوجد المطبخ والسفرة. وكانت السفرة تقدم طعاما شهيا ومتنوعا لا يحلم به الطلبة الأن . وكان عمُ خميس من اجود الطباخين. شيف درجة أولي . ثم الطباخ عبدالرحمن . ومن إنجلترا كان يأتينا سردين إنجليزي عجيب. كنا نأخذ منه الي البيوت في الخميسيات. أشهي سردين ذقته في حياتي. ومن أيام الأكلات المفضلة في الأسبوع يوم الفاصوليا. أما أكثر الأيام الذي كان يتذمر فيه الطلبة فكان يوم (البراطيش). وهو الباذنجان الأسود المطبوخ بالبصل والصلصة . كنا ندخل السفرة متدافعين بالمناكب . وناكل واقفون ومستعجلون . ليس لأمر ينتظرنا بل لنسبق الاخرين ببضع لقيمات . والجوع كافر . والطعام قليل . والقاعة ملأي باصحاب الكروش الكبيرة . من الذين كنا نراهم عمالقة . نحن أصحاب الأجسام النحيلة . أن تأدبنا عدمونا اللقمة . فكان لا بد من (الهاميد) . ومن الطرائف هنا أننا بعد التخرج من البرقيق تفرقنا في المدارس الثانوية العليا. ومن الذين ذهبوا الي كورتي. الأخوة فاروق جمعة. وعبدالرحمن عبدالرحيم. وعندما سافروا الي كورتي توقفوا في احدي المحطات. ودخلوا احد المطاعم. وطلبوا اكلاً. ومن ضمن ما عدده لهم الجرسون كان الـ(مُسقّعة). وبدا لهم الإسم شهياً. فطلبوه. فإذا بالجرسون يأتيهم بالبراطيش. الذي تركوه خلفهم في البرقيق.

وعلي مسافة ليست بعيدة من مبني المطبخ والسفرة تري الترعة. الجدول الرئيسي للمشروع الزراعي. ومن الناحية الغربية للداخليات بفاصل صغير توجد بيوت المدرسين. وكانت المدرسة بكل ملحقاتها تحتل مساحة كبيرة جداً. ولذلك لم يكن هناك سور. وعدم وجود سور يعطي المرء احساس بالحرية المكانية. وعدم الإختناق. عرفت الان أنهم بنوا سورا شوهوا به منظر المدرسة. بين المدرسة والمستشفي من الناحية الغربية. كان يوجد سوق البرقيق. الذي لم يكن يهمنا منه غير مطعم واحد. هو مطعم عمُ عثمان . كنا ناكل عنده الفول. صباحاً او مساءً. اذا سمحت الإمكانية المادية. التي لم تكن تسمح إلاّ قليلاً. ثم مطعم عبده قسم . ودكان مسكن الذي كنا نشتري منه الطحنية . كنت أتمني أن أزور المدرسة لو سمحت الظروف. وقد أصابني حزن شديد حين رأيت صور المدرسة في المنتدي. فقد تهالكت تلك المباني الجميلة. وأصابتها آفة الإهمال وعدم الصيانة. وتلك مصيبة من مصائب الحكومات السودانية.

مركزية أو ولائية . فهي لا تعرف شيئا يسمي صيانة، رغم أن الصيانة هي روح المباني، وبدون الصيانة تهدم، ولكن لا حياة لمن تنادي.

عندما كنا (نسافر) من جزيرة بدين الي البرقيق، كنا نضرب مشواراً طويلاً (كداري)، الي مشرع البنطون في سقدان، مقابل كرمة النزل، ولكن في سنتنا الأخيرة في البرقيق دخلت البكاسي بدين، وأصبحت تأخذنا من أمام بيوتنا الي مشرع البنطون في معدية كرمة، ثم من كرمة النزل، كنا نأخذ البكاسي، ومن أشهر سواقي البكاسي في ذلك الوقت، محمد محمود، فضل أحمد ، كلنتون ،ومحجوب، وفي مشرع البنطون ومحطة البكاسي كان يلتقي (الجمعان)، أولاد مدرسة البرقيق، وبنات مدرسة كرمة البلد، هناك كان يتم كثير من حديث العيون، ذو الشجون، والفنون، والفتون، العيون الحوراء، والساحرات، والفاترات، والناعسات، والماكرات، والكحلاء، والدعجاء، والنجلاء، وعيون المها، والتي تجلب الهوي، من حيث يدري الطلبة ولا يدرون، كلها كانت تنطق وتتحدث، وتبتسم وتضحك وتقول، وتفيض في القول، والأفواه صامتة.

أشارت بطرف العين خشية أهلها :...: إشارة محزون ولم تتكلّم

فأيقنت أنّ الطّرف قد قال مرحباً :...: وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيّم

وكانت تتم محاولات يائسة لتبادل الرسائل، القصيرة منها والطويلة، الجيدة والركيكة ، الصادقة والخبيثة ، ثم تتحرك البكاسي نحو الجنوب الي المدارس، البنات داخل البوكس ، والأولاد (مسطحين) ، ثم تنزل البنات في كرمة البلد ، قبل البرقيق، فيحس الشباب بفراغ البكاسي، وفراغ الأفئدة والقلوب، وتبدأ أحلام اليقظة، والإنتظار المشوق للخميسيات القادمة ، وزيارة البيت والحلة في هذه الخميسيات كانت مهمة ، إذ تؤدى إلى تغيير إيجابى فى نفسيات الطلبة ، فقد كانوا ينعمون بدفئ الأسرة ، ويستمتعون بأكل البيت ، ويعودون ببعض الزاد من قرقوش وبلح ، وربما ببعض الزاد العاطفى من مقابلة حبيبة القلب.

كان مدير المدرسة علي ايامنا في بداية السبعينات هو الأستاذ فؤادعثمان الشيخ ، من أبناء دنقلا ، وكان قد أنجب ثلاث بنات، وكان يتفاءل بذلك، ويردد حديث الرسول(ص)، ويقول أنه سوف يحسن تربيتهن ليدخل الجنة، وكان للأستاذ فؤاد نكتة واحدة يرددها كلما طلب منه إلقاء نكتة ، والنكتة تتحدث عن جبن اليمنيين رغم أنهم ليسوا بجبناء ، والنكتة تقول (خرج أربعين يماني لإصطياد الأسد ، فقابلتهم الهرة بنت عم الأسد ، عشرة هروا ، وعشرة فروا ، وعشرة طلعوا الجبل ، وعشرة جابوا الخبر) ، جاءنا بعده الأستاذ الأمين علي إسماعيل مديراً ، أما وكيل المدرسة فقد كان أستاذنا الكبيرعبدالفتاح محمود، ، وكان هو المسئول عن الطابور، وكان عبدالفتاح مهيباً له شخصية طاغية، إلاّ أنه واجه إمتحاناً صعباً من الطلبة، ففي إحدي السنوات، ونحن علي أبواب الإجازة السنوية، إنطلقت إشاعة تقول أن وزارة التربية والتعليم سوف تمد السنة الدراسية، فأتفق الطلبة علي الخروج في مظاهرة إحتجاجية، وفي صباح اليوم الموعود، وبعد الإنتهاء من إجراءات الطابور طلب الأستاذ عبدالفتاح من الطلبة التوجه الي الفصول، فما كان من الطلبة، حسب الخطة، وتحت دهشة الأستاذ وعدم تصديقه، إلاّ الدوران والتوجه إلي

خارج المدرسة. فنادي الأستاذ للناظر (يا فؤاد حصّل أولادك). في ذلك اليوم توجهنا من البرقيق إلي كرمة النزل، مشياً علي الأقدام. ومن كرمة النزل مروراً بالبرقيق دون التوقف بها واصلنا إلي أرقو. ثم عدنا أدراجنا من أرقو إلي البرقيق. وفي كل هذا تلقينا الدعم الأكيد من الأهالي في كل المناطق. فزودونا بالأكل والشراب. ولكن الطريف أننا إكتشفنا في اليوم التالي أن الإشاعة لم تكن صحيحة، وأن الوزارة بريئة من الإتهام.

وكان من المدرسين المحبوبين لديّ مولانا الأستاذ محمد الحسن محمد موسي. من خريجي الأزهر. وكان يُدرسنا العربي والدين . وأتذكره تماماً وهو يكتب في السبورة بيده الشمال (أكلَ أحمدٌ الكمثري) ثم يطلب من الطلبة الإعراب. رحمه الله. والأستاذ عبدالله علي (سخانة) . ولا اذكر ان جاءنا بهذا اللقب. ام اننا من اكرمناه به. كان استاذ لغة انجليزية ممتاز. كان اسمراً قصيراً. يدخل الفصل وهو يحمل سوطاً اطول منه. كان يُدَرس المادة بعشق شديد. يضع اختبارات اللغة بصورة جميلة. مختصرة وشاملة في نفس الوقت. كان يوزع ورقة الإختبار علي الطلبة. وبينما هم مشغولون بالإجابات. يتجول في الفصل. ويراجع عمل كل واحد. ولم يكن يتحمل ان يخطئ الطلبة في الإجابة. فيصلح لك الإجابة الخطأ. كانت مادة اللغة الإنجليزية هي مادتي التي احبها. للأستاذ عبدالله التحية والتجلة اينما كان. ان كان ما زال علي قيد الحياة. وله المغفرة. اذا انتقل الي رحمة مولاه. ثم الأستاذ ابراهيم تركمان . والأستاذ جمال عباس. من كرمة البلد. كان ذو شعر كثيف. والأستاذ الأمين حسن خيري. أيضاً من كرمة البلد. مدرس لغة عربية. كان يلبس نوعا معينا من الجلاليب الملونة. كان جهوري الصوت. ساخراً. والأستاذ محمد ساتي زيادة. من جزيرة أرتقاشه. عرفت انه في مكان ما في امريكا. له التحية . والأستاذ محمد ابوبكر. والأستاذ عبدالمعطي هاشم . أستاذ الجغرافيا. تكرم عليه الطلبة فلقبوه ب(كوناكري). وهي عاصمة غينيا وميناؤها الرئيسي . وكان الأستاذ ينطقها بطريقة بدت للطلبة طريفة فسموه بها . والأستاذ عبدالماجد سيد طاهر. من خريجي الأزهر. من وادي خليل. علي ما أذكر. والأستاذ محمد عبدالقادر قورتي. والأستاذ يوسف الفرجابي من أبناء السليم. والأستاذ عبدالمجيد محمد عبدالمجيد. من أرقو. كان هو المشرف علي الداخليات. وكان رغم قصره رياضياً ممتازاً. والأستاذ سليمان محمد علي. من أبناء مشروع البرقيق. والأستاذ جعفر قمر . والأستاذ عبدالرحمن عبدالرحيم . أما من أبناء بدين الكثيرين في المدرسة فكان هناك طالب إسمه هاشم. لا أذكر إسمه بالكامل. كان ضخم الجثة. طويلاً. عريض (المنكعين) كان بعض الطلبة ينادونه بصيغة الجمع. (هاشمقو). ومن الطلبة المميزين والمتفوقين جداً. الأخ محمد عثمان سلامة. من أبناء أرتقاشه. تنبأ له الجميع بأول السودان. كان حاد الذكاء. متوقد الذهن. اول المدرسة دون منازع. كانت فيه إشارات لبعض القلق. وعدم الإستقرار النفسي. كان كثير الحركة سريعها. لا يطيق الجلوس لمدة طويلة في مكان واحد. انتقل الي مدرسة دنقلا الثانوية العليا. ثم تحت ظروف غامضة انهي حياته انتحاراً.

ومن زملائي في البرقيق صديقي مولانا القاضي الشاعر الأديب عبدالإله زمراوي. وكنا صغار الحجم . نجلس في الصف الأول. ولعبدالإله أهل في بدين. فوالدته لها الرحمة من أسرة (حاكم) المعروفة في سقدان. كنا نحن نسكن في الداخليات. بينما كان هو (خارجي) من كرمة البلد. يأتي الي المدرسة ممتطياً حمارته البيضاء (الداراوي) وكانت

حمارة مولانا أثيرة لديه، يطلق عليها أوصاف عديدة . وكان يشرب لبنها لعلاج (الكتكوت)، تلك الكحة العجيبة، التي لم تكن تعالج إلاّ بلبن الحمير. وكلنا تجرعنا تلك الكأس الحمارية الشافية . وكان معنا من كرمة البلد أيضاً الإخوة محمد عبدالرحمن لونا، لاعب البرقيق الشهير، وعبدالحفيظ مظلوم، ومحمد حامد أبوبكر، وأنتقلوا معنا إلي عبري، وتوفيق حسن، وجمال عبدالناصر، وخالد فرجة، وقرشي محمد يعقوب، ونورالدين مدني، وعثمان الأمين، وأخرون نسيت أسمائهم، وكان معنا من أبناء المشروع الأخ مصطفي نصر. وكان من أصدقائي، كان شَعره لا هو سبيبي ولا هو قرقد، وكان يبذل جهده ويقضي الوقت الطويل وهو يحاول تصفيفه، وعندما يأتي الي المدرسة يقول له الطلبة (ياخي ما تسرح شعرك ده) فيمتلئ غيظاً، أما أشهر لاعبي كرة القدم فهم محمد عبدالرحمن (لونا) ومحمد سيداحمد وكامل محمد سعيد وكمال حسن فرح والسر حسين ومحمد أحمد فرح (بوكو) . ثم ثنائي الغناء إمام وجعفر وكان هناك عمنا صديق الطلبة السقا عثمان ، والفراش كمال محمد أفندي.

أما مستشفى البرقيق فقد كانت من أولى المستشفيات (الدرجة أولى) التى أنشئت فى الشمالية كلها ومعها مستشفى دلقو . مستشفى متكاملة مبنية على طراز إنجليزى فاخر . كانت مكتملة الأقسام . بها ممرضين وممرضات مدربون . عنابر نظيفة . طعام مجانى ذو قيمة غذائية عالية . غرفة عمليات مكتملة . نظام دقيق . أطباء فى منتهى التأهيل والمعرفة . وأشهر الأطباء الذين مروا على المستشفى هو الدكتور أمين صقر . طبقت شهرته آفاق المنطقة كلها . حتى أنّ كثيرا من المواليد سموا بإسمه تيمناً . ومن العاملين فى المستشفى فى ذلك الوقت عمنا السمانى كنة . رحمه الله . وقد كان رجلاً أمِيّاً أو شبه أمِيّ . تعلم الطب بطريقة ما . وعمل صيدلياً يصرف للناس الدواء . وكان يقوم بقراءة الوصفة (الروشتة) المكتوبة بتلك المصطلحات الإنجليزية الصعبة . وكان هناك أيضاً من الممرضين (جمعة جابر) الذى كان فناناً يعزف العود ويغنى . وكان فى المستشفى جمع من الدراويش وفاقدى العقل . منهم الولى سانى فقير. الذى كان يهتم بالزراعة والأشجار فى حدائق المستشفى . وكان أثناء عمله يترنم بأغانى وردى فى صوت جميل.

في عام 1975 م . ونحن نأمل بالسفر جنوباً للإلتحاق بالثانويات العليا، أراد حظنا أن نسافر شمالاً، إلي عبري، فتجمعنا من الجزيرة، أنا، الجزولي سعدالدين، صلاح توفيق، محمود توفيق، يحي فضل حاكم، عبدالخالق ساتي، حسين أحمد فضل، ميرغني إدريس، ومعنا من دقرتي محمد محي الدين زمراوي وعبدالرحمن حسن أبوزيد. سبقني الجميع في الوصول الي المدرسة، التي كانت جديدة، وكنا أول دفعة فيها. تأخرت أنا قليلاً نسبة إلي مرض والدي رحمه الله، إذ بقيت معه في مستشفي البرقيق، ووصلت الي عبري بعد أسبوع أو أكثر من إنتظام الطلبة، ورغم عدم رضانا في البداية عن المدرسة إلاّ أننا أحببناها وقضينا فيها سنوات جميلة، وجدت الداخلية مليئة بطلبة نوبيين من كل قري النوبة، ومعهم عدد بسيط من غير الناطقين بالنوبية، أذكر منهم إثنين من أبناء الشوايقة، عوض .... ومحمد سليمان، وأثنان من كرمة النزل، كان هؤلاء غريبي اللسان، خاصة أخونا الشايقي محمد سليمان، الذي كان يحس بغربة حقيقية، كان يتغلب عليها بالدندنة بالشعر والغناء الشايقي، أما بقية الطلبة فكانوا نوبة أقحاح، جعلوا من حوش الداخلية حلقة دائمة للغناء النوبي، وتدخين القامشة، والشغب والمطاردات التي تستمر طول

الليل، إستفدنا كثيراً من وجودنا في عبري في جانب الثقافة النوبية، خاصة اللغة، والتي وإن كنا نتحدث بها إلاّ أنها تختلف قليلاً عن لهجة حلفا والسكوت، ورغم أن الداخليات كانت في طرف المدينة الشرقي، إلاّ أنها لم تكن تبعد عن النيل كثيراً، شأن مدن وقري النوبة الملتصقة دائماً بالنيل، فكنا نتمتع بالذهاب والتجول في الشاطئ، كما أن سوق عبري لم يكن بعيداً، فتري الطلبة في مجموعات صغيرة، ذاهبين الي السوق أو عائدين من الشاطئ، بينما تري الآخرين مجتمعين في ميدان كرة القدم، لمشاهدة عبدالحي ولونا وختمي، الذين كانوا يتفننون في اللعب ، ويجتمع البعض الآخر قرب دكان عمنا (عباس) ، لست متأكداً من الإسم ، وكان تاجراً ظريفاً ، إذا قلت له عندك طحنية يقول لك عندي جبنة ، وإذا قلت له عندك صابون يقول لك عندي (ظَهَرْ) ، لم يكن يحب أن يقول لا ، بل يعطيك خيارا آخر.



نذكر من أساتذتنا الكرام، الأستاذ سيف، لا أذكر إسمه بالكامل، جاء ليُدّرس اللغة الفرنسية، التي كانت إختيارية، فتكاسل أبناء النوبة عن إختيارها، بحجة أنهم لم يتعلموا حتي اللغة العربية بعد، فلا حوجة لهم بالفرنسية، فحمل الأستاذ سيف متاعه وغادر المدرسة بعد أسابيع من بداية السنة، ونذكر الأستاذ محمد محمود، والأستاذ مصطفي توفيق، والأستاذ الشاعر الرقيق سراج سيد حمدون، إبن جزيرة أرنتي قرب عبري، الذي كان يسمعنا من الشعر النوبي ما يشجينا، فنحفظ منه علي الفور، والأستاذ محمد عثمان، أستاذ التاريخ، والأستاذ محمد وهبة، أستاذ العربي والدين، كان من تبج علي ما أذكر، وكان هناك مدرسان مصريان، وواضح أنهما كانا من أبناء القاهرة، إذ أعتبرا عبري منطقة شِدّة بالنسبة لهما، كانا كمن ينحت الصخر، ولا بد أنهما كانا يرددان أبيات الطنطاوي القاسية في حق السودان ، ثم نذكر الأستاذ الناظر قاسم (الصورة)، لا أعتقد أن أحداً من الطلبة كان يعرف إسمه بالكامل، ولا أعتقد أن أحداً من الطلبة يمكن أن ينسي الناظر قاسم، فهو من الشخصيات التي تبقي في ذاكرة من يعرفه، كان مصري اللهجة، ساخراً من كل شئ، درّسنا الجغرافيا، وكان يسخر من أسماء المدن بما فيها الخرطوم، ثم نذكر السَقّا عبدالحميد، الذي ترقي فتحول إلي طباخ، كان فناناً، يهوي الرسم، كانت له لوحات بديعة، ونذكر أيضاً الصول (اعتقد) أن إسمه كان عثمان . كان مرحاً يتضاحك مع الطلبة.

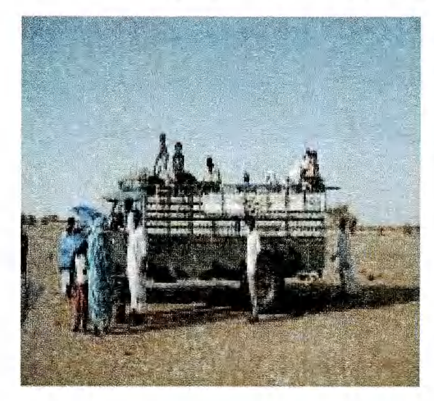
كانت مجموعة بدين بقيادة الأخ عبدالخالق ساتي، وكان عبدالخالق مرحاً يحب الحياة بصورة عامة، طيب القلب، عطوفا، إلاّ أنه كان سريع الإنفعال، جاهزاً للعراك عند الإستفزاز، له كبرياء لا تقبل الضيم ، يذكرني بالممثل المصري القدير محمود المليجي، لا أدري لماذا يخيل إليّ أنه كان يمكن أن يقوم بأدوار محمود، كان من أصدقائه في المدرسة طالب من جزيرة (بنا) إسمه نصرالله، كان عبدالخالق كلما يلتقيه يناديه بصوت عالي (نصرالله وأجرك علي الله)، بعد التخرج تاه في الخرطوم قليلاً، ثم إغترب في السعودية مدة من الزمان، وإنتهي به الأمر مقيماً في بدين، ولكنه

إرتحل إلي الخرطوم حيث يقيم الأن. أما حسين فكان ودوداً. صديق الجميع. لا يتعاطي السجائر ولا أي مكيفات أخري. ميرغني إدريس كان فيه غموض ليس من السهل كشفه. كان له مجلس معروف أمام باب الداخلية. من مجلسه ذاك يكشف المدينة كلها. ويأتيك بالأخبار. أما الجزولي سعدالدين فلم يفهم أحد في المدرسة إن كان هو جادا أم هازلا. متدينا أو غير متدين. له ضحكة مجَنْجِهة. يجاملك بها ويذهب. وقد أتي الحديث عنه في مكان آخر. أما صلاح توفيق فهو صديق العمر. وهو شقيق لي لم تلده أمي. وصلاح سريع التعارف. يستطيع خلق صداقات مختلفة مع الناس من الجنسين في وقت وجيز. كان من ظرفاء الداخلية. عمل في بنك النيلين لمدة وجيزة. ثم إنتقل الي بنك الراجحي في مدينة الرياض بالسعودية. حيث ترافقنا منها فى رحلات ترفيهية لبعض الدول . كان صلاح من المميزين في الوظائف المصرفية . لو إستمر فيها لكان له شأن أخر . ولكنه إختار الهجرة الي بلاد العم سام. وأتخذ من (philly) مقراً دائماً . ولكن لا دوام لشئ فى الدنيا . فجاءنا فى شيكاغو عندما كنا بها . وكعادته ففي فترة وجيزة تعرف على المدينة أكثر من المقيمين بها سنوات . إذ يمتلك ما يسمى فى الإنجليزية (Sense of Directions) وهى موهبة خاصة لا يتمتع بها الكثيرون . وأنا من هؤلاء الكثيرين والحمد لله . فأنا أضيع داخل شقتى . إذ يتعسر علىّ معرفة غرفة النوم من المطبخ . وباب الشارع من باب الحمام . وبعد 20 سنة خدمة فى تورنتو تختلط علىّ الإتجاهات . فأذهب جنوباً حين مقصدى الغرب . وشرقاً حين مقصدى الشمال . ولكن لله درّ العلماء . فلهم فى كل حوجة دليل . وفى كل زنقة مخرج . فهم لم يتوقفوا بصناعة الطائرات التى إنزلقنا بداخلها فطارت بنا إلى ما وراء البحار . ولم يتوقفوا بصناعة العربات التى نمتطيها صباح مساء لنجوب بها شوارع المدينة . بل صنعوا لأمثالنا من التائهين أجهزة صغيرة . ركّبوها لنا فى العربات فوق رؤوسنا المعطوبة لنستدل بها فى معرفة الإتجاهات . ولما كثرت أسئلتنا لهم عن وصف الأماكن وخريطة الوصول إليها. ولمّا وجدونا تائهين فى طرقات الأرض ومناكبها التى سرنا فيها نأكل من رزق الله . صنعوا لنا الـ (Global Positioning System) ثم إختصروا لنا الإسم إلى حروف ثلاثة فقالوا الـ (GPS) فقلنا الجى بى أس . وما أدراك ما الجى بى أس . هو يا سيدى (نظام تحديد الموقع العالمى) والجهاز الذى نستعمله نحن هنا هي النسخة الأمريكية . فإذا أردت السفر من شقتى (المتواضعة) فى شرق تورنتو إلى صديقى الأثير علي عبدالرحيم فى بيته الأنيق فى جنوب غرب فلادلفيا فما علىّ إلا أن ألقن هذا الجهاز العجيب عنوان علي . فيتولى هو (الجهاز وليس علي) رسم الخريطة أمامى . ثم تنبيهى بالصوت إلى كل ملف ومفترق . ثم إذا أخطأت بعد ذلك فبسرعة خارقة يعيد الجهاز رسم الخريطة من جديد ويواصل تنبيهى بالصوت . وللجهاز الأمريكى مماثل فى أوربا والصين والهند واليابان . ومن القليلين الذين يملكون تلك الموهبة أيضاً الأخ محسن عبد اللطيف . إذ يتمتع بذكاء حاد فى حفظ الأماكن والإتجاهات وإستعمال الـ (Common Sense) فى التوصل إلى إختصار المسافات . وفى شيكاغو عشنا حيناً من الدهر فى صحبة إخوتى الأخيار . صلاح ومحسن وعمر عبدالرحيم وعادل توفيق والصادق فرحان وصلاح على (صلاح مشو) الرباطابي الذي (تدنقل) بمحض إرادته. أو محض ارادة (القسمة) . ومحمد حسن زبير(محمد لطيف).

وصلاح توفيق إبتني له عمارة في الشجرة حيث يسكن مع أسرته الكريمة ، أختى العزيزة خالدة وأبنائى رماح ومريم ومشكاة ، ثم إنتقل بأسرته إلي مدينة أيوا (IOWA) حيث يقيم الآن.

وعودة إلى عبرى ، ومحمد محي الدين زمراوي ، أخ وصديق ، رجل عفوى نبيل، ذو إبتسامة دائمة، لا أذكر أنه تشاجر مع أحد أو أخطأ على أحد ، هو أيضاً عاني غربة السعودية لسنوات، ثم هاجر إلي أوربا حيث تنقل في دولها، ثم إستقر به المقام في بلاد الخواجات، أما عبدالرحمن فلم يكن كثير التداخل مع الطلبة، تركناه في الرياض وهاجرنا، ولم أعرف عنه بعد ذلك، أما محمود توفيق فقد كان من عقلاء القوم، بدأ مراحله الدراسية بمدرسة الأستاذ عبدالجبار في مدينة كوستي ، ثم إنتقل إلي مدرسة بدين الجنوبية الأولية ، وهي من المدارس الأولية العريقة ، ثم مدرسة كرمة النزل الوسطي (كرّوج) ، ثم زاملنا في عبري ، ومحمود من الذين يملكون رؤية واضحة وقراءة صائبة لمساحات المستقبل ، كما أنه من الذين يحددون الهدف ويسعون إلي تحقيقه بتأنٍ محسوب ، إلتحق بمصنع سكر عسلاية موظفاً ، وإلتحق في نفس الوقت بجامعة القاهرة فرع الخرطوم طالباً من منازلهم ، وتولي شقيقه صلاح إرسال المذكرات له في مقره في عسلاية ، تخرج من الجامعة وتدرج في سلك الوظائف في المصنع حتي أصبح المدير الإداري ، ثم إنتقل إلي مصنع سكر حلفا مديراً إدارياً تم الجنيد حيث يعمل الآن ، خلال هذه السنوات الطويلة كان محمود عضواً في الهيئة النقابية بالمصنع ومسئولاً للإتصالات ، ثم أصبح رئيس الهيئة النقابية من 89 إلي 1993 ، يشغل الآن عضو النقابة العامة للصناعات الغذائية والسكر ، متزوج وأب لثلاثة أولاد وبنتين ، أما يحى حاكم فقد كان مجتهداً طموحاً ، وإلى ذلك كان وسيماً جريئاً مغامراً ، تملّك قلوب الحسان فى عبرى ، إلتحق بجامعة القاهرة فرع الخرطوم ، درس القانون ثم إلتحق بسلك القضاء ، وترقى فيه ما شاء الله له أن يترقى.

الي الجنوب من عبري توجد قرية تبج، والي الجنوب منها قرية كُيكّة، وهي بلدة الشاعر النوبي الكبير الفاتح شرف الدين، صاحب قصيدة (قسكون دوّي) و (جاين جدو)، وهي قرية الشيخ المشهور محجوب شيخ ادريس، وبها قبته ذات الطراز العجيب (الصورة) ،وهي قرية البروفسر نجم الدين محمد شريف، عالم الآثار، الذي كان أول مدير للهيئة القومية للمتاحف والآثار، كما أنها قرية الأستاذ محمد ميرغني مبارك الذي عمل وزيراً للخارجية في عهد مايو.



في سفرنا إلي عبري كنا ننحشر فى باطن اللوارى من كرمة النزل ، والطريق غير معبد ، واللوارى سلحفائية السير ، وعلى غير عادة السلحفاء فهذه اللوارى تئن وتتوجع ، تقطع المسافة بين كرمة وعبرى فى يوم ونصف ، وهى مسافة لم يكن ليزيد زمنها من

الساعات عن عدد أصابع اليد الواحدة إن صلح الطريق ، ولكن من يصلح الطريق؟ ، كان يقود هذه اللوارى مجموعة من السائقين المعروفين ، أذكر منهم عوض محمد عيسى ومحمد عبدالله ودهب ، وكانوا كعادة سائقى اللوارى والبصات يحبون مهنتهم ويعشقون عرباتهم عشق إمرؤ القيس لفرسه ، ولو قدر لهم لقالوا فى (الحديد) أعجب مما قاله الجاهليون جميعاً فى النوق والبعير ، فهم يهيمون فى حب هذه العربات حتى أنهم يجملونها بكل زينة لامعة ، ويكتبون عليها من العجائب والغرائب جُمل فى منتهى الطرافة ، بعض هذه الجمل أبيات من أغان شائعة ، وبعضها الآخر أمثال متداولة ، ولكن بعضها تركيبات لفظية ما أنزل الله بها من سلطان ، ولهؤلاء السائقين طريقة خاصة فى الكلام ، وهم يتعمدون القسوة البالغة فى التعامل مع (المساعدين) ، الذين يبذلون جهداً خارقاً فى التعامل مع هذه العربات فى حالات (الوحلان) فى الرمال أو الطين ، ويبقى لكل سائق طريقة خاصة أيضاً فى العزف على (البورى) ، فلهم نغمات وألحان حصرية ، تبقى ماركتها مسجلة بإسم السواق المعين ، وفى زمان مضى كانت لهم مكانة مميزة فى المجتمع ، إذ بلإضافة إلى ما مثله معرفة السواقة فى ذلك الوقت من تميّز ، فالعمل كسائق لورى أو بص فى الطرق الطويلة كان يضفى على الرجل قدرا إضافيا من الرجولة فى نظر الناس ، فهو دليل على القوة العضلية والقدرة على مجابهة الصعاب.

وفى السفر بالبصات كان الرجال عادة يتركون النساء داخل البص ويصعدون إلى السطح حيث المكان أريح ، وفى سطح البص إلى الجهة الأمامية توجد (التندة) ، والتندة عادة مكان مريح جداً إذ يمكنك أن تمد رجليك ، وهى مكان يعده المساعدية لأنفسهم ، ولكنهم يضيفونك إمّا لصلة رحم أو إذا إستشعروا فيك خيراً ، وهذا الخير (خشم بيوت) ، ربما تمثل فى (نص عرقى) أو (سجارة بنقو) أو ربما شراب فاخر من (خمر النصارى) كتلك التي ذاقتها بت مجذوب في موسم الهجرة إلي الشمال وقالت لمحيميد تفاصيل ما إمتنع الناس عن قوله ، وكان السائقون والمساعدية يعدون الطعام



بأنفسهم فى الغالب ، يحملون معهم اللحم والبصل بكميات كبيرة، ولا يدعون إلى (الحَلة) إلاّ أهل الخير ممن سبق ذكرهم ، و رغم خشونتهم وبطولاتهم إلاّ أنهم كخلق الله جميعاً يصيبهم الخوف والتردد فى بعض الأحوال ، ومثلاً فقد كانوا يتشاءمون من وجود إمرأة واحدة فى البص أو اللورى ، لدرجة أنهم كانوا يرفضون التحرك بإمرأة واحدة ، فلا بد من إمرأتين أو أكثر ، كما كانوا يتشائمون من وجود سرج بين العفش ، ومن الغرائب أنهم كانوا يتفاءلون برؤية الثعلب ، وكانت لهم حكاوى كثيرة عن (أبو فانوس) ذلك الجنى الذى كان يتعمد تتويه السائقين فى الخلاء ، ومن أشهر السائقين فى خط الشمالية على عهدنا بالسفر طه و سيداحمد نورا ، وكان السائقون يعملون كسعاة بريد ، إذ يحملون الرسائل من وإلى البلد.

كان فيما مضي هناك سكة حديد بين حلفا وكرمة، أنشأها الأنجليز أثناء حملة دنقلا في 1897 م. كانت محطاتها الرئيسية من الشمال هي حلفا وصرص وعكاشة وكوشة وأبوصاري ودلقو وكرمة . ثم تعطل ذلك الخط لسبب ما . فنهب الناس قضبانها الحديدية وسقفوا بها بيوتهم.

.7.

قم للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

يقال أن في هذا البيت خطأ نحوي، فلا يجوز استعمال أن مع كاد، ولكن مالنا وما لذلك، المهم أن شوقي أمير الشعراء، والبيت يعجبنا .

أُنشئت أُولي مدارس الجزيرة في العام 1943، وهي مدرسة بدين الأولية بنين، ولكن الخال عبدالقادر همت، والذي كان دفعة (1948)، يقول لي انه يعتقد ان المدرسة أقدم من ذلك، ربما من الثلاثينيات، و أول مدير لهذه المدرسة هو الأستاذ عبدالمجيد قناوي، ثم الأستاذ سيد امام، وهم من ابناء دنقلا المدينة، ثم الناظر مصباح محمد إبراهيم، من أبناء شيخ شريف، وله صلة قربي باسرتنا، إذ أن جِدتنا الكبيرة (ستنا حسنين باباتود) من شيخ شريف، وكانت المدارس قليلة في المنطقة، ومدرسة بدين احدي اقدم المدارس، كان يأتيها التلاميذ من مناطق المحس المختلفة، في فترة لاحقة سُميت المدرسة ببدين الشمالية، لأنهم أنشأوا مدرسة ثانية سموها بدين الجنوبية، أما المدارس الوسطي في ذلك الوقت فكانت تنحصر في حلفا . أرقو . القولد . ثم مروي ، وفي مرحلة لاحقة عبري ودلقو والبرقيق، ويحدثني عبدالقادر عن مدينة حلفا في ذلك الوقت، فلا أجد الاّ الحسرة تملأني، إذ كانت المدينة في مستوي القاهرة وأجمل، بها شوارع مسفلتة تغسل كل يوم، بها مدارس من طوابق عدة، بها فنادق راقية، سامح الله من أغرقها، وتأملوا معي هذه الصورة ، فهي لفندق في وادي حلفا في الثلاثينات من القرن الماضي.



في منتصف الخمسينات تم إنشاء مدرسة بدين الأولية بنات، إحدي أقدم مدارس البنات في المنطقة، ثم توالى إنشاء المدارس، بالعون الذاتي في الغالب، حتي بلغ عددها العشر مدارس من كل المراحل، وقد تم إنشاء هذه المدارس تحت إشراف أساتذة كرام من أبناء البلد، ومن الشخصيات التعليمية الكبيرة ممن تركوا أثر في البلد نذكر علي سبيل المثال لا الحصر، الأستاذ عبدالله صالح، من سقدان، ويرجح أنه كان أول من عمل مدرساً من أبناء بدين، وهو خريج معهد المعلمين بالدويم، جاء ليدرس في بدين في عام 50 او 52 ، ثم عثمان كنة من سلنارتي ونصر محمد نصر (شرابين) من آل فقير نسي، ثم الأستاذ عبدالله حسن، كان مدير مدرسة شبة الإبتدائية علي أيامنا، وشبة الإبتدائية أنشئت في العام 1966، ولكننا بدأنا سنة أولي في العام 1965 في منزل عمنا حسن عثمان عنبوج، (حسن برسي) الذي تصدي لمسألة التعليم فتبرع ببيته حتي يتم بناء المدرسة، رحمه الله، كان شخصا مثيراً للجدل، ولكنه كان هميماً بمشاكل الناس وهمومهم العامة، وبذل مجهوداً كبيراً في خدمة مشروع شَبّة وتشي الزراعي، وكان أول مدرس درّسَنا في سنة أولي إسمه احمد حاج، من (بُلّنارتي) ولا اذكر أنه إنتقل معنا إلي مباني المدرسة الجديدة، وكان

فراش المدرسة هو محمد عوض الله طه، وكان مدرساً أكثر منه فراشاً، إذ كان يقوم بتغطية الحصص مع الأستاذ أحمد، وفي عام 1966 م إنتقلنا الي مباني مدرسة شبة الإبتدائية بنين . كما سماها من بنوها بالعون الذاتي ، وهو الإسم الذي خرّجتْ به المدرسة عشرات الدفعات . وذهبتُ في إجازتي الأخيرة لأجد (الحيكومة) وقد غيرت إسم المدرسة ، وهو تصرف أحمق . فيه ظلم كبير للبلدة وأهلها . ولكن متى لم تكن الحيكومات ظالمة؟؟؟.

الأستاذ عبدالله حسن شرفي، كان مدير المدرسة، درّسَنا الحساب في سنة رابعةً، كان يلقي الدرس مصحوباً بهيبة من شخصيته الطاغية فلا ننسي ماقال، وكان بكوراً يأتي الي المدرسة في وقت مبكر من الصباح، فيأتي التلاميذ الي المدرسة ويدخلون في هدوء وأدب خوفا من الأسد الرابض بالداخل، والأستاذ علي أدم، كان يأتينا من شياخة سقدان، طويلاً مبتسماً، كان جميل الخط . يكتب ملخصات من الدروس بخط عريض ويعلقها علي حائط الفصل، والأستاذ عثمان حمزة، من مشروع البرقيق، كان يلقي الدرس بهمة، ثم لا يهمه بعد ذلك أن تفهم أو لا تفهم، تكتب الواجب أو لا تكتب، ويقول لك بالنوبية إذا ما داير تكتب ما تكتب، وعندما يأتي المفتش الي المدرسة، كان في فصله يختار أسهل الدروس، درس يعرفه كل التلاميذ،(يُفوِّتْ) به المفتش، والأستاذ محمود عثمان من سقدان أيضاً، كان يأتي الي المدرسة علي عجل، ويذهب علي عجل، وكأنّ التدريس بالنسبة له عمل إضافي، والأستاذ عبدالفتاح فرج، كان يلقي الدرس وكأنه في مسرح، يرفع صوته ويخفضه، يستعمل يديه ورجليه حتي يفهم التلاميذ، والأستاذ خيري ملجاب، درسنا الدين في سنة تانية، ولا انسي أنه كان يبدا في قراءة سورة المسد وهو ما يزال في مكتبه وبصوت عالي(تبت يدا..) فنردد نحن في الفصل، وحتي يصل الفصل من المكتب نكون قد سمّعنا السورة، والأساتذة عبدالله بكري ومحمد فرح، من جزيرة صاي، وكان عبدالله بكري يأتي الي المدرسة ويستصحب ابنته معه، وكان يتحدث بلكنة مصرية، وعندما يقول الرقم 11 كان التلاميذ يضحكون ، لأنه كان يقول(حضاشر)، والأستاذ كامل الجندي الذي عندما نقلوه الي سالي وفي حفلة الوداع القي قصيدة لا أعرف إذا كانت من تأليفه، وقد إعتذر للتلاميذ عن اي عنف استعمله مع بعضهم، وطلب منهم العفو، ومن عادة المدرسين أن لا يعتذروا، وخليل أبوزيد، من كرمة النزل، كان سريع الحركة والمشي، وكان يدخن بشراهة، والأستاذ عبداللطيف علي الرشيد، أعتقد أنه كان من مشو، كان هادئاً، قليل الكلام، خافض الصوت، كان الوحيد من المدرسين الذي يصلي الصبح حاضراً في المسجد، والأستاذ جعفر أبوبكر، محمي ساخر، لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب، من اشطر المدرسين الذين مروا علينا، ولكن كان له عقاب مؤذ، وكان يدخن علي طريقة المدرسين الخاصة فيشهيك السجائر، والأستاذ محمد نصر من أكد، أزهري تطبّع قليلاً ببعض الصفات المصرية، والأستاذ محمد عثمان علي ، ثم الأستاذ عبدالشكور جبارة، مدرس لغة عربية من طراز ممتاز، (في الصورة مع زوجته الودودة مديحة في منزلهم العامر بكرمة البلد علي أطراف مشروع البرقيق) . ذهبت لزيارته في إجازتي الأخيرة مع بعض الزملاء فاستضافونا بكرم وحفاوة ، وقضينا معهم وقتاً ممتعاً ومفيداً ، فما زال الأستاذ هو نفسه ، لا يمكن أن تجلس معه ولا تستفيد من حديثه.

كانت له إهتمامات أدبية وثقافية فإستفدنا منه الكثير، درّسَنا صفيّ الخامس والسادس، ولا ننسي تلكم السنتين الإضافيتين في الإبتدائية، إذ جاءنا السلم التعليمي سيئ الذكر، ونحن في سنة رابعة، نتأهب بكل الشوق لدخول الوسطي، وبدلاً من الإنتقال الي الوسطي جلسنا في نفس المدرسة سنتين إضافيين علي مضض، وفي تلك المرحلة جاءنا الأستاذ عبدالشكور، وفي تلك الفترة المبكرة تعرفت منه علي نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس، ويحدثني صديقي علي عبدالرحيم أنه قرأ (البؤساء لفكتور هوقو) في ذلك الوقت عند عبدالشكور، والأساتذة، في مراحل معينة من عمر الطلبة، هم الذين يكونون الطلبة، هم الذين يجعلون الطالب يحب المادة أو يكرهها، كما أن قوة شخصية الأستاذ أو ضعفها، وتمكنه من المادة أو عدم تمكنه، ينعكسان علي المادة نفسها، كان عبدالشكور يحبب المادة إلي نفوس الطلبة، وكان يحفظ الكثير من الشعر ويستشهد به فنُعجب بذلك، وعلي ذكر الشعر فلا يفوتني أن أذكر الأستاذ عبدالعزيز صالح، رحمه الله، هو لم يدرّسْنا في المدرسة، أنما كنا نلتقي به فى الإجازات بعد أن إنتقلنا الي الثانوية العامة، كنا نجتمع علي ضوء القمر في ميدان المدرسة فنستمع منه، كان جيد الحفظ ، ممتع الإلقاء، وهو من الذين حببوا إلينا الشعر، كان يضع (سفته) الضخمة ومن فوقها يلقي علينا شعر المتنبي، فنشتهي السفة ونشتهي الشعر :.



عيدٌ بِأَيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ :::: بِما مَضى أَم بِأَمرٍ فيكَ تَجديدُ

أَمّا الأَحِبَّةُ فَالبَيداءُ دونَهُمُ :::: فَلَيتَ دونَكَ بيدًا دونَها بيدُ

لَولا العُلا لَم تَجُب بي ما أَجوبُ بِها :::: وَجناءُ حَرفٌ وَلا جَرداءُ قَيدودُ

وَكانَ أَطيَبَ مِن سَيفي مُضاجَعَةً :::: أَشباهُ رَونَقِهِ الغيدُ الأَماليدُ

لَم يَترُكِ الدَهرُ مِن قَلبي وَلا كَبِدى :::: شَيئًا تُتَيِّمُهُ عَينٌ وَلا جِيدُ

يا ساقِيَيَّ أَخَمرٌ في كُؤوسِكُما :::: أَم في كُؤوسِكُما هَمٌّ وَتَسهيدُ

أَصَخرَةٌ أَنا مالي لا تُحَرِّكُني :::: هَذي المُدامُ وَلا هَذي الأَغاريدُ

إِذا أَرَدتُ كُمَيتَ اللَونِ صافِيَةً :::: وَجَدتُها وَحَبيبُ النَفسِ مَفقودُ

ماذا لَقيتُ مِنَ الدُنيا وَأَعجَبُها:::: أَنّي بِما أَنا باكٍ مِنهُ مَحسودُ

أَمسَيتُ أَروَحَ مُثرٍ خازِنًا وَيَدًا :::: أَنا الغَنِيُّ وَأَموالي المَواعيدُ،

ومن الأساتذة ذوي المكانة الكبيرة في الجزيرة، الأستاذ عثمان سيدأحمد كُنّة، ويرجع له الفضل في توسيع وتجديد المدرسة الشمالية، وتم ذلك عن طريق العون الذاتي، وقام تلاميذ المدارس من أنحاء الجزيرة بعمل جبار أشرف عليه الأستاذ عثمان بجدارة، وبتعامل أبوي كبير مع التلاميذ ، وقد أورد الأستاذ جعفر عباس أن إنتقال الأستاذ

عثمان كنة إلى مدرسة بدين شكل قفزة كبرى فى المسار الأكاديمى للمدرسة ، وقال الأستاذ جعفر أن مدرسة بدين كانت لسنوات سبقت وصول الأستاذ عثمان كنة والأستاذ نصر محمد نصر لا تتمكن من إدخال أى طالب للمرحلة المتوسطة ، وقد تزامن وصول عثمان مع وصول أول ناظر نوبى للمدرسة هو الأستاذ سيدأحمد ضرغام ، وفى أول عام بعد وصول الأستاذ عثمان تمكنت المدرسة من إرسال 19 تلميذ دفعة واحدة إلى البرقيق وأرقو ، بعد ذلك تم نقل الأستاذ عثمان إلى معهد الحفير مشو العلمى ، وهناك ايضاً تمكن فى اول عام له من إرسال 10 تلاميذ إلى المدارس المتوسطة ، والأستاذ نصر محمد نصر (شرابين) وهو من آباء التعليم ورجالاته فى المنطقة كلها ، رحمه الله ، وقد رثاه بعض تلامتذته بشعر لا بأس به ، وأيضاً الأستاذ عبدالفتاح محمود، والأستاذ عبدالفتاح محمد علي، الذي عمل فترة مديراً لمدرسة بدين الثانوية العامة، والأستاذ عبدالمجيد فضل حاكم، وعبدالعال محمد فرح، والأستاذ الظريف حسن عبدالرحمن، صاحب التعليقات الساخرة، والأستاذ الصارم أُرصد أحمد، والأستاذ خيري ملجاب، والأستاذ محمد سعيد حسنين، وأستاذ الإنجليزية الممتاز عبدالعال همت، وأساتذة اللغة العربية مولانا الأستاذ محمد الحسن محمد موسي، الذي درسنا اللغة العربية والدين في البرقيق الوسطي، والأستاذ إبراهيم محمد فقير، والأستاذ محي الدين زمراوي، كان هؤلاء من الجيل الأول من مدرسي بدين، وقد ذكرتهم علي سبيل المثال، ولمن لم تسعفى الذاكرة بإسمائهم العتبى ، كلهم أساتذة أجلاء، ننحني إحتراماً لهم، وقد جاء بعدهم عدد هائل من أبناء بدين من الجنسين، عملوا في مجال التدريس، ولا يسع المجال لذكر أسمائهم، لهم التحية والتقدير ، ومن الشخصيات التى كان لها وجود رئيسى مؤثر فى المدرسة على أيامنا العم إدريس كبوش ، وهو أول فراش فى المدرسة ، وجاء بعده إبنه المرحوم عبدالمجيد إدريس ، وأيضاً نذكر عمنا جلال وديدى ، الذى كان يبيع الأكل ، ثم التاجر الكبير صالح أبوضروس وزوجته ، فقد كانوا خير عون للمدرسين فى مدهم بالطعام والشراب عند الحوجة أو عند قدوم بعض الضيوف إلى المدرسة ، ثم مجلس الآباء ، الذى تكون من عدد من رجال العمل العام فى شَبّة ، لجميعهم التحية والإجلال ، وكانت المدرسة عند إفتتاحها تحفة رائعة مقارنة بالمبانى الأخرى ، وكانت الجدران مطلية بالجير الأبيض الناصع ، وفى ساحتها الداخلية حديقة جميلة بها ممرات مزينة ، وكانت ارضية الفصول مبلطة بالأسمنت ، ومقاعد التلاميذ وطاولات المدرسين جديدة تلمع فى لونها الأخضر.



في عام 1983 تم إنشاء مستشفي حديثة في الجزيرة بتمويل أساسي من أبناء الجزيرة المغتربين في دول الخليج والذين تبرعوا بسخاء كعادتهم دائما، وأول طبيب قام بإفتتاح وإدارة هذه المستشفي هو الدكتور كمال أحمد حسين الصائغ، وقامت المستشفي علي أكتاف رجال أفاضل من أبناء الجزيرة، رجال أفنوا أعمارهم في خدمة الجزيرة، لمن توفي منهم الرحمة، ولمن بقي طول العمر والعافية، أما قبل ذلك، وقبل ان تنشأ بعض نقاط

الغيار. فكان في الجزيرة مركز صحي واحد. فيه مساعد طبي وممرض.أما أشهر المساعدين الطبيين بالنسبة لدفعتنا فقد كان عمنا صندلوبة. كان يداوي الناس بالكلام الطيب أكثر مما يداوي بالأدوية . خلق وأسرته علاقات طيبة مع أهل الجزيرة وأمتدت هذه العلاقات حتي الان . ومن الصدف العجيبة أن إبنته تسكن الان في البيت المجاور لبيت أخي الشقيق صلاح توفيق . والحقيقة أن المركز كان غير مكتمل ولم تكن هناك أدوية كثيرة. بعض القطن والشاش وشئ مثل الديتول، وحبوب السلفا، وشراب المزيج، وحقنة البنسلين، هذا كل ما كان متوفرا. كان شراب المزيج هذا دواءٌ لكل داء، وكان الناس يطمئنون الي تشخيص الحكيم إذا قرر لهم حقنة، ولكن إذا لم تكن هناك حقنة فيتململ الناس ويعودون الي بيوتهم وهم غير مقتنعين بالعلاج، وربما أعادهم أهل البيت الي العيادة مرة أخري ليطالبوا الحكيم بحقنة بنسلين، وكان العلاج يعتمد علي براعة المساعدين الطبيين أكثر منه علي الأدوية.

ومن المرضين الذي خدموا في البلد عبدالدائم حسن عثمان برسي، والمرحوم أخونا حسين عبدالرحمن آدم، والذي توفي شاباً، رحمه الله. كذلك عمنا عباس كمبال، وعبدالهادي عكاشة رحمهم الله . جاءنا كثيرون من خارج الجزيرة كمدرسين ومساعدين طبيين وأطباء وممرضين. والحقيقة أن كل المهنيين الذين كانوا يأتون الي الجزيرة للعمل كانوا (بركلسون) هناك. يجدون تلك البيئة الهادئة وجو الجزيرة المنعش واهلها الطيبين. فيطيب لهم المقام وتحلو الحياة. ومنهم من (عمل الحالة واحدة) وتزوج من الجزيرة وأستقر بها.

كانت الرعاية الصحية فيما مضى متطورة اكثر منها الان . فبالإضافة إلى الإهتمام الذى كان يجده الإنسان فى نفسه كان هناك إهتمام كبير بالبيئة . فقد كان لكل منطقة عامل صحة يعمل على رش البيوت والمزارع وبرك المياه الواقفة بالمبيدات الحشرية، وكان عامل الصحة يستعمل مادة الجمكسين . ولكن هذه المادة منعت من الإستعمال عالمياً إذ ثبت أنها يمكن أن تتسبب فى أمراض خبيثة.

وعلى ذكر مرافق التعليم والصحة والخدمات الإجتماعية فلا بد أن نذكر شخصية بدينية بقدر ما كانت مثيرة للجدل فهي شخصية تفانت في خدمة أهل الجزيرة . وهي شخصية عمنا <u>محمد عثمان فقير (موسوليني)</u>

وموسوليني هو أحد أميز الشخصيات في تاريخ الجزيرة، وكان به ولع شديد للعمل العام من خلال حب مفرط للقيادة والزعامة . وبمؤهلات فطرية من دهاء وذكاء عرف بهما، وكان شيخ خلوة يعرف القراءة والكتابة. والذين يعرفون القراءة والكتابة كانوا قليلين في جيله . ورغم أنه في أحيان كثيرة كان يتعامل مع الناس بترفع (المثقف) كما كان يعتبر نفسه (مع فارق معني الكلمة). ومع أن ردوده للناس كثيراً ما كانت تعبر عن ضيق ساخر بجهلهم، إلاّ أنه كان محباً للدعابة ويتمتع بحس فكاهي رفيع، وكما وصف أستاذنا جعفر عباس فقد كانت ضحكته مجلجلة، تسمع في الأحياء المجاورة. ومن فكاهاته التي كان يدخلها في الوعظ الديني أنه وعظ الناس مرة وقال لهم أن مصافحة النساء لا تجوز. فسأله أحدهم قائلاً: ليه ما قلتا لينا الكلام ده من زمان؟؟. فقال: (أيقن إنقا أليلن إرس) يعني أنا ذاتي عرفت الحكاية دي يا دوب.

كان مهتما بالتعليم فتصدي له. أورد الأستاذ جعفر عباس هذه الفقرة في حديثه عن الرجل في منتديات أبناء بدين :
(وموسوليني هو أول من انتقل بفكرة الخلوة التقليدية (المسيد) الى روضة يتعلم فيها الصغار مبادئ القراءة والكتابة وعلم الحساب.. ولعل قليلين يعرفون ان تلك الروضة ذات الامكانات المتواضعة (كانت الكتابة غالبا بمسح التراب/الرمل ثم الكتابة عليه) كانت نواة مدرسة بدين الجنوبية.. فقد نجح موسوليني في اقناع السلطات بتحويل روضته التي كنا نسميها "ميمد اسمانتو". ونقول عن الملتحق بها "ميمد اسمنتولا دافي".. نجح في اقناع الجماعة في المديرية بالدامر بترفيعها الى مدرسة صغرى.. ذلك ان بعض تلامذته استطاعوا الدخول في الصف الثالث في مدرسة بدين الابتدائية (الشمالية) لاحقا متخطين سنتين دراسيتين.. وكان اول مدرس ببدين الجنوبية يأتي معينا من قبل وزارة المعارف (التربية) يسمى بشير . وانتقلت مدرسة موسليني من المبنى المتواضع الواقع خلف بيته الى غرفة في الداخلية التابعة للمدرسة الابتدائية وبعدها صارت هناك ضرورة لنقلها الى مبنى مستقل فكان ان تم تشيد مدرسة بدين الجنوبية) (ووقفة عند حقيقة ينبغي ان يفتخر بها كل بدناوي وهي اننا رواد في العمل التعاوني الناجح والفعال.. بعد الشفخانة ومدرستي بدين الشمالية والابتدائية للبنات لم تقدم اي حكومة خدمة لجزيرتنا).. كان موسوليني مهندس مشروع شَبَة الزراعي ومشروع جزيرة عثمانارتي واسمه الرسمي "مشروع بدين ص" والطاحونة التي تقع جنوب المدرسة الجنوبية وافتتح اول بقالة تعاونية شرق بيته بمحاذاة الجدول الذي يفصل منطقة المدارس القديمة عن خميس إكي.. وهو الذي سافر الى الدامر (رئاسة المديرية الشمالية) وأتى بتصديق مدرسة بدين الاولية للبنات وطاف على البيوت ليقنع الأباء والأمهات بتسجيل بناتهم فيها) إنتهي حديث الأستاذ جعفر عباس .

كان عمنا موسوليني ((سقراطياً. مشاءً)). يمتطي حمارته ويطوف بالبلد ويقف هنا يتحدث . وهناك يلقي ببعض الفكاهة، وهنالك ببعض التوجهات والمواعظ . وكما أنه تصدي للتعليم تصدي أيضاً للمشروع الزراعي، فكان من المؤسسين لمشروع شَبَة وتشي الزراعي وقضي علي رئاسته مدة من الزمن. ومما ينقل عنه أنه وبعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية أبرق لملك بريطانيا مهنئاً بإنتصار الحلفاء، وعندما تلقي الرد من جلالة الملك جمع الناس وقال لهم أنه لم يفعل ذلك للشهرة بل ليعلم الملك أن جزيرة بدين في السودان توجد بها وسائل إتصال. وليعلم الحاكم العام في السودان أن أهل الجزيرة في إمكانهم أن يتخطوه ويخاطبوا لندن مباشرة.

وقد كافح عمنا موسوليني كفاحاً مستميتاً لتثبيت مشروع زراعي تابع لمشروع البرقيق كان موقعه شرق بلدة البرقيق مقابل جزيرة أرتقاشه. وقد حدثت منافسة ضارية بين أهل بدين وأهل جزيرة أرتقاشي، ووصلت القضية إلي المحاكم، وكان موسوليني يمثل بدين. وعندما سأله القاضي في خبث شديد أين تقع الأرض المتنازع عليها. مقابل بدين أم مقابل أرتقاشه. قال للقاضي : مقابل السماء. وبعد صراع طويل تمكن أهل أرتقاشه من الإستيلاء علي المشروع بعد وفاة موسوليني . كانت فيه . رحمه الله . موسولينية معدلة. حسب المعطيات المحلية. ومن هنا أخذ الإسم. كان يتمتع بثقة مفرطة في نفسه. أخذ من الدنيا أكثر مما أعطته .

- 8 -

في ربى القرآن الكريم

شعر عبدالله الحطامي

يا أيها الكَلِم العلى الشان

يا من أضأتَ غياهبَ الإنسان

ما دمت فينا لن يتوه سفيننا

فالحرف نور في يد الربان

من عند ربي قد أتيت مفصلاً

وبقيت وحياً دائم التبيان

هو حبلُ ربي للوجود جميعه

جَمع الأمور وصاغَ كل بيان

هو قول حق غير ذي عوج أتى

أَنْعِم به - قد جاء من منان

وتكفَلَ اللهُ الحفيظُ بحفظه

ليعيش صرحاً كامل البنيان

يا أيها العطشى تعالوا نرتوي

ونعيش أمناً في رُبى الفرقان

****

كان في الجزيرة عدد كبير من حفظة القرآن، حفظوا القرآن في خلاوي كبيرة في مقاصر (الشيخ هارون)، وشيخ شريف، والترعة، ومناطق أخري، ثم عادوا وفتحوا الخلاوي في الجزيرة' فدرس خلق كثير علي أيديهم، من هؤلاء الشيوخ جدنا الشيخ شيخ طويل، وجدنا الشيخ عثمان فقير، وعثمان فقير كان من العلماء الكبار . فبجانب حفظه للقرآن كان فقيهاً مفتياً . كما أنه كان المأذون الشرعي للمنطقة . وله بعض الكتابات الشرعية ولكنها ضاعت ولم يبق منها إلاّ منشور واحد خاص بمسائل الزواج . مكتوب بخط يده . وهو نفسه غير مكتمل . وقد بدأ الكثيرون حفظ القرآن على يده ولكنه توفى صغيراً . ثم تولى أمر الخلوة جدنا محمد فقير . ثم والدي فقير علي، الذي قرأنا الخلوة علي يديه، . ومن الحفظة أيضاً جدنا الشيخ بشير صالح تور، وإبنه الشيخ سعيد بشير تور، وجدنا الشيخ عثمان محمد صالح تور، ووالدنا الشيخ عبدالحميد محمد، الذي كان من القلائل الذين يحفظون القرآن علي أكثر

من رواية، وبتجويد متمكن، كان جيد الحفظ جيد التجويد ، ومرة أثار خلافا فقهياً، فقد كان يتلو من المصحف في المسجد، وداهمته غفوة ، فتوسد المصحف تحت رأسه ونام، فأيقظه عمنا عبدالله شريف، الذي كان مشاغباً، ولامه علي توسد المصحف ، فوجد الشيخ لنفسه مخرجاً فقهيا بأن أشار الي راسه قائلاً ان رأسه في الحقيقة مصحف، فلا تعدو المسألة من أن تكون مصحف فوق مصحف، وكان لغوياً يحفظ الكثير من قواعد اللغة المتعلقة بالقرآن، كما أنه كان يحفظ ألفية إبن مالك، وكان بعض الأحيان يقرأ منها فلا نعرف إن كان الكلام عربياً او شيئاً آخر، فلم نكن نفهم منه شيئاً ، ولم نعلم أنه ألفية إبن مالك إلاّ لاحقاً :

وكلّ حرفٍ مستحقٍ للبنا*** والأصل في المبنيّ أن يسكّنا

ومنه ذو فتحٍ وذو كسرٍ وضَمّْ*** كأينَ أمسَ حيثُ والسّاكنُ كم

والرّفعُ والنّصبُ أجْعلنْ إعرابا*** لاسمٍ وفعلٍ نحو لن أهابا

والإسمُ قد خُصّصَ بالجرّ كما*** قد خُصّصَ الفعلُ بأنْ ينجزما

فارْفع بضمٍ وانصُبَنْ فتحاً وجرّ*** كسرا كذكر الله عبدهُ يسُرْ

واجزمْ بتسكينٍ وغيرُ ما ذكر*** ينوبُ نحو جا أخو بني نمر

وارفع بواوٍ وانصبنّ بالألفِ*** وأجرُر بياءٍ ما من الأسماء أصِفْ

من ذاك ذو إن صحبة أبانا*** والفمُ حيثُ الميمُ منه بانا

أبٌ أخٌ حمٌ كذاك وهِنّ*** والنّقصُ في هذا الأخير أحسنُ

وفي أبٍ وتاليه يندرُ*** وقصْرها من نقصهنّ أشْهرُ

وشرطُ ذا الإعراب إن يضِفْنَ لا*** لليا كجا أخو أبيكَ ذا اعتلا

بالألف أرفع المثنّى وكِلا*** إذا بمضمرٍ مضافاً وصَلا

ومن الحفظة أيضاً الشيخ سيد عبدون (سيد مايو) (والد الأستاذ عبدالوهاب سيد)، وأيضاً الشيخ عكاشة حاج محمد أرو، والشيخ الحاج حمزة حاج، والشيخ حاج محمد أحمد الأمين، والشيخ فضل أبوبكر، والشيخ علي محمد خير عنبوج، والشيخ بشير فرح أورسابل، والشيخ فقير أحمد عثمان، والأستاذ محمد حسنين (والد الأستاذ سعيد محمد حسنين)، والشيخ عوض الله طه، والأستاذ محمد علي محمد موسي، والشيخ حامد شوكت الشهير ب"فقير بحرية"، والشيخ حاج فرحان، والشيخ محمد حاج عبدالعزيز، وأخيه الشيخ عثمان حاج، والشيخ محمد عبدالعزيز الزين، والشيخ فقير همت، ووالدنا الشيخ محمد طه صالح (الصورة على اليمين) وكان من القلائل الذين يجيدون قراءة القرآن على أكثر من رواية ، بدأ الحفظ فى خلوة شيخ طويل محمد نور على يد الشيخ عثمان فقير، ولكن الشيخ عثمان توفى فى سن مبكرة ، كان الشيخ محمد طه قد حفظ بعض أجزاء القرآن ، ثم إنتقل إلى خلوة سلنارتى ، وتتلمذ على الشيخ محمد الأمين لمدة سنتين ، ثم إنتقل إلى قرية

شيخ شريف . حيث خلوة الشيخ حاج سعيد أحمد حاج سعيد . وهى الخلوة التى خرجت العشرات من حفظة القرآن . هناك أتم الشيخ محمد طه حفظ القرآن . ولأنه كان من المتفوقين والمجيدين للحفظ فقد طلب منه الشيخ حاج سعيد كتابة مصحف بخط يده . كان ذلك كما ذكر الشيخ محمد في عام 1941 . وذكر الشيخ محمد أنه بعد إكمال كتابة المصحف تجهز للسفر إلى بدين . وبعد أن صعد إلى العربة تذكر أنه نسى تشكيل صغير . ربما فتحة على حرف من حروف أحدى الآيات . فنزل وركض إلى الخلوة ووضع الفتحة على الحرف في الآية ثم سافر . بعد ذلك سافر الشيخ محمد إلى أمدرمان . والتحق بالمعهد العلمى . ولكنه لم يكمل دراسته هناك . إذ إضطرته ظروف أسرية إلى العودة إلى بدين . فاستقر بها . وأفتتح خلوة لمدة قصيرة . ثم عمل بالزراعة والتجارة . وأذكر أننى عندما كنت أعود ليلاً من منزل جدى الأمين إلى قبة . كنت أمر بجانب دكانه فكنت أسمع الشيخ يتلو القرآن ليلياً على ضوء مصباح صغير بعد أن يغلق الدكان . رحمهم الله جميعاً وأثابهم بالقرآن. ومن الحفظة ايضاً الشيخ عبد الله محمد موسي (عبدالله فقير)،



والشيخ أبوزيد حمزة، والأستاذ طاهر سيد ترجمان، والشيخ عبدالله محمد همت (عبدون ميمد)، ومن الجيل الجديد الأستاذ الشيخ أنور عبدالصادق، وعبدالباقي إدريس كجر، وعبدالغفور محمد علي محمد موسي،، والشيخ أمير السر سيد أحمد. من الخلاوي القديمة والمعروفة في جزيرة بدين خلوة الشيخ شيخ طويل في شَبّة، التي تولي أمرها أجدادنا حتي انتهي أمرها إلي والدي فقير علي الذي كان آخر شيخ في تلك الخلوة، وخلوة الشيخ عبدالحميد محمد الذي قرأنا عنده بعض الوقت، وكانت خلوته في مكان مدرسة شَبّة الإبتدائية بنين الحالية، هناك كنا (نكنس) الحوش بأيدينا، كنا نقف صفاً في خط مستقيم ثم ننحني ونغرس أصابعنا في التراب ونمشي للخلف (حركة ورا) ونحن ننشد:

أقَسَنْ قِسِرْ وللاّ جلبو

تكّا جلبون قِسر وللاّ جلبو

وكان الشيخ عبدالحميد حليماً، ولكنه عندما يغضب كانت له شراسة لا تقاوم، كان يحمل العصا ويحجز الطلبة في ركن ويضرب حيث إتفق، يُنزل العصا ولا يبالي، وكان إذا غضب من طالب يجلده (فلقة) بأربعة كبار وهو يسأل الطالب:

إر كجا؟ (يعني هل أنت حمار؟ فيقول الطالب (أيّ) يعني نعم

فيقول: قيدتا فَكّبْنا (يعني هل تأكل القش) فيقول الطالب (أيي)

فيقول :. دقرْكا أكُرْ دوقوا (يعني هل نضع عليك السرج ونركبك) فيقول الطالب نعم

فيقول: نزلوه.

وكانت هناك خلوة الشيخ محمد شوكت الكبير في تشي، وجاء من بعده الشيخ حامد صوفي الكبير، ثم الشيخ حاج فرحان، وخلوة الشيخ عبدالله محمد موسي والتي



مازالت مستمرة، وخلوة الشيخ محمد الحاج عبد العزيز في سلنارتي، التي تولي أمرها لفترة الشيخ محمد عبدالعزيز الزين، وخلوة الشيخ إسحاق يعقوب في سقدان، وفي سلنارتي أيضاً خلوة الشيخ محمد أحمد حاج علي (صايم)، وهو من خريجي الأزهر في 1845 ميلادية، وكانت الخلوة ((مسيدا)) صغيراً ثم قام أحفاده بتحويلها الي جامع كبير ملحق به خلوة تقوم الآن بتحفيظ القرآن وتخصص جائزة كبيرة للحفظة في رمضان من كل عام، ثم خلوة (آل خطيب)الشيخ حاج شوكت إمام جامع سلنارتي، وخلوة الشيخ أبوزيد حمزة التي خرجت بعض الحافظات من النساء في السنوات الماضية، والخلوة لها فرع في أبسقان، ثم هناك مركز الشيخ صالح شبر الإسلامي في سقدان، والذي اسس في العام 1998 ، جاء في تعريف المركز في منتدي بدين هذه الفقرة :((ويقوم المركز بأعمال الإشراف والتنسيق للمحاضرات والندوات والدروس الدينية العلمية بجزيرة بدين وما جاورها من الجزر والقرى والهجر، مسترشداً فى ذلك ومهتدياً بالشيخ صالح شبر (رحمه الله) الذى كان يوزع محاضراته ودروسه وكلماته التوجيهية فى جميع جوامع جزيرة بدين وماجاورها ..

كما يشرف المركز على أحد عشر داراً لتحفيظ القران الكريم والسنة النبوية للنساء داخل جزيرة بدين موزعة توزيعا جغرافيا على الشياخات الاربع ، كما يشرف على ثلاث خلاوٍ لتدريس وتعليم القران للناشئة من الجنسين تلقيناً ثم بإستخدام الالواح الخشبية للمتفوقين فى مراحل متقدمة حسب التقاليد التراثية . دون إغفال الوسائل الحديثة .. كما يعمل المركز على إحياء دور ورسالة المسجد داخل الجزيرة وخارجها.)) والشيخ حنفي عثمان الطيب هو إمين الدعوة وإمام وخطيب مسجد المركز.

وكان من المتعارف عليه في كل أنحاء السودان، عند اكتمال قبول الحوار في الخلوة أن يقدم ولي أمره هدية للشيخ حسب طاقته وإمكانياته، يبدأ الطالب الجديد بكتابة الحروف على الأرض ويظل يكررها في كل يوم إلى أن يستقر رسمها في ذهنه، وتسمي هذه العملية عندنا (أرمي) بعد ذلك يستحق الغلام حمل (لوح) وهو عبارة عن قطعة مستطيلة من الخشب، وفي الخلاوي الكبيرة ألواح مشهورة اكتسبت شهرتها من كثرة عدد الحيران الذين حفظوا عليها فيتنافس عليها الحيران الجدد ويتفاءلون بها، وتجري عملية التعليم الأولى في اللوح بأن يكتب الشيخ للطالب في البداية بنواة التمر على اللوح المطلي بالجير الأبيض، ثم يمرر الحوار القلم عليها إلى أن يثبت القلم في يده ثم يوالي

الكتابة كل يوم وبذات الطريقة حتي يتمكن من الكتابة بنفسه مباشرة علي اللوح .

يجري في الخلاوي استعمال وسائل وأدوات معينة في التعليم، وهذه الأدوات جلها من البيئة المحلية المحيطة بالخلوة؛ فنجد أن اللوح الذي يكتب عليه الطلبة هو من خشب الأشجار الموجودة في نواحي القرية، كما أن القلم المستخدم في الكتابة يجري صنعه من مواد محلية أشهرها سيقان نبات الذرة(مَري) أو أشجار البوص (القنا) وهي أشجار رقيقة ومجوفة فيصنع كل طالب أقلامه بنفسه ويضعها في (كنانة) يسميها الحوار قلامة أو مقلمة، كذلك على الطالب في الخلوة أن يؤمن لنفسه حبر الكتابة ويسمى (العمار) ويصنع من الصمغ مضافا إليه السخام الذي يتكون أسفل أواني الطهي بالجمر والحطب والأثافي ويسمى في عامية اهل السودان السكن، ووبر الغنم (شنقرتي) أو (دلتي) ، وبعد أن يكمل الطالب صناعة العمار يصنع له أناء خاص لوضع العمار يسمى (الدواية) ، وحسب حديث والدنا الشيخ حمزة أبوزيد الذي حفظ في خلوة شيخ شريف فقد كانت مدة الحفظ تتراوح مابين الخمسة إلي السبعة



أعوام، وكان الطلبة موزعين علي البيوت في القرية، يستضيفهم الناس بفرح وسرور وتفاؤل، وقد قرأ هو وجيله بقراءة ورش ولكنهم الآن يعلمون التلاميذ بقراءة حفص لصعوبة ورش، وختم القرآن كان أهم مهرجانات الخلوة، والختمة (الختمى) كانت تتم عادة في يوم أربعاء معين في شهر صفر، وفي كثير من مناطق السودان تقام وليمة (كرامة) كبيرة يعدها أهل الطالب الحافظ ، وبعد تخرج الطالب جرى العرف إذا كان الطالب ممن يجيدون الخط أن يكلفه الشيخ بكتابة مصحف هدية للخلوة.

أما إذا كان المتخرج لا يجيد الخط فعليه أن (يدلي) يتلو القرآن مائة مرة ويهدي ثوابه لمؤسس الخلوة. وكلا الأمرين ليس شرطاً ولكن أغلب الخلاوي تأخذ به. غالباً ما كانت الخلاوي ملحقة بالمساجد (المسيد) كما يعرف، كان يوجد في الخلوة حجر كبير مقعر يسمى حجر (المحاية) وهو الإناء الذي تمحي (تغسل) فيه الألواح المكتوبة كل صباح لتعاد الكتابة عليها مرة أخرى، ، وفي وسط الخلوة يلاحظ الداخل موضع نار وهي معلم كبير في الخلاوي (نار القرآن) أو التقابة، وتبدأ قراءة القرآن عندها مع مغيب الشمس ، فتشعل النار بالحطب الذي يحضره الطلبة، ويجلس الشيخ والطلبة (الحيران) ملتفين حول الحلقة.وكان المشايخ قديماً يهتمون بتعليم الطلاب ألفية ابن مالك التي تحوى قواعد اللغة بعدما يكون الطفل قد بلغ مرحلة "الشرافة" في القرآن أي حفظ ربع القرآن وما فوق؛ وعندها يلبس ثيابا جديدة ويزين لوحه ويخرج في زفة مع أقرانه ليطوف على أهله وجيرانه فرحًا بما أنجز، فيهبونه كل بحسب سعته من المال ما يعطيه لشيخه.

ويقوم نظام التحفيظ على القراءات السبع المتواترة برواياتها المختلفة وخاصة روايتي حفص عن عاصم وورش عن

نافع والأخيرة يعتقد عدد غير قليل من شيوخ الخلاوي أنها رواية أهل الجنة: لأن أهل المدينة المنورة يقرءون بها.
ويأتي علم التجويد على رأس العلوم التي يتلقاها طلاب الخلاوي بقواعده وأسسه وتعاليمه وهي إخراج كل حرف من مخرجه وإعطاءه حقه دون تكلف أو تعسف، وهو واجب على كل مسلم بالغ يحفظ القرآن أو جزءاً منه. ومن الأمور العجيبة في الخلاوي أن الشيخ يستطيع تصحيح كل الطلبة عندما يخطئون رغم أنهم يقرءون في سور مختلفة. وفي نهاية اليوم وعندما ينتهي "الحيران" من عرض ألواحهم يقومون بوضع الألواح في مكان مرتفع، يسمي عندنا (الكَبَس) وهو شئ مربع أو مستطيل كالشبكة منسوجة من أخشاب رقيقة مربوطة بخيوط من الجلد أو سعف النخيل يعلق من الأربعة أركان في سقف الغرفة بحبال متدلية.

في كل شياخات بدين عدد كبير من المساجد. ففي شُبَة مسجد بدين ساب والذي أسسه وقام علي إمامته والدنا الشيخ عبدالرحيم محمد أبداب رحمه الله، ثم مسجد جبرين، وكان قائماً في موقع جميل جداً فوق شاطئ النيل مباشرة، وكان يؤم الناس فيه اليشخ المتمكن عبدالحميد، ثم تم بناء مسجد جديد بعيداً عن القديم، قام عليه الشيخ عمرنوري لفترة من الزمن ، ويتولي أمره الآن الأستاذ الشيخ أنور عبدالصادق، ثم مسجد قبة وهو من أقدم المساجد في الجزيزة، كان يقوم علي الإمامة فيه جدنا الشيخ شيخ محمود فقير علي ، وشيخ محمود من أوائل من عرفناهم من (السلفيين) أو أنصار السنة ، لم يكن يحب التصوف ، وكان له هيبة في شخصيته بطوله الفارع وملبسه الأنيق ولحيته البيضاء الطويلة ، رحمه الله ، ثم جاء بعده والدنا الشيخ محمد طه صالح ، رحمه الله ، ثم الأستاذ نجم الدين عبدالمجيد نصر. وهناك جامع شُبَة الشرقية وكان يؤم الناس فيه عمنا الشيخ عثمان محمد خليفة رحمه الله، ثم مسجد أبسقان. وفي دقرتي مسجدان، وفي شياخة تشي هناك مسجد كبان ، ومسجد بدين كنج، ومسجد ابجاسي، ومسجد سابلكي، ومسجد تشي الشرقية (فنتي أرمن تو) وفي كل من سقدان وسلنارتي عدد من المساجد.

وككل بقاع السودان ففي الجزيرة قباب واضرحة عابقات الطيب ، لمشائخ متصوفة أجلاء، فتحوا الخلاوي وأوقدوا نار القرآن، وأشاعوا في جو الجزيرة روح تسامح وإخاء، مشوا علي الأرض هوناً، تحسبهم أغنياء من التعفف، مثلوا الدين في بساطته فاخذ الناس دينهم من هؤلاء الشيوخ بالحكمة والموعظة الحسنة، وإنتظمتهم طريقة صوفية في العقائد والعبادات.مارس الناس شعائرهم في يسر وسهولة، كانوا يؤدون الصلاة دون أن يحفظوا شيئاً من القرآن، ولا آية واحدة، أحسنهم كان يحفظ الفاتحة، يسبغون الوضوء دون ان يعرفوا له سنة او فرض ، كانوا يتوجهون في صلاتهم بالدعاء إلي الله باللهجة النوبية، يصومون ويتصدقون، يخرجون الزكاة من محصول البلح. كانوا يقيمون ليالي المولد النبوي بالمديح الجميل، والمديح من العوامل التي صاغت وجداننا بما فيه من حب وشجن وصياغة ولحن جميل، ومن اكثر الأشياء التي حزنت لها في السودان هو ادخال الآت الموسيقية في المديح، وتحويلها الي اغانٍ كالغناء العادي، وهذه افقدت المدائح نكهتها الخاصة، وكثر شعراء المديح، الذين اخذوا يكتبون المديح دون التمتع

بذلك الإرتباط الروحي الخاص بالله. ودون التمتع بالمقدرة الشعرية واللغوية التي تمتع بها الكبار. مثل (حاج الماحي) و(البرعي). ولن تجد اليوم من يستطيع ان يقول مثل ما قال حاج الماحي.

طالبين ام رمال قام الحجيج عجلان ... في نمرة الظهر جمعوا الفروض باحسان

فوق عرفة الطلوع يتحنن الليمان ... مزدلفة المبيت جمعوا الحصي الحبان

العيد في مني ورجمنا للشيطان ... حلقنا الشعور دبحوا الهدايا سمان

فرحان الحجيج يتلابس القمصان ... والعجب العجايب لية الشيلان

نوصل في مدينته النايرة ام بنيان ... وادونا الاذن ندخل علي السلطان

نلقي الخير موجد والنعيم كيمان ... سيد الدار ضمن قال يا عبيد امان

انظروا الي حلاوة هذه الأبيات. وكيف التزم الشيخ بحرف النون في شطري البيت. ذالك من اصعب فنون الشعر.

أكثر ما أذكره في مجال المديح عندنا. جدنا سعدالدين وهو يصدح بالبردة و قصيدة زهير (بانت سعاد) بصوت جميل ولغة صحيحة. يبدأ القصيدة كما هي بالغزل:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ ... مُتيَّمٌ إثرها لم يفد مكبولُ

وما سعاد غداةَ البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحولُ

أرجو وآمل أن تدنو مودتُها ... وما أخالُ لدينا منك تنويلُ

ثم ينتقل الي المديح:

نُبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمولُ

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويلُ

إن الرسول لنور يُستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلولُ

الي أخر المديح في القصيدة.

وكان والدي ينشد بردة البوصيري :

مولاي صلي وسلم دائماً أبدا

على حبيبك خير الخلق كُلهم

الله بالمصطفى المختار فضلنا

على كثير وبالاسلام خولنا

ونرتجي أنه للفوز أهلنا

مُذ لاح نور الهدى الهادي وهلّ لنا

نادي منادي الهنا في حينا علنا

بشرى لنا معشر الاسلام إن لنا

من العناية ركن غير منهدم

::::::::::::::::::::::::::::

أما كبير مادحي المنطقة كلها فهو الشيخ المادح عبدالعزيز عبدالكريم قورتي الملقب بـ (شرقاوي) ، كان رحمه الله ذو صوت جميل عذب وله تسجيلات في الإذاعة السودانية.

كان من الأحداث الكبيرة أن يسافر أحدهم لأداء فريضة الحج، يجتمع الناس في بيته في وليمة كبيرة علي كبش أقرن، ثم يزفونه إلي مشرع المركب في سيرة ضخمة وهم ينشدون نشيدا دينيا مصحوبا بدقات قوية من طبل (نوبة) دائرية كبيرة تدق بالجنبين، كان يربطها عمنا النور علي كتفيه بحبلين لتتدلي أمامه، ويحمل عصاتين في يديه يضرب بهما الطبل بالجنبين بإيقاع معين فينشد معه المجموعة، ولأن عمنا النور كان يعرج قليلاً فتأتي ضربة الطبل مع العرجة فتخاله يرقص، ولعرجته حكاية طريفة لا استحضرها الآن. يودعون الحاج كأنه لن يعود، وعندما يعود يستقبلونه بوليمة اكبر كأنه غزا الروم او هزم الفرس، وكان من العادة أن يعتكف الحاج في بيته سبعة أيام لا يخرج منه، يُزار ولا يزور.



قلت أن في الجزيرة عدة قباب، فهناك قبة الشيخ (شيخ طويل ابورابحة)، والصورة على اليمين هي القبة المذكورة وتاريخ بناء القبة وكيفية بناؤها والمدة الزمنية لبنائها ألغاز لا تفسير لها ، ولا يعلم عنها أحد شيئاً على وجه التحديد. يقول الأخ تاج السر عكاشة أنه سمع من والده أن هذه القبة قديمة جداً ، وأن والده سمع من أبيه أن القبة كانت مبنية على أيامهم ، وشيخ طويل هو جدي والد جدتي، وتقول الأسطورة أن الشيخ توفي ليلاً، فدفنوه في مكان حدده هو قبل ان يموت، وفي الصباح وجدوا تلك القبة الضخمة مبنية، وحسب رواية جدتي رابحة فقد بناها الملائكة ليلاً، ويقال ايضاً أنه حدث أن إبتلع التمساح صبياً من الحي، فلجأوا إليه، فأخذ إبريقه ونزل الي النهر غاضباً، وبغرفة واحدة من إبريقه (نشف) النيل، فافتضح أمر التمساح، ووجد نفسه في العراء، وعندما حاول الهرب جرياً في اليابسة، ناداه الشيخ، فجاء يرتجف، فأمره أن يلفظ الصبي، ففعل، فأطلق الشيخ سراحه، وأعاد النيل من إبريقه إلي مجراه فشرب منه الناس، وما زالوا يشربون الي يومنا هذا ، وبالقرب من قبة شيخ طويل، هناك قبة جدنا الشيخ فقير علي (نيشِقو) يعني أبوقرون، وهي القبة الظاهرة في الصورة على اليسار مع جزء من الجامع القديم ، تقول الأسطورة أن فقير علي عندما كان يغضب، كانت تنبت له قرون ينطح بها الخصم فيرسله الي القبر ، ولذلك سُمي (نيشقو) . والقبة ملحقة بها مأذنة صغيرة ، سلالم كان يصعد بها المؤذن إلي أعلي القبة ليرفع الأذان ، وعندما كنت أصور كان معي أبننا (حجمد) فصعد السلم في خفة شديدة ليمثل الطريقة القديمة للأذان.



و هناك قبة الشيخ عبدالحكم، وعبدالحكم هذا مجهول الهوية، لا يعرف أحد عنه شيئاً، وتوجد أمام القبة شجرة (مور) ضخمة، قالت الأسطورة، انك اذا قطعت فرعا من تلك الشجرة ودخلت بها البيت، فسوف يشتعل البيت ناراً، فتفادي الناس الحرائق بأن امتنعوا من الإقتراب من الشجرة.

وهناك في منطقة جبرين، في شياخة شَبّة، قبة الشيخ (جبرين)، شيخ جبرين شيخ نُوّار كما يسميه أهل المنطقة، ويقولون (أُيْقا تبّتوجي) يعني ثبتنا، وفي منطقة (حركيا) هناك قبة تعرف بإسم حبس السين ، ولا اعرف اذا كان هذا الإسم تحريفا من اسم الشيخ صاحب القبة، وهناك في ابجاسي، في شياخة تشي، قبة الشيخ (محمد . شوكت الكبير)، وهو والد حامد(صوفي) الكبير، والذي هو والد بحرية وحاج فرحان، وبحرية هذا هو والد آمنة فقير ، رحمها الله ، والتي هي والدة أستاذنا جعفر عباس، وهذه الأسرة حسب الأخ (حسن حامد)، تُكَنّي اي حامد في الأسرة بلقب (صوفي)، والإمام الحالي لجامع شوكت، هو عمنا محمد حامد(صوفي)، وفي تلك المنطقة ، وعلي شاطئ النيل، كانت هناك مقبرة تنسب الي شيخ اسمه (شيخ موسي ود بُرو)، وكان الأطفال عندما ينزلون الي النهر للسباحة ينادونه ويقولون (شيخ موسي ود بُرو، أُلْمِن اَقلّلا كُكُندي ويكا إدِرْ)، الأُلُمْ هو التمساح، والككندي هو حجر صلب ضخم قوي، يدق به (الكُجِر) في الأرض، والكجر هو الوتد الذي تربط فيه البهائم، وكان النداء كأنه يقول، امنع عننا التمساح بان تضع في فمه حجراً، ويقال انه في الفيضانات ، كانت المياه تغرق المنطقة التي فيها القبر ولكنها لا تغرق القبر، وقد نُقل قبر هذا الشيخ من قرب الشاطئ الي المقابر ، وحسب إجتهاد الأخ معتصم عبدالفتاح ، وهو إجتهاد اراه صائباً، ان الأجزاء الجنوبية من جزيرة بدين جديدة لحد كبير مقارنة بالمناطق الشمالية منها، والقباب مبان قديمة، ولذلك فلا توجد قبة في سقدان وسلنارتي.

كان رمضان كما في كل السودان والوطن الإسلامي له طعم خاص، ويتكون الإفطار من البلح والنشا الساخن والـ (أبري قيل) يعني الحلو مر ، وبعض العصائر وطبعاً القراصة، أما في السحور فكانوا يأكلون شعيرية بلدية سميكة الجدائل تقوم النساء بعملها قبل بداية الشهر، وكان عمل هذه الشعيرية مناسبة تجتمع فيها نساء الحي في بيت واحد، وفي نفس الوقت يبدؤون عمل الحلو مر ، وكانوا ينامون مبكرين ويصحون للسحور لأكل وجبة كاملة ، ونذكر عمنا عبيدي أبسكو الذي كان يدور في البلدة وقت السحور ضارباً صفيحة بالعصا منادياً النيام للقيام.



ورمضان هو رمضان، يَهل عليك في كل عام بطعمه الخاص والفريد ..وحتي من لا يصوم رمضان يحبه .. ويستحلي طقوسه .. ويجد فيه تغييراً من رتابة باقي شهور العام .. وهو رمضان حتي لو جاء في آب (الليل فيه ساعة ::: ونهاره

يوم الحساب) كما قال ابن الرومي .. لا يتساءل فيه الناس كيف جاء ولم جاء .. إنما يستعدون للقياه بالحب والعزيمة .. وشهية مفتوحة .. تمر باقي شهور العام بطريقة روتينية لا يحس الناس فيها بالوقت كإحساسهم به في رمضان .. يمر اليوم .. ربما ثقيلاً بعض الشئ .. بين إحساس مختلط ما بين الجوع والعطش و(خرمة) المكيفات .. وما أن يقترب الإفطار حتي يشعر كل واحد أنه إنتصر علي نفسه .. أو علي الوسواس الخناس .. وكلما مر يوم .. كلما كبر ذلك الإحساس بالإنتصار .. حتي ينقضي الشهر ويهل العيد .. وأما العيد فأمره مختلف .. العيد يوحي بالتأمل ويغري بالتساؤل .. يتأرجح بك بين السعادة والحزن .. وأصل العيد في اللغة هو ما اعتادك من هم وشوق .. قال الشاعر (والقلبُ يعتادُه من حُبّها عيدُ).. وعلي ذلك كان تساؤل ابوالطيب (عيدٌ بأيةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ == بما مضي أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ)؟؟ .. منذ أن أطلقه الأستاذ فهو سؤال حي .. ينظر إليه الأعمي ويسمعه من به صمم .. يردده الدهر ... ينقله جيلٌ الي جيل ..سؤال يتحاوم في أذهان الناس .. وفوق رؤوسهم .. يطفو علي ذاكرتهم .. قالوه جهراً أو سراً .. العيد يوقظ في الناس الشجون .. يفتقد فيه الناس بعضهم البعض ..يتزاورون ويتصافحون ويتسامحون .. يغمرهم فرح جميل .. والفرح الجميل دائماً مغلف بحزن نبيل .. وليس السر إلاّ في ذلك الحزن النبيل ... هو الذي يملأ قلوب الناس وداً وتسامحاً ... في العيد يفتقد الناس موتاهم ... حتى أنهم كانوا يزورون المقابر ... يترحمون على الموتي ... ويغرصون الجريد الأخضر في طرفي القبر .. ويرشون الحبوب فوقه ... في العيد يفتقد الناس مغتربيهم .. يفتقد الناس كل من هو بعيد .. اربعة وثلاثين عاماً منذ أن شهدتُ إحتفالات العيد في قريتي في بدين .. ياااااااه ... ياله من عمر طويل .. كل هذه الأعوام وأنا أعيدُ في المرافئ البعيدة الغريبة .. كل هذه الأعوام وأنا أستيقظ في صباح العيد فلا أجد نفسي بين أهلي وعشيرتي .. إستيقظت ذات صباح عيد فوجدت نفسي في الخرطوم ... واستيقظت ذات صباحات أعياد أخري ووجدت نفسي في مدينة الرياض في السعودية ... إستيقظت ذات صباح عيد فوجدت نفسي في باريس .... وإستيقظت ذات صباح عيد ووجدت نفسي في القاهرة .... وإستيقظت ذات صباح عيد ووجدت نفسي في مطار روما ... وإستيقظت ذات صباح عيد ووجدت نفسي في أديس أبابا .... وإستيقظت ذات صباح عيد ووجدت نفسي في شيكاغو ... وإستيقظت ذات صباحات أعياد كثيرة ووجدت نفسي في تورنتو .. تورنتو التي إتخذتها سكناً دون مدن الأرض ومازلت أتساءل لماذا فعلت ذلك ... تلك الصباحات العيدية الكثيرة لا تساوي صباح عيد واحد شهدته في مسقط رأسي .. في قرية صغيرة تتكون من سبعة أو ثمانية بيوت إسمها (قبة) .. في شياخة صغيرة إسمها (شَبّة) .. في جزيرة في شمال السودان إسمها بدين .. هناك بين والديّ وأخوتي .. بين عماتي وخالاتي .. هناك كان العيد له طعم شهيٌ بهيٌ حيّ .. له طعم جديدٌ مديدٌ سعيد ..

كل صباح عيد يطرق أسماعي صوت إحداهن وهي تهئ في نبرة ملؤها الإخلاص:

Koreegon aaja nalana

Salmayeenta saleemayeentan

Gem ingalg hawlingalag

Bitani onigoodani assi onigodani

Oreen dolly malladani

onna geegintan

Odi wayini weeri jammini

Magissi samallowgo need nolologo

Oyun werwaka gara najjam

Afian koreiayeentan malleedo keroragam

(عيد سعيد وعمر مديد لكم ولأطفالكم واحفادكم .. وتمنياتي بزيادة الخلفة .. وشفاء المريض .. وعودة البعيد ... يعود عليكم العيد بالصحة والعافية عاماً بعد عام ... وحولاً بعد حول .. لنحضن بعضعنا البعض بفرحة وإبتسامة .) ... تلكم كانت تهنئة العيد ... كما كنت أسمعها ... ثم بعد كل تلك المدة الطويلة التي غبتُ فيها عن أعياد البلد ذهبتُ هذا العام (2013) لأشهد العيد في بدين .. ولكن لم يكن للعيد طعمه القديم ... ولم تطرق سمعي تلك التهنئة الحميمة .. فقد تغيرت كما تغير كل شئ .. وفقدت ذلك الإحساس المتفائل ... والذي كنتُ أحسه في ما مضى ... في سنين العمر الفرحة المرحة .. المليئة بالتفائل .. لم أكن قد عشتُ ما عشتُ .. ولاجربَتُ ما جربّتُ .. ولا رأيتُ ما رايتُ .. ولا قلبَ لي الزمان ظهر المجن .. كان ذلك قبل أن يماطلني زماني ما منيتُ نفسي به من أمال .. كما ماطل العباسي من قبل ... حين كان (العود أخضر .. والأيام مشرقة .. وحالة الأنس تغري بي وتغريني) ... كان ذلك قبل أن أعرف أن (الدنيا بتهينك والزمان يوريك == وقِلَ المال يفرُقَكْ من بنات واديك) ... كان ذلك قبل أن تثقلنا الهموم .. قبل أن تذري بنا الأوجاع .. حينئذ كانت الدنيا ممتدة أمامنا كسهل منبسط ... في ذلك الوقت لم تكن المدن البعيدة من أحلامي .. ولا كانت الهجرة من خواطري ... لم يكن المتنبي من معارفي ...ولم يكن شِعره من رفقاني .. ولم أكن (قلقاً كأن الريح تحتي) ... أمّا الان فأين المفر من كل ما كان !؟ أين المفر من كل ما تراكم !؟ أين المفر من لواعج الذكري وتباريح الحنين ..

*لَم يَترُكِ الدَهرُ مِن قَلبي وَلا كَبِدي	شَيئًا تُتَيِّمُهُ عَينٌ وَلا جيدُ
*يا ساقِيَيَّ أَخَمرٌ في كُؤوسِكُما	أَم في كُؤوسِكُما هَمٌّ وَتَسهيدُ
*أَصَخرَةٌ أَنا مالي لا تُحَرِّكُني	هَذي المُدامُ وَلا هَذي الأَغاريدُ
*إِذا أَرَدتُ كُمَيتَ اللَونِ صافِيَةً	وَجَدتُها وَحَبيبُ النَفسِ مَفقودُ
*ماذا لَقيتُ مِنَ الدُنيا وَأَعجَبُهُ	أَنّي بِما أَنا شاكٍ مِنهُ مَحسودُ

هكذا قلتَ فرددتْ صدي قولك القلوب .. هكذا قلتَ فكان قولك مورداً للنفوس .. وها أنذا أجد في قولك العزاء .. ها أنذا أتساءل اليوم ماذا لقيتُ من الدنيا ؟ .. أشتكي من غربتي .. وأعاني من بُعدي .. هذه الغربة اللعينة ليست أكثر من سترة حال .. أتجرع فيها كؤوس الهم والتسهيد .. وفيها ما فيها من كُميت اللون أصناف صافية وممزوجة..

بيضاء وحمراء وصفراء. ودون ذلك وفوق ذلك مختلف ألوانها..(لا تنزل الأحزان ساحتها=إن مسّها حجرٌ مسّته سراء) .. لها في هذه المنافي بيوت وصالات .. وأديرة وحانات .. ومقاصد ومقامات .. مبذولة لشاربها .. تُثني بألانها وتسمى بأحسن أسمائها .. من نسل الكرخية والأندرينا .. من الصهباء والحميقاء.. من أم ليلي والسلافة والمُشعشَعة .. من البكر والشمول والراح .. من كل مدامة للأغتباق والأصطباح .. من مثل (المعتقة منذ دهرٍ في جرار:::ختموها بالأفاويه وكافور وقار) .. ومن بنات العنب زجاجات لهن هدير .. مثل التي أذهلت الأخطل قديماً.. فخرج يجر الذيل تيهاً كأنه علي أمير المؤمنين أمير.. من كل (قهوة تأتيك قبل مِزاجِها عُطلاً :: فيلُبسها المِزاجُ وشاحا) .. أو كقهوة الوليد بن يزيد .. التي زانها تقادمها حتي تجلت ورق جوهرها .. فتبدت في منظر عجب .. ومثل الذي شربها الأعشي علي لذة .. ثم تداوي منها بها .. كل تلك متوفرة في المنافي .. تناولك إياها اسيلات الخد .. ممشوقات القد .. مملوخات اليد .. مسبلات الطرف .. بالغات الظُرف .. ساهلات العُرف ... يسقينك من اليد خمراً ومن الفم خمراً فما لك من سكرين من بد .. كما لم يكن للحسن بن هانئ من بد .. في دير حنّة من ذات الأكيراح .. أو قطربلَ . أو قبة الفِرك من أكناف كلواذ .. كل ذلك لا يُسلي ولا يفيد ولا يداوي .. كل ذلك كان لي قبل هذا اليوم فيه هويً أطيعه وحديثٌ ذو أفانين .. كل ذلك كان في زمن مضي وعمر إنقضي .. وأنت يا سيد الشعراء لماذا سقتني إلي كل ذلك .. هلاّ حدثتني الآن بحديث آخر..

مَا لَنَا كُلُّنا جَوى يا رَسُولُ — أنَا أهْوَى وَقلبُكَ المَتْبُولُ

كُلّما عادَ مَن بَعَثْتُ إلَيْهَا — غَارَ مني وَخَانَ فِيمَا يَقُولُ

وَإذا خامَرَ الهَوَى قَلبَ صَبٍّ — فَعَلَيْهِ لِكُلّ عَيْنٍ دَليلُ

زَوّدِينَا من حُسنِ وَجْهِكِ ما دامَ — فَحُسنُ الوُجوهِ حَالٌ تحُولُ

وَصِلِينَا نَصِلْكِ في هَذِهِ الدّنيَا — فإنّ المُقَامَ فيها قَليلُ

نَحْنُ أدْرَى وَقد سألْنَا بِنَجْدٍ — أطَوِيلٌ طَرِيقُنَا أمْ يَطُولُ

وَكَثيرٌ مِنَ السّؤالِ اشْتِيَاقٌ — وَكَثِيرٌ مِنْ رَدّهِ تَعْليلُ

لا أقَمْنَا عَلى مَكانٍ وَإنْ طَابَ — وَلا يُمكِنُ المكانَ الرّحيلُ

أما أنا فأقيم بالمكان إن طاب .. وآلفه إن ألِف .. ربما مللته .. ربما رحلت عنه .. وسافرت منه ... إلاّ انني أعود إليه .. وأقيم في ربوعه وكأنني ولدت به .. علي أن إحساس المقيم ذاك لا يدوم صافياً ... إذ يبرق أمامي مكان آخر.. أشتاق له وأحن إليه .. مكان آخر يطوف في خاطري .. يلوح أمام ناظري ... هو دار أبي .. التي إن دخلتها كنتُ آمناً .. ولكن أين مني دار أبي .. وأين مني الأمان .. منذ أن فارقت دار أبي فارقني الأمان .. قطعت البوادي وعبرت المحيطات .. فقط لأكتشف أن ما جئت أبحث عنه هنا تركته ورائي هناك ..

* أمّا الفِراقُ فإنّهُ ما أعْهَدُ — هُوَ تَوْأمي لوْ أنّ بَيْناً يُولَدُ

* ولَقَد عَلِمْنا أنّنا سَنُطيعُهُ — لمّا عَلِمْنَا أنّنَا لا نَخْلُدُ

* وإذا الجِيادُ أبا البَهِيّ نَقَلْنَنا — عَنكُم فأرْدأُ ما رَكِبتُ الأجْوَدُ

*مَن خَصّ بالذمّ الفراقَ فإنّني   مَن لا يرى في الدهر شيئاً يُحمَدُ

هذا رحمك الله شعر مجيد .. وقول فريد .. فرغم أن (البيْن) لايولد إلاّ أنه يصبح توءماً للأنام .. يصطفي منهم من يشاء .. يتخير منهم من يريد .. ثم يلازمهم ملازمة الظل .. فلا يجدون منه فكاكاً .. يذهب في فنون التفريق مذاهب، يمعن في القسوة .. ويبالغ في التجريح .. ولا يملك المرء الاّ الطاعة والإذعان .. وأنا لم تنقلني عن الأحبة تلك الجياد التي نقلتك .. ولم أقطع المسافات بالأيام والليالي .. ولم أعانِ وعثاء السفر وكآبة المنظر .. ولم أصل الي محطتي أشعث أغبر .. إنما إنتقلت الي هنا بالسيارات المكيفة .. والنفاثات الفارهة .. ولم يغنِ عني ذلك شيئاً .. ومثلما كانت جيادك أردأ ما ركبتَ لأنها أبعدتك عن الأحبة. فإن النفاثات أردأ ما ركبتُ أنا .. فهي لم تفعل شيئاً غير أنها أبعدتني عن دار أبي .. ومنازل قومي .. عن أغنام أمي ودجاجها وحَمَامها .. عن مزرعة جدي التي أطعمتني.. و(أزيار) جدتي التي روتني .. عن شجرة اللالوب التي ظللت طفولتي .. عن تل الرمل الذي إرتميت فيه في ليالي القرية المقمرة .. عن أشجار النخيل التي تحف بيتنا الطيني الوديع .. عن الجدول وصوت البريخ .. عن الجامع والخلوة وصوت المؤذن .. عن شقاوة أطفال القرية .. عن مراتع الصبي ومرابع اللهو

*أتي الزمانَ بنوه في شبيبته   فسرّهم وأتيناه علي الهرم

إن قلت هذا قبل أكثر من 1000 عام فماذا أقول أنا .. هل جئت أنا الي الدنيا في (الزمن الضائع) ... هل جئتها والزمان (شرم برم) .. هل جئتها وهي (فرندقس) أم جئتها وهي (دبنقة) .. وكيف لي أن أعبر عن زماني إلاّ بمفردات لا تفهمها .. هي مفردات العصر.. 1000 عام يا صاحبي ..ألفية كاملة .. تبدلت فيها الدنيا .. تبدلت فيها المفردات .. تبدلت فيها المعاني .. تبدل فيها الشعر كله .. هذا زمان ردئ .. أصابت رداءته حتي الشعر فأصبح حديثاً وحراً ومبتذلاً وركيكاً ... ولكن لا عليك .. أسمِعني مما قلت .. وما أحسن ما قلت .. العزاء ، كل العزاء فيما قلت ..

لَكِ يا مَنازِلُ في القُلوبِ مَنازِلُ   أقفَرْتِ أنْتِ وهنّ منكِ أواهِلُ
يَعْلَمْنَ ذاكَ وما عَلِمْتِ وإنّمَا   أوْلاكُما يُبْكَى عَلَيْهِ العاقِلُ
كم وقْفَةٍ سَجَرَتكَ شَوْقاً بَعدَما   غَرِيَ الرّقيبُ بنا ولَجّ العاذِلُ
إنْعَمْ ولَذ. فَلِلأمورِ أواخِرٌ   أبَداً إذا كانَتْ لَهُنّ أوائِلُ
ما دُمْتَ مِنْ أرَبِ الحِسانِ فإنّما   رَوْقُ الشّبابِ علَيكَ ظِلٌّ زائِلُ
لِلّهْوِ آوِنَةٌ تَمُرّ كأنّهَا   قُبَلٌ يُزَوَّدُهَا حَبيبٌ راحِلُ
جَمَحَ الزّمانُ فَلا لَذيذٌ خالِصٌ   ممّا يَشُوبُ ولا سُرُورٌ كامِلُ

نعم.. أقفرت منازل قريتنا.. ديارٌ حوت طفولتنا وصبانا .. شهدت حكاوينا وغرامياتنا .. وعواطفنا الاولى .. أقفرت كما أقفر علي عُبيْدٍ من أهلهِ ملحوبُ .. أراها من هنا .. من هذا البعد السحيق .. أراها مرة تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد .. كما لاحت لطرفة ببرقةِ ثهمدِ .. أو كما لاحت للحارث ببرقة شمّاءُ ورياضُ القطا والإبلاءُ .. لا أري من عهدتُ فيها فأبكي .. ولا يُحيرُ البكاءُ.. وأراها مرة أخري كما رآها إمرؤ القيس بسقط اللوي بين الدخول فحومل .. وأراها مرة

ثالثة بعين زهير .. فتبدو كديار الرقمتين .. مراجيع وشم في نواشر معصم. ولأياً عرفت الدار بعد توهم .. وأكاد أشكو إليها وأكلمها، أكاد أسمع صوتها كما فعل ذوالرُمَّة ، غيلان .. أكاد أدع الدمع ينحدر، لعله يعقب راحة .. ولكن ليست لي رواحل .. وليس لي خلآن .. لأسوقهم الي هناك .. كما فعل ذوالرُمة بجرعاء حزوي :

خليلي عوجا من صدور الرواحل ... بجرعاء حزوى فابكيا في المنازل

لعل انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أو يشفي نجيّ البلابل

وأراها مرة رابعة كما رأها الشريف الرضي .. ومثلما فعلَ قلبه .. تلفتَ قلبي .. وما زال يتلفت..

ولقد مررتُ على ديارهم   و طلولها بيد ألبلى نَهبُ

فبكيتُ حتى ضجّ من لغبٍ   نضوي و لجّ بعذلِيَ الركبُ

و تلفتَتْ عيني فمذ خَفيتْ   عني الطلولُ تلفَت القلبُ

أقفرتْ كما أقفرت ديار بالجواء علي عنترة بعد أم الهيثمِ .. وعفت كما عفت ديار لبيد في مني بحمي ضرية ومدافع الريان .. وأقوت كما أقوت دارمية علي النابغة بالعلياء والسند .. فوقف فيها أصلاناً يسائلها . فعيَتْ جواباً ، فما بالربع من أحد .. وقفتْ منازلنا خاوية علي عروشها .. هاجر منها من هاجر شرقاً .. وهاجر منها من هاجر غرباً .. وهاجر منها من هاجر من الدنيا الفانية .. أقفرت تلك المنازل .. ولكن لها في قلوبنا منازل أهلة بذكراها .. مليئة بالشوق إليها .. فاض بها الحنين .. وطال بها الشجن .. وكيف لا .. فيها مسقط الرأس .. وذكريات الأمس .. رونق الشباب وموطن الأحباب .. حين كان للحسان فينا إرب .. ولنا فيهن مثل الذي لهن .. وأكثر .. ولكنك تقول يا سيدَ القول أنّ للأمور أواخر كما كانت لهن اوائلَ .. وللهو أونة تمر كأنها قُبَلٌ يزَوّدُها حبيبٌ راحلٌ .. نعم .. ذاك يا سيدي طبع الزمن .. وسنة الحياة .. وشيمة الدهر .. وما الدهر!! ماذا قلتَ ؟؟ .. وكيف قلتَ ؟؟ ..

*وما الدهرُ إلاّ من رواة قصائدي   إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ منشدا

*فسار به من لا يسير مُشمراً   وغَني به من لا يغني مُغردا

* أجِزني إذا أُنشِدْتَ شـعراً فإنما   بشِعري أتاكَ المادِحونَ مُـردّدا

* ودَعْ كلَّ صوتٍ غيرَ صوتي فإنني   أنا الصائحُ المَحْكيُ والآخرُ الصدي

تماماً كما أفعل الآن .. أسير بشِعرِكَ مشمّراً .. ولكنه سير كسير الكسيح .. وشَمَرٌ واهٍ ضعيف .. كبيت العنكبوت .. وأغنّي بشِعرِكَ مغرّداً .. ولكنه غناء كغناء النائح .. لم يلجئني إليه إلاّ الحزن والشجن .. إلاّ الغربة والأسي ..

كيف لم أتخير من شعر الأستاذ إلاّ ما تخيرت .. وهل كان لديه شعر فيه فرح وسعادة .. هل كان لديه شعر فيه مرح وفكاهة .. أما كان صوته جريحاً .. ولحنه حزيناً .. وقلبه مفجوعاً .. ألم يكن شعره ممتعاً في المدح .. منصفاً في الرثاء .. ممعناً في الهجاء .. مات المتنبي في اليوم الثامن والعشرين من رمضان .. فجاء العيد بعد يومين من وفاته ..ذلك العيد كان يحمل الجديد من أمر الدنيا .. فقد مات مالؤها وشاغل الناس فيها .. قُتل فارس الشعر الأبيّ علي مشارف بغداد .. قتك به قاطع طريق إسمه فاتك بن أبي جهل الأسدي .. وما أورده الردي إلاّ قصيدة هجا بها إبن أخت

فاتك. ضبة بن يزيد. هكذا قضي نحبه علي أعتاب شعره .. أودع الزمان قصائدَ من عيون عيون الشعر .. ونام قرير العين للأبد .. وما زال الدهرُ يروي قصائده .. ومازال الخلق يختصم في شعره وبشعره .. فهو الخصم في الشعر والحكم.

ليس لي من مجال لإنهاء هذا الجزء من الكتاب ، والحديث فيه عن الدين ، دون ذكر شخصية دينية اساسية في تاريخ الجزيرة ، وهي شخصية شيخنا المبجل الراحل صالح شبر.

وهو صالح إدريس صالح شبر.أكثر الشخصيات الدينية شهرة في بدين وما جاورها. كان شيخنا الأُستاذ صالح شبر. عليه الرحمة. ازهرياً مجيداً. جاءنا من الأزهر بعلم غزير. والي علمه الغزير. كان شيخنا صالح. بهي الطلعة. طاغي الحضور. قوياً مهاباً. وكنت في منتهي الحيرة كيف أكتب عنه. وماذا أقول. ولكن صديقي وأخي علي عبدالرحيم ابسكو. كفاني صعوبة تلك المهمة. فأرسل لي هذا الحديث الشائق عن شيخنا الكبير صالح شبر. واليكم حديث الأخ علي:-

((بعد خصام طال مع القلم. وعشقاً مات في داخلي مع الأدب ، كما ماتت أشياء كثيرة أخري. استميحك اخي محمد عذراً. لأحاول الكتابة هنا. عن الرجل الرمز. الرجل الأمة. الرجل الذي تصدي لإصلاح مجتمع بدين وحده. في زمن كان فيه. بعض أئمة المساجد عندنا. كما في كثير من بقاع الوطن الإسلامي. يدعون لنصرة السلطان عبدالحميد. كانوا يدعون لنصرته. في خطب كتبت قبل مئات السنين. دون ان ينتبهوا الي أن السلطان مات وشبع موتاً. هذا الرجل الرمز هو الشيخ صالح شبر. ومَنْ مِن بدين لا يعرف صالح شبر. وانا لا ادعي انني الأجدر بالكتابة عن هذا العبقري. ولا ادعي معرفة كاملة عن حياته. ولكني سأكتب عنه. لحدث شهدته. وما زالت أحداث ذلك اليوم عالقاً بذهني. بكل تفاصيله. رغم تمتعي بذاكرة خربة.

صالح شبر. يا أحبتي. كان مدرسة تربوية. ومصلحاً دينياً. وعالماً إجتماعياً. وصاحب رسالة. عاني ما عاني من أجلها. تحمل الأذي الكثير. حتي انه تعرض للضرب المبرح. ولكنه تحمل من اجل رسالته النبيلة. كان الشيخ صالح عبقرياً في وطن ارخص بضاعة فيه هي العبقرية. كما قال المبدع الراحل الفاضل سعيد. كان أزهرياً متعمقاً في امور الدين. وكان واعظاً يمر علي كل مساجد بدين. والقري القريبة. الي الشرق من الجزيرة والي الغرب. كنا نراه في مسجدنا مرة كل ثلاثة اشهر. وما كنا نجرع من بحر معرفته. تفوق ما تعلمناه في سنوات من غيره. كان صالح الصالح هذا. يملك موهبة في الخطابة. وطريقة بسيطة وسلسة في توصيل المعلومة. لم ار مثلها حتي هذه اللحظة. كان يملك (الكارزما) ، وهي ميزة عرفنا اسمها العلمي فيما بعد. ولكننا كنا نحسها فيه. الكارزما التي يتباهي بها ساسة العالم اليوم. لم يستعمل كلمة واحدة فوق استيعاب البسطاء من اهلنا. الاّ وقام بشرحها باسلوبه المبسط الخفيف. كان ظريفاً يُضحك كل من في المسجد. ولكنه كان يستعمل الظرف ليغلف به جرعات قوية من امور الدين والعقيدة.

تملك ناصية اللغتين العربية والنوبية. كانت خطبه ومواعظه بليغة وممتعة. كان يلقي خطبه بالعربية وبصوت جهوري، ثم يترجمها الي (النوبية) . وكان كثيراً ما يطلق الكلمة بالنوبية فلا يعرف الناس معناها، فيضطر الي شرحها. وكان له مقدمة خاصة به. يقولها قبل الخطب. ولم أسمع مقدمة أبلغ ولا أشمل من تلك المقدمة. لو وجدتها لكتبتها هنا، ولكنها ضاعت ولم تسجل. كالكثير الذي ضاع وكان جديراً بالتسجيل. وكان لا يخاف في الحق لومة لائم. يهابه حتي الأئمة والوعاظ ، شعاره قول الفاروق رضي الله عنه (الرجل اذا مشي اسرع، واذا تكلم أسمع، واذا ضرب أوجع). وكانت له غضبات مضرية في حق الله. يفقد صوابه معها فيخاف الناس ويعيشون في رعب. كان له الفضل في محاربة الكثير من البدع والعادات التي لحقت بالدين الحنيف. كان يتحدي أئمتنا ويحاول ان ينتقل بهم الي مرحلة ادراك وفهم صحيح للدين. كان يحاول ان يقول لهم ان المساجد ليست لأداء فرائض الصلاة فقط ، بل منها تنطلق حركة اصلاح المجتمع باسره. كانت رسالته واضحة وصريحة. لا بد من تطابق قولك مع عملك. تلك كانت فلسفته التي طبقها في نفسه، قبل ان يطالب الناس بها. وعدم تطابق القول مع الفعل، هو بالضبط ما يفسر امتلاء المساجد بالناس، وفي نفس الوقت تفشي الفساد الكامل في المجتمع .

في عهد الطاغية نميري، تم زيادة اسعار السكر والقمح، وأخذ هذا المصلح موقفاً من هذه القرارات الجائرة. فحرم علي نفسه اكل منتجات القمح والسكر حتي مات. ويحكي ايضاً ان احدي نساء الحي، جاءت لتسال الشيخ عن راي الدين في امر ما، ولم يكن الشيخ موجوداً. فإجتهدت زوجته من عندها وأفتت للمرأة في المسألة، وكانت مخطئة. وعندما علم الشيخ بما حدث. لم يتوان في ان يحكي هذا الموقف في كل المساجد، محذراً الناس من خطورة ان يفتي من لا علم له في امور الدين. لم يكن غرضه التشهير بزوجته، ولكنه احس بخطورة الأمر وما يمكن ان يترتب عليه. ولنقارن هذا بكل ما يحدث الأن. الكل يفتي ويكفر ويفسر كما يريد. الكل يتحدث في امور الدين كما يتحدث عن مباراة كرة قدم، دون معرفة. كثرت الإجتهادات فكثرت الخلافات، وكثرت الفرق الدينية.

أما الموقف العجيب الذي شهدته مع هذا الشيخ. فإنه كان علي خلاف مع إمام احد مساجد الجزيرة في مسألة دينية، ولكن الإمام حول الخلاف الي مسألة شخصية. فعندما جاء الشيخ صالح الي المسجد للوعظ بعد صلاة الجمعة، وفور الإنتهاء من الصلاة، غادر الإمام ، وطلب من المصلين مغادرة المسجد فور صعود الشيخ للمنبر. فتبعه البعض، ووقف الشيخ في المنبر يتابع الخارجين بهدوء، ثم قام بعد من بقوا من الرجال في المسجد، وكان العدد إثنا عشر رجلاً بالضبط ، فقال الشيخ صالح، سبحان الله، هذا هو نفس الموقف الذي مر به الرسول(ص)، عندما جاءت القافلة التجارية بعد طول غياب، تركه الناس واقفاً وذهبوا الي تجارة ولهو. فنزلت الاية (وإذا رأوا تجارة ولهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً) وشرح الشيخ صالح كيف ان الرسول قام بعَدّ من بقي من الرجال فكان نفس العدد، ووضح كيف ان الرسول قال للمصلين في ذلك اليوم، ان الله رحم اهل هذه الديار، وحماهم من مصيبة محققة، بفضل هؤلاء الإثنا عشر رجل، ثم وجه حديثه الي المصلين في صوت حزين وقال، لا ادري ماذا كان

سيحدث في هذا البلد اليوم ان لم تبقوا، هذا موقف حضرته بنفسي، ويعيش في داخلي من ذلك اليوم، ألا رحم الله صالحاً، واسكنه الجنة ، وبارك في ذريته، لم تمهله المنية ففقدته المنطقة كلها في عمر مبكر.))

الي هنا وانتهي حديث الأخ علي، والحقيقة أن الجزيرة إحتفت بذكراه العطرة، فأقامت بعض المراكز باسمه، كمركز صالح شبر الإسلامي في سقدان، والذي جاء ذكره في مكان آخر من هذا الكتاب.

منذ نهاية القرن السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثامن عشر والرحّالة الأوربيون يجوبون مجري النيل ويسجلون ملاحظاتهم واكتشافاتهم وانطباعاتهم ، متحملين في ذلك مشاق الطريق وعوائقه الكثيرة . ورغم أن غرضهم الأساسي كان إكتشاف منابع النيل إلا أنهم توقفوا في مناطق مختلفة علي إمتداد المجري ولمدد مختلفة . وكان لآثار المنطقة النوبية النصيب الأكبر من هذا الإهتمام . ومنذ تلك المرحلة من الزمن والي يومنا هذا . وإعتماداً علي ما تركه الأوائل من معلومات ووصف ورسوم ، مازالت الحفريات تتم والإكتشافات تتري ، وما زالت المنطقة تُذهل العلماء والباحثين والمهتمين بما هو مدهش وثمين . مازالت المنطقة تخرج من وعائها العامر والغني : تخرج الدلائل وتثبت بالبراهين أن حضارة وادي النيل بدأت هنا . في الجانب الجنوبي من الوادي ثم إمتدت شمالاً . في هذه المنطقة المعروفة حالياً بمنطقة النوبة . قامت حضارة كوش التي امتدت من شمال أسوان الي سهل البطانة جنوباً . وحضارة كوش هي إحدي أهم وأكبر وأعرق حضارات العالم القديم . ولم تكن تلك الحضارة ملكاً للمنطقة النوبية ولا (للسودان) الحالي . بل لعبت حضارة كوش دوراً كبيراً وأساسياً في تطور القارة الأفريقية . إذ كانت هي الوسيط بين أفريقيا وما حولها من حضارات . وعلي إمتداد مراحلها الأساسية الأولي في ممالك كرمة ، نبتة، ثم مروي. تجمعت عند كوش أفكار وعقائد حضارات العالم القديم . وقد قامت كوش بدور تاريخي في نشر هذه الأفكار والعقائد والقدرات الفنية الي جنوب وغرب القارة . وقد إكتشف المنقبون أن شطراً من أهل أفريقيا كبير عبدوا نفس الألهة التي عرفتها مروي ودانوا بنفس الديانات .

رغم أن تجربة كوش الحضارية هي أكبر تجارب ما يسمي الأن بالسودان . ورغم أنها الأوفر حظاً ومقدرة للإجابة علي سؤال الهوية وإشكالاتها المعقدة . ورغم أنها الوعاء الذي ينضح بالتفاعل الحضاري في السودان بخلفتيها المتوسطية والأفريقية . إلاّ أن البعض (بمن فيهم بعض الباحثين) يميلون إلي إهمال دراسة تجربة كوش باعتبارها حضارة قديمة سادت ثم بادت . والأفظع من ذلك ، أن البعض الاخر ينادي بعدم إبتعاث الكوشية القديمة باعتبار أن ذلك تأصيل للعودة الي ما قبل العروبة والإسلام (راجع محمد أبوالقاسم حاج حمد . المأزق التاريخي). والثقافة السودانية لايمكن ان تمثلها مرحلة تاريخية احادية واحدة بعينها . وتراث السودان الحضاري الأصيل سابق بكثير علي التكوين الحديث للسودان . وإختزال كل تلك الحضارة السابقة في الوجود (العروبي) . والدعوة الساذجة الي حصر الثقافة الحضارية السودانية في الإسلام والعروبة هي مغالطة سخيفة . فالتاريخ ثوابت غير قابلة للتجاهل ولا للمغالطة . التاريخ حقائق مجردة يجب أن تعرض بأمانة . وعدم الإعتراف بالحقائق التاريخية ليس إلاّ نكراناً للشمس في وضح النهار. وإذا أردنا أن نصل إلي سلام مع أنفسنا . إذا أردنا أن نخرج من مأزق الهوية وأزمتها . فعلينا التأسيس للارتكاز علي التاريخ الكوشي النوبي . تاريخ وادي النيل . الذي هو مهد الحضارات قاطبة . نحن الأن والحمد لله مسلمون . ولكن منطقتنا هي المنطقة الوحيدة التي جربت الأديان في كل صورها . بدءاً من ديانات كوش/ كرمة/مروي المتعددة والتي إنتهت الي ديانة أخناتون الذي كان أول من دعي إلي التوحيد . ثم اليهودية . ثم

المسيحية ثم الإسلام . وقد تقبلت المنطقة كل تلك الديانات بطوعها وإختيارها . ولا يخفي علي أحد آثارتلك المراحل وتأثيرها الموجود الي الأن . كما لا يخفي علي أحد كل المظاهر العقدية والأفكار الفلسفية والطقوس والتقاليد المشتركة بين تلك الأديان . ورغم أن صوتي هذا (اذان في مالطة) لا يسمعه أحد . إلاّ أنني أقول أن الهوية السودانية لن تتحدد . ولن تبين لها ملامح إلاّ بالعودة الي الدراسات الكوشية. وإدخالها في مناهج تربيتنا الوطنية . إلاّ بالعودة الي الأصل . الي المنبع . الي القرن السابع قبل الميلاد . الي حضارة كوش . ذلك التاريخ التليد . تلك الحضارة الإنسانية المتفردة والعظيمة . التي يسميها بعض المستعربين المتأسلمين (ثقافة تيه وضلال) . والحديث عن تلك الحضارة. وإثباتها. وإستخراج عِبَر التاريخ منها. لا ينتقص من صحة إسلامنا شيئاً. ولكن ما أسخف الإنسان حين ينفصم.

هناك الكثير من الأبحاث والدراسات التي تعني بحضارة كوش . وهذه الدراسات والأبحاث متاحة للقارئ العادي من أمثالنا . وما كتابتي هنا إلاّ تلخيص لما قرأت قديماً وحديثاً . وأنا أكتب من خلفية قارئ مهتم وليس من خلفبة باحث متخصص . أود أن أثبت ذلك . ثم أقول أن هناك تسميات كثيرة أطلقت علي السودان من قبل المصريين القدماء . مثال تا سيتي (أرض السهام). تا نتجر (أرض الالهة) أو تا نهسي (الأراضي الجنوبية) أو (نبو) . أو (واوات) أما الإغريق فمنذ أزمان هوميروس أطلقوا علي بلاد النوبة تسمية (اثيوبيا) وهي تعني ذو اللون الغامض أو المحروق . أما الإسم الرسمي والأكثر تداولاً للدولة التي قامت في المنطقة فهو (كوش) . وقد إستخدم المصريون هذا الإسم منذ عهد المملكة الوسطي . كما إستخدمه الاشوريون والفرس في مدوناتهم . وبهذا الإسم ذُكِرت البلاد في الكتاب المقدس . ومن الثابت أن ملوك كرمة ونبتة ومروي أطلقوا علي بلادهم إسم كوش . ثم جاءت تسمية (النوبة) في وقت لاحق . ولسبب ما غطت علي تسمية كوش . وبدأ تدوين الحضارة الكوشية تحت مسمي الحضارة النوبية . وبغض النظر عن أصل هذه الكلمة (نوبة) فإنها تدل دلالة قَبَلية . بمعني أنها تمثل إسماً قَبَلياً مثل أسماء القبائل الأخري في السودان . وقد أضرت هذه التسمية بحجم حضارة كوش وحصرتها جغرافياً . فعند ذكر النوبة أو الحضارة النوبية ينحصر مفهومها عند السودانيين الان علي مجموعة قبلية صغيرة (المحس) تعيش في رقعة جغرافية صغيرة في شمال السودان . حتي أن بعض السودانيين أو ربما الغالبية لا يعرفون أن الدناقلة نوبة . رغم أن معاهدة البقط المشهورة كانت في دنقلا . أما سكان المنطقة الممتدة من القولد الي ما بعد سوبا جنوباً فليس لديهم أدني معلومة عن حضارة كوشية أو نوبية . رغم أنها حضارتهم ورغم أنهم كوشيون نوبيون . ورغم أن هذه الحضارة إمتدت حتي سهل البطانة . ودخلت في صراعات مع مملكة اكسوم الأثيوبية . كما أنها إمتدت شمالاً حتي ساحل البحر الأبيض المتوسط . ودخلت في تنافس كبير مع الإمبراطورية الأشورية من أجل السيادة علي سوريا وفلسطين . إذن فمفهوم الحضارة النوبية بأفقها الضيق لايتطابق مع الواقع التاريخي الحقيقي لهذه الحضارة . ولذلك يجب أحياء وإبتعاث اسم كوش . ولا يقع عبء تلك المهمة إلاّ علي عاتق النوبيين لا غيرهم.

تلك الأبحاث والدراسلت سالفة الذكر تتحدث عن كوش من العصر الحجري القديم والمتوسط والحديث ، إلاّ أنني أتناول كوش بدءاً من حضارة كرمة ، التي إمتدت في مراحلها المختلفة من سنة (3000 الي سنة 1550 ق . م) ، وكانت كرمة في تلك المرحلة هي عاصمة كوش ، ولذلك حملت حضارة كوش في تلك المرحلة إسم حضارة كرمة (مملكة كرمة)، وحضارة كرمة تمثل تطور الدولة في كوش بصورتها الأساسية والفاصلة.

علي اليمين صورة الدفوفة، مركز حضارة كرمة ، وهي حسب حديث د. بونيه (علي اليسار)، كانت مبنى رئيسياً





متعدد الإستعمال ، فبالإضافة الي أنها كانت المركز الديني لكوش ، فقد كانت أيضاً محل لتصنيع وتخزين السلع النادرة قبل تصديرها إلي مصر شمالاً والي مناطق مختلفة في أفريقيا جنوباً ، ويشير د. بونيه الي ملحوظة أساسية وبالغة الأهمية ، وهي (أن الصعود الي أعلي الدفوفة يتم عبر سلم جانبي وليس عبر سلم يتوسط المبني مثلما هو الحال في المعابد المصرية) ، ويشير د. بونيه إلي أن (كرمة كانت قوية لدرجة أنها أخافت الأنظمة في مصر وجعلتها في قلق دائم)، وفعلاً ، فقد دخلت في صراعات متتالية مع الأسر المصرية ، فبعد طرد الهكسوس من مصر تفرغ ملكها (أحمس) لمواجهة التهديدات الخطيرة التي مثلتها مملكة كرمة ، توفي أحمس تاركاً العرش لابنه أمنحوتب الأول ، الذى شن حملات مكثفة على كوش ، وهى حملات استمر في تنفيذها كل من تحتمس الأول وتحتمس الثاني، إلا أن القضاء على المقاومة الكوشية في منطقة كرمة اكتمل فقط في فترة الحكم المشترك لتحتمس الثالث وحتشبسوت وتم تأسيس السلطة المصرية حتى الشلال الرابع في العام الحادي والثلاثين من حكم تحتمس الثالث 1460 ق.م.

كان من حسن حظ حضارة كرمة وآثارها المجيدة ، أن توفر لها عناية الدكتور شارل بونيه، وهو عالم آثار سويسري يعتبر من أكبر علماء الآثار في العالم الآن ، ترأس بونيه فرقة سويسرية عملت في آثار كرمة لمدة 43 عاماً ، ورغم أن التنقيب في آثار كرمة بدأ منذ سنوات بعيدة ، إذ كان الباحث الأمريكي جورج رايزنر قد نقب فيه في بداية القرن الماضي ، أي في حدود 1914 و 1918، ويعتبر رايزنر ممن أضروا التاريخ الكوشي ضرراً بالغاً ، إذ بعد تنقيب مكثف في بعض مناطق الآثار الكوشية توصل إلي أن تلك الآثار ما هي إلاّ بقايا غزوات مصرية ، وأعتبر أن الحضارة الكوشية



إمتداد متخلف للحضارة المصرية ، وكان في ذلك مخطئاً وعنصرياً منحازاً ، وعموماً فمن مصائب التراث الكوشي أن كل الذي وصلنا

تقريباً تم كتابته بأيدي غربية ، والأيدي الغربية في جلها ماكرة ، ملفِقة ، وغير أمينة ، إلاّ أن العمل الذي قام به دكتور بونيه ، وبالإضافة إلي عظمته ، فقد كان فاصلاً تصحيحياً لمغالطات رايزنر وغيره ، مرة بعد مرة أثبت بونيه أن هذه الآثار لم تكن بقايا غزوات مصرية ، بل كانت لحضارة أصيلة نشأت في هذه المنطقة ، وضمن دلائل كثيرة يقول شارل بونيه أن أكبر دليل على ذلك هو العثور على معبد ذي هندسة دائرية مثل ما هو موجود في روما او اليونان، ولا يوجد له مثيل في كامل مصر او على طول وادي النيل".مرة بعد مرة دعمت إكتشافات بونيه الفرضية القائلة أن كل حضارة وادي النيل القديمة بدأت في الجنوب ، في كوش ، في كرمة ، ثم إتجهت شمالاً ، ثم يوضح د. بونيه أن هذه الاكتشافات لها دلالة كبرى بالنسبة لكامل القارة الإفريقية ، وإنها حضارة أسطورية غير معروفة بما فيه الكفاية ، وبعد الاكتشافات المهمة التي حققها د. بونيه والفريق العامل معه ، والتي إستمرت كما سبق القول 43 عاماً ، توج د. بونيه هذه المجهودات الجبارة بإكتشاف تماثيل الفراعنة السود ، وقد مثّل هذا الإكتشاف ثورة لدي الآثاريين غيرت العديد من المسلمات السابقة ، ووضعت أجوبة متكاملة لكل ما كان مشكوكاً فيه ، تحدثت عن هذه الإكتشافات جهات إعلامية كثيرة ، أما الجهات المتخصصة في كل العالم فقد أصابها الذهول ، لكثرة المعلومات التي وفرها هذا الإكتشاف العظيم، وبالإضافة الي ذلك الإكتشاف فقد قام د. بونيه بمساهمة أساسية في إنجاز مشروع هام وكبير ، وهو تشييد مجمع حضارة كرمة (متحف كرمة)، الصورة إلي اليمين والمتحف يحتوي . بالإضافة الي تماثيل الفراعنة السود . علي مواد وتماثيل أثرية تغطي كل الحقب التاريخية التي مرت بها المنطقة.



في هذه الصورة (من متحف كرمة) تظهر تماثيل الفراعنة السود التي قام د. بونيه بإكتشافها في (دُكي قيل) غير بعيد من الدفوفة. تهارقا الذي يتوسط الجميع بقامته الطويلة ، متوسطاً تمثالين لتانوت آماني ، وفي الأمام إلى اليمين واليسار، نجد تمثالي سنكامانسكن بلباسه الديني وبغطاء الرأس الذي يحمل شعار الملوك الذين حكموا كوش ومصر ، وإلى اليمين، نشاهد تمثال أنلاماني بغطاء الرأس الذي يحمل إلى جانب شعار ملوك كل من مصر وكوش، يحمل قرون الإله آمون ، أما التمثال الصغير الذي يتقدم الجميع فهو للملك آسبلتا ، ويقول د. بونيه أن أسبلتا على الرغم من صغر قامته مقارنة مع قامة أسلافه، فإنه كان من أقوى الملوك الذين حكموا المملكة لأكثر من 25 عاماً ، وهو الذي نقل عاصمة المملكة من نبتة الي مروي|البجراوية.

بعد حملة تحتمس الثالث علي كوش والتي إحتلت الأراضي الكوشية حتي الشلال الرابع ، يبدو أن الكوشيين اخذوا وقتاً طويلاً حتي استعادوا السيادة الكاملة علي كوش ، ولما كانت كوش تدار بتنظيم قائم علي مشيخات وإمارات ، ولما ضعفت السلطة المركزية في مصر ، دخلت هذه المشانخ والإمارات في صراعات داخلية ، ولكن ، وتحسباً لغزو مصري جديد ، فقد بدأت محاولات لتوحيد كوش . فكانت بداية مملكة نبتة . ونبتة هي المدينة التي إنتقلت إليها العاصمة في (725 ق . م)

وتم توحيد كوش في عهد الملك آلارا ، الذي توج ملكاً بعد صراع مرير مع منافسيه.

وألارا هو أول ملك معروف من ملوك نبتة ، حكم ما بين (790 الي 760 ق م)

أحكم سيطرته تماماً علي كامل النوبة العليا ، وجعل من مدينة نبتة الواقعة أسفل الشلال الرابع ، عاصمة دينية لملكته.

ثم جاء بعده الملك كاشتا (760 الي 747 ق . م)

ويرجح أنه كان أخاً لالارا . نجح كاشتا في مد حدود كوش الي أسوان . وهو والد الملك الشهير البطل بيّا(بعانخي) 747 الي 715 ق.م

الذي أكمل طموحات والده وتمكن من احتلال مصر كلها وإخضاعها تماماً في حوالي (740 ق . م) ، وأسس دولة قوية إمتدت من البحر الأبيض المتوسط حتي الحدود الحبشية . وكما فعل والده فقد حكم بعانخي بإسم الإله آمون قائلاً (الألهة تصنع الملك ، والناس يصنعون الملك ، إلا أن آمون قد جعلني ملكاً ، وهبني آمون النبتى حق حكم جميع البلدان)، ويعتبر بعانخي هو أول من حكم مصر وهو في كوش ، إذ بعد حملته (الدينية المقدسة كما أعتبرها) علي مصر ترك حكم مصر لخلفاءه في(طيبة) التي كانت العاصمة الدينية لمصر في تلك المرحلة وعاد الي عاصمته نبتة التي أخذ في تجميلها وإنشاء المعابد الكبيرة فيها ، ومن هناك حكم مملكته مترامية الأطراف ، وهو أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين التي حكمت وادي النيل لمدة 80 عاماً ، توفي بعانخي في (715 ق . م) ودفن في نبتة حسب الطقوس الكوشية .

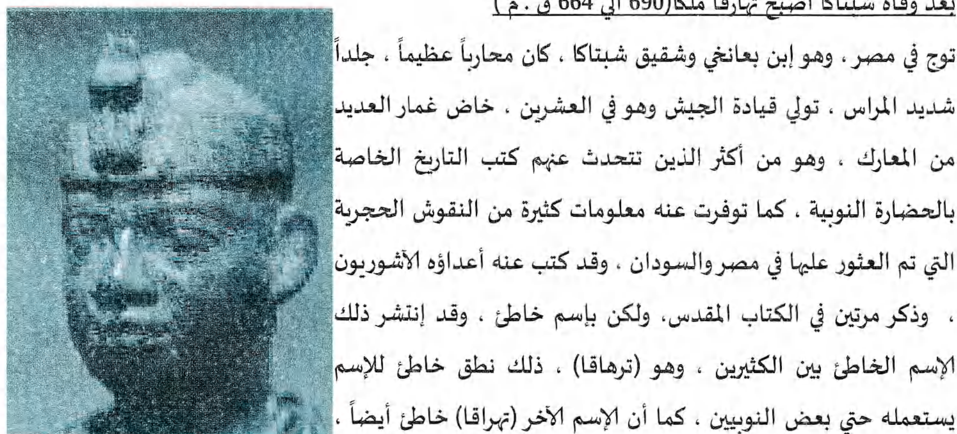
وكاشتا هو أيضاً والد الأميرة الكوشية المعروفة (أماني ريديس) التي صاحبت أخاها بعانخي الي مصر ، وأصبحت زوجة للإله آمون الطيبي ، وبدلت إسمها الكوشي بالإسم المصري الكهنوتي (اماني ريديس) . فكانت الزوجة الإلهية ، كانت من حيث المرتبة ملكة وإلهة حية ، وأصبحت مسئولة عن مصر العليا نيابة عن أخويها بعانخي وشباكا . عاشت أماني ريديس في مصر أربعين عاماً ، من بعدها، أصبحت الأميرة (شبينوت) إبنة الملك بعانخي زوجة للإله آمون.

خلف بعانخي علي العرش أخوه شباكا (شاباكو) ، الذي اصبح ملك كوش ومصر بين (716 و 702 ق . م) وفي عهده تجلت الأطماع الاشورية علي مصر وكوش ، فاضطر شاباكا الي البقاء في مصر مقيماً في منف ، مبقياً نبتة عاصمة للمملكة ، ولم يود شاباكا الدخول في حروب مع الأشوريين فتوصل الي إبرام إتفاق دبلوماسي معهم بتسليمهم أحد

المتمردين المطاردين من قبل الملك الآشوري سرجون الثاني ، كما أنه تقرب للنخبة الكهنوتية للإله بتاح في منف والإلهة تاست في بوباستس وغيرهم حتي كسب ودهم فأحس بالإستقرار ، عندما توفي حنط جثمانه ونقل الي الجنوب حيث دفن في هرمه الصغير في مقبرة الأسرة في الكرو قرب نبتة.

بعد وفاة شباكا إعتلي العرش <u>شبتاكا (شبيتكو) (702 الي 690 ق . م)</u>، ومن غير الواضح لعلماء الآثار حتي الآن إن كان شبتاكا إبن بعانخي أو إبن شباكا ، بمجرد أن أصبح شبتاكا ملكاً وجد نفسه أمام أزمة خطيرة ، إذ أصبحت التهديدات الآشورية القادمة من شمال العراق علي اراضي البحر الأبيض المتوسط حقيقية ، فأضطر الي السفر الي مصر ، ومن هناك إستدعي أخيه تهراقا (تهارقا) للقدوم الي مصر علي رأس جيشه من كوش ، ثم إتصل بحكام سوريا وفلسطين في محاولة لتكوين جبهة لمواجهة الأطماع الآشورية ، ثم جاءه طلب مساعدة من حزقيا ، ملك مملكة يهوذا ، فاستجاب له وأرسل حملة عسكرية بقيادة تهارقا ، دخل تهارقا مع الآشوريين في معارك متعددة ، وأبدي هو وجيشه بسالة شديدة ، ولكن لم يكن تهارقا مضطراً لمواصلة الحرب ، إذ تراجع الغزاة وذلك بفعل مرض فتاك إنتشر بينهم وأدي إلي وفاة الآلاف منهم ، وهكذا عاد تهارقا وسلمت المملكة من الغزو الآشوري ، توفي شبتاكا في مصر ، ورحل جثمانه الي مقبرة الأسرة في الكرو قرب نبتة.

<u>بعد وفاة شبتاكا أصبح تهارقا ملكاً(690 الي 664 ق . م)</u>



توج في مصر ، وهو إبن بعانخي وشقيق شبتاكا ، كان محارباً عظيماً ، جلداً شديد المراس ، تولي قيادة الجيش وهو في العشرين ، خاض غمار العديد من المعارك ، وهو من أكثر الذين تتحدث عنهم كتب التاريخ الخاصة بالحضارة النوبية ، كما توفرت عنه معلومات كثيرة من النقوش الحجرية التي تم العثور عليها في مصر والسودان ، وقد كتب عنه أعداؤه الآشوريون ، وذكر مرتين في الكتاب المقدس، ولكن بإسم خاطئ ، وقد إنتشر ذلك الإسم الخاطئ بين الكثيرين ، وهو (ترهاقا) ، ذلك نطق خاطئ للإسم يستعمله حتي بعض النوبيين ، كما أن الإسم الآخر (تهراقا) خاطئ أيضاً ، ولو أنه أقرب للصحيح ، علي كل حال ، فتهارقا هو الأكثر شهرة بين ملوك الأسرة الخامسة والعشرين ، وينظر إليه كواحد من الملوك الفاتحين العظماء ، كان معروفاً في سوريا وفلسطين وفينيقيا وعسقلان ومملكة يهودا ، فقد إدعي شرعية سيادة كوش علي الممتلكات المصرية السابقة في سوريا وفلسطين ، تلك الطموحات هي التي أدخلته في حروب عديدة مع الآشوريين بعد ذلك ، ففي عهده أصيبت الإمبراطورية الآشورية ببعض الضعف بالإضافة الي أنها إنشغلت بالحروب والإنتفاضات الداخلية ، فعاشت مصر وكوش فترة إستقرار خالية من التهديدات الخارجية ، وقد أثبتت الحفريات ودراسة رسومات ونقوش تلك الفترة أنه وفي العام (684 ق . م) إرتفع منسوب مياه النيل الي درجة غير مسبوقة ، كاد الفيضان يغرق المملكة كلها ، ولكنه تحول الي فيضان خير ، فتوفرت محاصيل إستثنائية زادت

المملكة ثراءً . وفي ذلك قال تهارقا في مدونات وجدت في تانيس بمصر وبكوة في السودان . ((أيًا آمون يا أبي. ياربُّ عرشي القطرين، لقد أنعمت عليَّ بأربع معجزات في غضون سنة واحدة، وهو العام السادس من تتويجي ملكاً. عندما فاض النيل ليبلغ مستوى يمكن أن يسبب انجراف المواشي وإغراق سائر البلاد، ولكن ظلت المناطق الريفية جميلة على مد البصر، ولم يسمح لرياح الجنوب أن تقضى عليها، وماتت القوارض والزواحف وطردت أسراب الجراد. وهكذا استطعت أن أحصد حصاداً وفيراً بكميات لا تقدر من أجل بيت الغلال المزدوج)) . كما توفرت ثروة كبيرة من الضرائب المفروضة علي المواطنين في كوش ومصر . بالإضافة الي العائد الكبير من العمل في مناجم الذهب في الصحراء الشرقية ، فشهدت السنوات الأولي من حكم تهارقا ازدهاراً هائلاً ، وتم تشييد العديد من المشروعات الحيوية ، كما تم بناء الكثير من المعابد في كل من مصر وكوش ، وقد توسعت مملكة نبتة في عهد تهارقا جنوباً حتي مكان يسمي (رتيهو قابت) وشمالاً في آسيا الي مكان يسمي (كبح حور) ولكن المواقع الحديثة للمكانين غير معروفة حتي الأن . ومن النصوص الكثيرة المكتشفة في (كوة) . وكوة هذه ليست هي (الكوة) التي تقع علي النيل الأبيض بل هي مركز أثري كبير يقع علي الضفة الشرقية للنيل في مواجهة دنقلا العرضي . من النصوص المكتشفة هناك فإن المعابد وجدت دعماً كبيراً حتي تحولت في كوش الي مراكز علمية كما هو الحال في مصر ، ووجد في معبد آمون بكوة أثار لمنجمين إستطاعوا تحديد الوقت بحركة الأفلاك بمساعدة أجهزة متخصصة . ومن المرجح أن أعمال صهر الحديد في مروي (كبوشية) قد بدأت في عهده . حيث بدأ العمل علي تطوير الأسلحة لمواجهة التهديد المستمر من قبل الإمبراطورية الأشورية . وبالفعل فقد شن الاشوريين في عام 647 ق . م هجوماً عنيفاً علي الكوشيين في مصر ، ولكن تمكن تهارقا من إلحاق الهزيمة بهم . ثم عاود الأشوريون الهجوم بعد ثلاثة أعوام ونجحوا بقيادة ملكهم أسارحادون في الوصول الي منف حيث المقر الملكي لتهارقا . فخرج تهارقا من منف تاركاً زوجاته وأبناءه فوقعوا في الأسر . بمن فيهم إبنه (أوشي ناحورو) الوريث الرسمي للعرش . ولم ينعم الأشوري اسارحادون كثيراً بإنتصاره الكبير إذ عاد تهارقا منتصراً الي منف في عام (669 ق . م) . وفي عام (666 ق . م) جدد الأشوريون هجومهم علي مصر بقيادة ملكهم أشور بن بعل . ووصلوا منف . فتراجع تهارقا من منف الي طيبة في جنوب مصر. ثم الي نبتة . ومات هناك في عام 664 ق.م قبل أن يتمكن من العودة لإستعادة منف . وترك الصراع بين مملكة نبتة والامبراطورية الأشورية علي اشده . دفن تهارقا في جبانة جديدة أنشأها في نوري. بلغ ارتفاع هرمه 150 قدماً وكان الأكبر من بين الأهرام التى شيدت في كوش . ومثلما حدث لمدافن أسلافه فقد تعرض مدفن تهارقا الي النهب والتخريب . ولم يتبق من جثمانه غير أجزاء من رجليه . ومن مرفقاته بعض الأواني الحجرية وبعض التماثيل. ولكن يبدو أن الكوشيين في مرحلة ما . ربما في عهد تهارقا . وصلوا الي فلسطين . فهناك الكثير من الكتابات (اليهودية) التي تدل بوضوح علي وجود أثر نوبي كبير في تاريخ القدس . والتوراة نفسه فيه الكثير من أخبار كوش . مثال ذلك كتاب (The Rescue of Jerusalem) لمؤلفه اليهودي (Henry T. Aubin) الذي يقول أنه لولا الحماية النوبية للقدس ضد الغارات الأشورية لما بقيت اليهودية ولما كانت هناك مسيحية علي الأرض، ويجدر بنا هنا أن نذكر أن العالِم الكبير بروفسر وليام آدمز

ذكر في كتابه الشهير (النوبية رواق أفريقيا) أن تهارقا في الغالب مدفون في منطقة آثار صادنقا شمال صلب. وأن مدفنه في نوري ما هو إلآ مدفن تذكاري، والبروفسر أدمز وكتابه المذكور من مصادر التاريخ النوبي الموثوقة.

بعد وفاة تهارقا . والصراع محتدم بين مملكة نبتة والإمبراطورية الأشورية للسيطرة علي مصر، تولي العرش في نبتة الملك تانوت أماني (تالتماني) الذي حكم بين (664 الي 653 ق.م) . و كان أحد أبناء شباكا . وفي عهده فقدت نبتة السيطرة علي مصر نهائياً . وهو الملك صاحب (لوح الحلم) الذي عثر عليه مع ألواح ملوك كوش الآخرين في جبل البركل . يشير اللوح الي حلم شاهده الملك في نومه . تُرجم ما في اللوح الي ((وفي عام تتويج جلالته رأى في المنام أفعيين ضخمتين واحدة على يمينه والأخرى على يساره. فاستيقظ جلالته وبحث عنهما دون جدوى. وتساءل جلالته: ماذا حدث؟ فقدم له البعض هذا التفسير: إن البلاد في قبضتك، وبقى أن تفتح شمالها أنهما السيدتان اللتان ظهرتا فوق رأسك لتمنحاك البلاد دون منازع)) وكما فعل والده شباكا وجده بعانخي . ولتحقيق ذلك الحلم الملكي . فقد توجه تانوت أماني الي مصر لإستعادة السيطرة عليها بعد أن تراجع الاشوريون . فوصل طيبة في جنوب مصر وزار معبد الإله خنوم . ثم سار الي منف وحاصرها واستولي عليها دون مقاومة تذكر . لما علم آشور بن بعل أو (آشوربانيبال) بسيطرة الكوشيين علي مصر مجدداً أرسل علي الفور جيشاً جراراً . كانت الإمبراطورية الأشورية هي القوة العسكرية العظمي الوحيدة في المنطقة في تلك الفترة . لم يصمد تالتماني أمام القوة الأشورية الغاضبة . فترك منف الي طيبة ثم تراجع الي كوش . فدخل الاشوريون طيبة ودمروها ونهبوا ما فيها . عاد تالتماني الي نبتة واستمر ملكاً علي كوش حتي توفي في 653 ق.م . وكان بذلك آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين . بعد ذلك لم تطأ أقدام الملوك الكوشيين أرض مصر . دفن تالتماني في مقابر الأسرة مع أسلافه في الكرو قرب نبتة . له تمثال وحيد عثر عليه في جبل البركل . يوجد حالياً في متحف تليدو للفنون في أمريكا.

بعد تانوت اماني حكم نبتة مجموعة ملوك من نفس الأسرة . خلفه علي العرش ابن عمه أتلانيرسا (653–643 ق.م) هو أحد أبناء تهارقا . وهو من الملوك الذين تحدث عنهم المؤرخ الإغريقي هيرودوت . له تمثال ضخم منحوت من الجرانيت عثر عليه في جبل البركل ويوجد الآن في متحف بوسطن للفنون الجميلة في امريكا.

خلف أتلانيرسا علي العرش ابنه سنكامانسكن (643–623 ق.م) الذي لا توجد له نقوش تاريخية . عُرف من آثاره فقط . له معبد صغير في جبل البركل . وتمثال ضخم يوجد الآن بمتحف السودان القومي للآثار في الخرطوم.

إعتلى العرش من بعده إبنه أنلاماني (623 -600 ق.م.) تعرف عليه الأثاريون من مسلة عثر عليها في كوة . شرق دنقلا العرضي . وجد له تمثال بالحجم الطبيعي في جبل البركل يوجد الآن بالمتحف القومي للآثار . أما قاعة عرشه الفعلية فموجودة في جبل البركل.

جاء بعده شقيقه أسبالتا (600–568 ق.م.) . واسبالتا من الملوك الذين توفرت عنهم ومنهم نصوص طويلة تحتوي علي معلومات كثيرة . فقد وجدت منه في جبل البركل نصوص تشرح عملية إنتخاب الملك وتركيب الدولة وبنيتها في كوش . هذه النصوص تشرح أن عملية إنتخاب الملك كانت تتم وفق تقاليد صارمة . كان الكهنة يثبتون أن الروح

الإلهية أشارت إليه . ثم تتم الموافقة من قبل المحاربين(الجيش) . وكان للكهنة أيضاً سلطة إقصاء الملك . والنص الثالث من نصوص إسبالتا يُعرف عند الأثاريين بـ (نص التكريس) . فقد قام إسبالتا بسن قوانين جديدة أراد بها إحتكار السلطة وإمتلاك صلاحيات الحكم كاملة في يديه . تلك الإجراءات أدت الي مواجهة بينه وبين الكهنة فأمر بقتلهم . ويبدو أنه كان طموحاً . فقد فكر في غزو مصر وإعادة مجد كوش . ووصلت أخبار طموحاته الي بسماتيك الثاني . ملك مصر في ذلك الوقت . فغزا كوش بجيش جرار كما سنيين بعد قليل . عند سماعه بخبر الغزو المصري . وفي عام 593 ق.م قام أسبالتا بنقل العاصمة من نبتة جنوباً الي مروي (البجراوية) . عُثر له تمثال ضخم من الجرانيت يوجد حالياً بمتحف بوسطن للفنون الجميلة، ويوجد أبوهول له في المتحف القومي للآثار في الخرطوم، هرمه موجود في نوري ويعد من أفضل المدافن وأكثرها اكتمالاً من بين المدافن والأهرام الملكية الكوشية، وهو أقلها تعرضاً للنهب.

ونذكر هنا أن طريقة الدفن في الغالب خاصة في مرحلة حضارة كرمة كانت تتم علي الطريقة الكوشية والتي كانت تختلف عن المصرية . إذ كان الدفن الكوشي يتم بوضع الجثمان في عنقريب وليس في تابوت . وكان الجثمان يوضع ممدداً علي جانبه الأيمن . وتم الكشف في آثار بعض المواقع عن مقابر جماعية . أذ كان علي الرقيق أن يرافقوا سيدهم الي العالم الأخر . فكانوا يدفنون أحياء بجانب مقبرة الملك . . ففي احدى المقابر وجد عدد من الموتى مكدسين جوار الحائط كأنهم ماتوا وهم يحاولون الخروج . كما عثر على بعضهم و هو يضع يده على عنقه . وبعضهم و هو يغطي وجهه أو يضع يده على رأسه . و قد عُثر في احدى المقابر على رفات ثلاثمائة شخص من الحاشية تم دفنهم مع الملك . وأيضاً تم إكتشاف بقايا حيوانية تبدو أنها من ممتلكات الميت . إحتوت مقابر الملوك والأمراء والملكات علي أواني من البرونز . وفخار . ومصنوعات من المرمر وأدوات للزينة وقطع ذهبية . ومن الواضح بالذات عند المرويين أنهم كانوا شديدي الاهتمام بحياة ما بعد الممات . وقد خلفوا في مدافنهم أدبا جنائزيا وأغراض أرادوا بها ضمان حياة أبدية لأنفسهم . أما التحنيط فلم يظهر له أثر إلاّ عند الملوك الذين دفنوا في الإهرامات بدلاً من المدافن التقليدية . وجدير بالذكر أن عدد الإهرامات في السودان يبلغ الثلاثمائة هرم . بينما عدد إهرامات مصر يبلغ نصف هذا الرقم.

سبق القول بأن تانوت أماني كان آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين . والذين حكموا كوش ومصر . بعده تأسست في مصر الأسرة السادسة والعشرين . بقيادة بسامتيك الأول . وإستمرت العلاقة بين نبتة ومصر في هدوء . ربما مشوب بالحذر . إذ لم يتخل ملوك كوش عن إدعائهم بشرعية وراثتهم للتاج المصري . ومن جانبهم عاش ملوك الأسرة السادسة والعشرين في مصر في قلق مستمر من أن يعاود الكوشيون غزو مصر . خاصة وأن الشعور العام في الأوساط الشعبية في مصر كان موالياً للكوشيين بإعتبارهم أبطالاً وفروا الحماية لمصر من شر الحكم الآشوري . هذا بالإضافة الي أن الملوك الكوشيين في الأسرة الخامسة والعشرين ظلوا في نظر الدوائر الكهنوتية المصرية هم حماة الدين والتقاليد . وذلك ما يفسر السياسة التسامحية التي إتخذها ملوك مصر نحو من بقي من الشخصيات

الكوشية الكبيرة ، فنري أن عابدة الإله شبنوبت (إبنة الملك بعانخي) تبنت نيتوكرس إبنة بسامتيك الأول. كذلك لم يتم إبعاد أفراد الطبقة الأرستقراطية الكوشية الذين بقوا في طيبة من المناصب العليا التى كانوا يشغلونها في السلك الإداري، أو في الدوائر الكهنوتية . ورغم التسامح الظاهري من ملوك الأسرة السادسة والعشرين نحو كوش وملوكها إلاّ انهم كانوا يضمرون الشر . وفي عهد بسامتيك الثاني بدأت إجراءات تهيئة الرأي العام المصري لغزو كوش . أصدر بسماتيك الثاني أوامره بإزالة أسماء الملوك الكوشيين أينما وجدت في مصر وإحلال إسمه بدلاً منها ، كما بدأ حملة مكثفة لتغيير صورة الملوك الكوشيين في أذهان المصريين من حماة للعقائد القديمة ومحررين لمصر من الغزاة الآشوريين وإحلال صورة جديدة تظهر الكوشيين كغزاة مستعمرين دمويين اغتصبوا السلطة الشرعية من الحكام المصريين ولبسوا التاج المصري من غير حق ، كانت مصر قد دخلت في الصراع الدائر لإقتسام تركة الإمبراطورية الآشورية المحتضرة في آسيا ، وتطلب ذلك تأمين الحدود الجنوبية من غزو مفاجئ من الكوشيين، بالإضافة لحوجة الإقتصاد المصري لذهب كوش ومنتجاتها الأخري ، وهكذا ، ومع بداية عهد الملك الكوشي إسبالتا ، قاد بسماتيك جيشاً كبيراً تألف من مصريين وجنود مرتزقة من الأغريق واليهود والفينقيين والليبيين ، وتقدم بهم حتي ثبت الحدود مؤقتاً عند الشلال الثاني.

كانت حملة بسماتيك من العوامل الرئيسية التي أدت الي نقل العاصمة الكوشية من نبتة إلى مروى بعيدًا إلى الجنوب. وربما كان هناك تفكير سابق من ملوك نبتة لنقل العاصمة الي مروى . فموقعها أكثر إستراتيجية من الناحية العسكرية والاقتصادية من نبتة ، فهي ملتقى للعديد من الطرق التجارية التى تربط البحر الأحمر بغرب القارة ، والطرق التى تربط الشمال بالجنوب. بالإضافة الي أن الأراضي المتاخمة لمروي أغزر أمطاراً وأكثر خصوبة ، ورغم أن اسبالتا هو الذي نقل العاصمة من نبتة الي مروي ، ورغم أن هناك عدد من الملوك حكموا مروي بعد إسبالتا إلاّ أن الآثاريين يعتبرون المؤسس الحقيقي لمملكة مروي هو الملك أركاماني . كو (270 . 260 ق.م) ، وهو من الملوك النادرين الذين ذكرهم المؤرخون الأغريق بالإسم. من تقاليد الدولة الكوشية أنه كان للكهنة الحق في تعيين الملوك وإقصائهم ، وعندما تولي اركماني الحكم سعي الي إجراء بعض الإصلاحات في نظام الحكم ، وكما حدث مع إسبالتا فقد دخل أركماني في مواجهة مع الكهنة ، وكان الكهنة إذا أرادوا إقصاء أحد الملوك يبعثون إليه برسالة يأمرونه فيها بالإنتحار ، بإعتبار الرسالة صادرة عن الإله مباشرة ، تسلم أركاماني إحدي تلك الرسائل ، وبدلاً من الإنتحار زحف بجنده الي معبد أمون النبتي في جبل البركل وأباد الكهنة عن أخرهم ، وقاد ثورة حقيقية علي الدولة الدينية ، فألغي ألوهية الإله أمون ، وقام بتعيين الإله الأسد أبادماك إلهاً رسمياً لدولة كوش ، وأصدر مرسوماً صادر به حق تعيين وإقصاء الملوك من الكهنة ، ويعتبر أركاماني أول العلمانيين في العالم ، كان أول ملك من بين ملوك العالم القديم الذي نادي بفصل الدين عن الدولة ، إذ فصل الممارستين الكهنوتية والسياسية ، ويثبت الاثاريون أن أركماني كان قد نال قدراً كبيراً من التعليم الإغريقي ، وتشير الأبحاث الي إزدهار الصلات التجارية بين كوش والإغريق والرومان من جهة ، وبين كوش والبطالسة في مصر من جهة أخري ، وقد تواجد العديد من التجار

والعلماء والرحالة والكتاب في مروي في ذلك الوقت . وعلي سبيل المثال فالعالم الإغريقي سيمونيد عاش خمس سنوات كاملة في مروي، ووضع كتاباً كاملاً عن كوش وثقافتها . وفي عهد أركماني بدأ الكوشيون التحرر الكامل من آثار الغزوات المصرية. فطوروا أساليبهم الفنية والمعمارية الخاصة بهم . وإخترعوا الكتابة المروية التي حلت محل المصرية . كان أركماني أول من شيد هرمه في مروي بدلاً من نبتة . مات في مروي ودفن في هرمه الرائع الذي يعكس مدي التطور الفني والتقني الذي حققته مملكة مروي في تلك المرحلة.

بجانب ملوك كوش العظام في مروي . والذين جاؤوا بعد أركماني . أمثال أديكالاماني وشناكداخيتي وباكرينسانا وتانيد أماني . كانت هناك ملكات مشهورات . نذكر منهن أماني ريناس (أماني رينا) 40 . 10 ق.م . ورغم أنها لم تكن أولي الملكات إلاّ أن شهرتها كانت أكبر . وهي زوجة الملك تريتكاس . وأعتلت العرش بعد وفاته . لقبت بـ (كوري) . بالإضافة الي لقب (كنداكة) الذي كان لقباً يمنح لكل ملكات كوش . إشتهرت أماني رينا لأنها دخلت في حروب مع الإمبراطورية الرومانية التي سيطرت علي مصر بعد هزيمة البطالسة . بدأت أماني رينا الحرب بالهجوم علي أسوان . واستولي جيشها علي تمثال للقيصر نفسه ونقلوه الي نبتة . وقرر الرومان إستعادة التمثال . فغزو كوش حتي وصلوا الي المدينة المقدسة نبتة . لم تكن الملكة في نبتة . ولكن الرومان لم يواصلوا سيرهم الي مروي . بل عادوا الي مصر بعد تخريب نبتة. وتركوا حامية في بريميس في الحدود . عادت الملكة الي نبتة . وهددت بالهجوم علي الرومان من جديد . ولكن توصل الجانبان الي إتفاق . سحب الرومان بموجبه تلك الحامية من بريميس . وأعادوا الأسري الكوشيين . وتم إعفاء مملكة مروي من الجزية . وتم ترسيم الحدود بين كوش ومصر الرومانية.

خلفت أماني ريناس علي العرش كنداكة أخري . هي الملكة أماني شاخيتي (10 الي 1 ق.م) . ربما كانت اخت الملكة أماني ريناس . أو ربما كانت هي الزوجة الثانية للملك تريتكاس . تشتهر عند الآثاريين بحبها للقوة والثراء . إذ شَيّدت مجموعة قصور ومعابد . وإقتنت كمية كبيرة من الحلي والمجوهرات . هرمها في مروي (البجراوية) من أكبر الأهرام التي بنيت . تظهر الملكة في رسوم مدفنها متزينة بجواهرها . حاملة أسلحتها تقتل بها الأعداء.

بعد أماني شاخيتي جاء الي عرش مروي ملك وملكة في ثنائية فريدة . حكما معاً كزوجين . وهذا الثنائي من أكثر ملوك العصر المروي شهرة . هما: نتاكاماني و أماني تاري (1 ق.م الي 20 ميلادية) . ورغم كثرة النقوش الخاصة بهما إلاّ أنهما لا يظهران منفردين علي الإطلاق . شيدا مجموعة مباني جميلة علي إمتداد المملكة أشهرها وأكبرها هو معبد آمون بالنقعة.



زوال مملكة مروي

عاش غالبية سكان كوش في مجموعات زراعية رعوية ، كانوا يقضون جزءاً من العام في مواقع إقامتهم على ضفاف الأنهار، يزرعون الأرض ويحصدونها، وبعد الحصاد ينتقلون بقطعانهم إلى الداخل ، الي المناطق الرعوية ، إلاّ أن سكان بعض المناطق المتاخمة للنيل كانوا مقيمين بصورة دائمة ، ومنذ عصر حضارة كرمة عرفت كوش علي إمتدادها حتي سنار ، عرفت نظام الري الصناعي ، وقد وجد الآثاريون سلسلة من الحفائر في مناطق مختلفة ، ويبدو أن المشائخ والزعماء والملوك إمتلكوا أعداد كبيرة من القطعان ، وكان للمعابد نشاطها الزراعي والحيواني الخاص ، كما عرفت كوش زراعة القطن ، وبالإضافة الي ما وفره النظام الزراعي والرعوي فقد كان لمناجم الذهب والحجارة الكريمة أثر كبير في ثراء كوش ، ولاننسي أن كوش كانت أولي الدول جنوب الصحراء التي دخلت عصر الحديد ، وقد وجدت أكوام عالية في مروي هي آثار الحمم التي كانت تخرج من افران صهر الحديد، ولكن ، ومنذ بداية القرن الميلادي الأول بدأ الضعف يعتري مملكة مروي ، وبدأت العلاقات في الإنقطاع تدريجياً مع عالم البحر الأبيض المتوسط ، ومنذ إنتقال عاصمة كوش الي مروي، إتجهت التطلعات السياسية والإقتصادية نحو الجنوب ، وأصبحت المدن والقري في الشمال مهجورة ، وتغير المناخ، وقلت الأمطار ، وبالتالي إنخفضت مساحات الزراعة والرعي ، وتزايدت حملات قبائل البدو الرعوية علي المدن والقري النيلية ، وأدت الأزمة المعيشية الداخلية الي ضعف القوة العسكرية لكوش، وتحرر مشائخ القبائل من سلطة مروي ، لذلك كله ، ونتيجة للضعف الذي أصاب مملكة مروي من جانب ، والإمبراطورية الرومانية من جانب آخر ، فقد ظهرت في شمال كوش وجنوب مصر قوة كاسحة أجبرت ملوك كوش كما أجبرت مصر الرومانية علي التعامل معها كقوة لا يستهان بها ، تمثلت تلك القوة في قبائل البليميين البدوية في الصحراء الشرقية والتي كانت تعيش بين تلال البحر الأحمر ووادي النيل ، وهذه القبائل تنتمي الي اثنية البجة ، وهم معروفون بـ (المدجاي) في النصوص المصرية القديمة ، شكّل البليميون و (النوباديون) خطورة كبيرة علي مصر الرومانية ، ولأن الإمبراطوية الرومانية لم تود في الدخول مع هذه القبائل في حرب ، فقد

توصلت مع المجموعتين الي إتفاق . وحسب هذا الإتفاق إستقر البليميون والنوباديون في مدن وقري علي النيل في أسوان وجزيرة الفنتين وجزيرة فيلة . وهكذا إستقلت النوبة السفلي عن سلطة مروي . لذلك كله فقد قلّ الأثر الحضاري في تكوين المملكة . وفقدت دورها الحضاري المركزي علي المحيط الأفريقي . وفي عهد قسطنطين الأول (306-337 م.) أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية للدولة في مصر . وبدأت محاولات نشرها الي كوش.

في نفس بداية القرن الميلادي الأول . وفي الوقت الذي ضعفت فيه مملكة مروي . كانت مملكة اكسوم في أثيوبيا في عنفوان إزدهارها . واكسوم إمتدت علي ساحل البحر الأحمر من باب المندب الي سواكن . ويبدو حسب الداراسات الأثارية لتلك الفترة أن العلاقة بين المملكتين كانت ودية وسليمة . حتي أن بعض العلماء يقولون أن الأكسوميون كانوا أصدقاء لملوك مروي . وأنه كانت هناك هدايا متبادلة . وقد تم الكشف في مدينة أكسوم علي مواد أثرية تطابق تماماً مواد أخري وجدت في فرس في شمال كوش . وقد حملت هذه الأثار رسوم مروية أصيلة . هذا بالإضافة الي ملاحظة التأثير المعماري المروي علي معمار أكسوم . ويبدو أن العلاقات بين المملكتين توترت بسبب أو آخر . ودقت طبول الحرب . والتقي الجيشان علي ضفاف نهر (التكازي) . نهر عطبرة حالياً . ومازال النهر يسمي تكازي في الجانب الأثيوبي . كان ذلك في عام 350م . وإنتصر عيزانا ملك أكسوم إنتصاراً مبيناً . وتفككت مملكة مروي العتيقة . وتحولت الي أقاليم متفرقة . وقد سجل عيزانا مسار المعركة وتفاصيل إنتصاره في نص طويل أورده الدكتور أسامة عبدالرحمن النور في مجلة الأثار السودانية في موقع (arkamani.org) من ترجمته عن الترجمة الروسية للنص إذ لم يترجم النص للعربية كما أوضح . يقول النص:

((بقوة سيد السموات الذى حقق النصر في السماء وعلى الأرض ضد (كافة) المخلوقات. عيزانا بن على أميدا. بسخالينا. نجاشي اكسوم. و حاكم حمير وريدان وسبأ وصالحين. و حاكم سيامو و البجة وكاسو. نجاشي النجوش. ابن على أميدا غير المهزوم أمام الأعداء. بقوة سيد السموات الذى وهبني السيادة على الجميع. جاعلاً منى محبوباً لديه. الملك غير المهزوم أمام الأعداء. لا يقف في وجهي عدو. ولا يطاردني عدو من ظهري بقوة سيد الجميع. هجمت على النوبا حين أشهر أهلها الحرب وتفاخروا : لن يجتاز التكازى قائلين لأهل النوبا. أساءوا معاملة أهالي مانجورتو والخاسا والباريا على الزرق هجموا وعلى الحمر هجموا. وخنثوا بعهدهم مرتين وثلاث . وقاموا مرة أخرى بقتل جيرانهم بلا رحمة. دع عنك سفيرنا وكل من ذهب من طرفنا وكل من أرسلته لهم لإعادتهم للانصياع. فإنهم سلبوهم ونهبوا ممتلكاتهم وسرقوا منهم صولجاناتهم. وحين راسلتهم مرة أخرى فإنهم لم يصغوا إليَّ ورفضوا العدول عن أفعالهم وتمادوا يراوغون ويمارسون الشرور. حينها هجمت عليهم. شرعت في حملة بقوة سيد الأرض. وتعاركت معهم عند نهر التكازى ومخاضة كيمالكى حتى لاذوا بالفرار وما توقفوا. تعقبت الفارين على مدى عشرين يوماً وثلاث فقتلت وأسرت واستوليت على الغنائم والأسرى الذين جلبتهم قواتي التي نفذت الهجوم. حينها حرقت مدنه (النوبا) تلك المشيدة بالحجر وتلك المشيدة بالتبن. ونهبت القوات حبوبهم وفضتهم وحديدهم ولحمهم المقدد. ودمرت رسوم معابدهم ومخازن حبوبهم وقطنهم. ورميتهم أنفسهم في نهر سيدا ومات الكثيرون منهم غرقاً أعدادهم غير معروفة.

عندها صعدت قواتي إلى داخل مراكبهم المليئة بالناس رجالاً ونساءً. أخذت في الأسر زعيمين كانا قد وصلا على ظهري جمليهما للتجسس واسميهما ابيّساكا وبوتإلى. كذلك أسرت إنجا بنتسا الكبير. أولئك الذين لقوا حتفهم من الزعماء دانوكفي. وداجإلى. وأناكفي. وحباري.وكاركارا. وجرح كاهنهم بداية و نزع عنه تاجه الفضي وخاتمه الذهبي. وأولئك هم الزعماء الذين لقوا حتفهم ووصلت إلى إقليم كاسو وقتلت منهم وأسرت عند ملتقى نهري سيدا والتكازى. في اليوم الثاني بعد وصولي (إلى هنا) أرسلت كتائبي: كتيبة ماحازا. وكتيبة حارا. وداماو. وفلاح. وسيرا إلى أعالى سيدا حيث المدن المشيدة بالحجر وتلك المشيدة بالتبن. وتسمى مدنه (الكاسو) المشيدة بالحجر علوة و دارو. وقتلت (القوات) وأسرت ورميت في الماء ورجعت بدون خسائر أصابتها بعد أن أدخلت الرعب في قلوب الأعداء و أخضعتهم لارادة سيدالأرض. بعد ذلك أرسلت كتيبة خالين. وكتيبة لاكن. وكتيبة صابرات. وفلاح. وسيرا إلى أسفل سيدا إلى مدن النوباالمشيدة بالتبن: نجفس. وإلى المدن المشيدة بالحجر والتابعة للكاسو لكن النوبا سلختها عنهم : تابيتووفيرتوتى. ووصلت القوات إلى مناطق خاضعة للنوبا الحمر. ورجعت قواتي بدون خسائر آخذة في الأسر بعد أن قتلت وسبت مواشيهم بقوة سيدالسموات. ونصبت عرشاً في موضع ملتقى نهرى سيدا والتكازى ضد المدن من الحجر التى هي في هذه الجزيرة. كل ما وهبني إياه سيد السموات: 214 أسرى من الرجال، و415 أسرى من النساء، كل ذلك كان 629الرجال الذين قتلوا 602، والنساء اللآتى قتلن والاطفال 156 كل ذلك كان 700 و 58وكان الأسرى والقتلى 1378، و كانت الغنائم من الأبقار 10.500و60، و من الضان 51.500. ونصبت عرشاً هنا في شادو بقوة سيد السموات الذى وهبني المساعدة و حباني بالملوكية)) إنتهي .

وكما فعل ، وما زال يفعل ، الملوك والأباطرة والحكام في كل أنحاء العالم ، في كل العصور ، فقد إدعي عيزانا أيضاً أنه يحكم بأمر الله ، وأن الله هو الذي يساعده ويوفر له العناية الإلهية. وأن الغنائم التي غنِمها فإنما هي هبة من سيد السموات. وكما نعلم فكلمة النجاشي لفظة حبشية. وهي لقب لمن ملك الحبشة. كقيصر لمن ملك الروم. وكسرى لمن ملك الفرس. وخاقان لمن ملك الترك. وفرعون لمن ملك مصر. في منتصف القرن الرابع تحول الملك عيزانا للمسيحة وارتبط بالكنيسة المصرية القبطية.

ومدينة مروي القديمة هي البجراوية الحالية ولم يتم حفر الآ مقبرتها الملكية و بعض قصورها و مرصد اسلبتا الفلكي و يعتقد الاثاريون ان مروي كانت مدينة كبيرة و ان الحفر الاثاري في محورها سوف يكشف الكثير من الأسرار ، وربما سيقود حتي الي فض اسرار اللغة المروية .

<u>ممالك النوبة المسيحية الثلاث:</u>

نوباديا ـ المقرة ـ علـوة

بزوال مملكة مروي وقوتها المركزية تحولت المنطقة كلها الي أنظمة حكم محلية في أقاليم ومشيخات مستقلة ، ثم وصلت المسيحية الي مصر ، ومثل كل الأنظمة والأديان التي حكمت في مصر فقد سعت مصر المسيحية الي الانتشار جنوباً فيما تبقي من كوش ، كانت كوش في تلك الفترة ، وبعد التفرق والإنقسامات التي سادت ، كانت كوش في

حوالي عام 540م قد إنتظمت في ثلاث ممالك ناشئة . مملكة بإسم نوباديا (نوباتيا) في أقصي الشمال بين مصر وكوش (تسمي بمملكة المريس أيضاً) . إتخذت من كلابشة عاصمةً لها في البداية ثم حولت العاصمة الي فرس ، وهي مملكة النوباديين ، الذين إشتق العرب من إسمهم تسمية (نوبة) والنوبيين فيما بعد. ولم يأت لفظ (نوبة) إلاّ في المصادر العربية ، مما يدل علي أن التسمية جديدة ، ثم قامت مملكة ثانية بإسم (المقرة) إمتدت من فركة جنوب وادي حلفا الي حدود الشلأل الخامس ، إتخذت من دنقلا العجوز عاصمة لها (قرية القدار الحالية) ، أما المملكة الثالثة فهي علوة ، وقد إتخذت من سوبا في جنوب الخرطوم عاصمة لها ، إمتدت هذه المملكة من الشلأل الخامس كحدود شمالية ، أما حدودها جنوباً ففيه خلاف ، ولكن الغالب أنها إمتدت في الجنوب الشرقي الي الحدود الحبشية ، وإمتدت غرباً الي كردفان ، ومن الثابت حسب المصادر أن نوباديا والمقرة أتحدتا وكونتا مملكة نوبادية مقرية موحدة سُميت (المقرة) كانت عاصمتها في دنقلا العجوز، إلاّ أن الجزء الشمالي (نوباديا) إحتفظ ببعض الإستقلالية وكان حاكم المنطقة الذي يعينه الملك يعتبر نائباً للملك في دنقلا ، ومملكة المقرة الموحدة هي المملكة التي توصّل معها المسلمون الي معاهدة البقط فيما بعد.

في القرن السادس الميلادي ، وفي عصر الإمبراطور الروماني جستنيان، تحولت تلك الممالك الكوشية الثلاث الي المسيحية ، وعملت الإمبراطورية البيزنطية علي دمج نوباديا في مصر تأميناً لحدودها الجنوبية ، فالكوشيون غير مضمونين ، فهم شكلوا علي مدي التاريخ خطورة بالغة وقاموا في احيان كثيرة بشن هجمات مباغة علي حدود مصر الجنوبية، وكما فعل الإسلام بعد ذلك ، فلم تنتشر المسيحية في كوش بالسرعة التي أرادها المبشرون الغزاة ، ولكنها إنتشرت بالتدرج ودان سكان كوش بالمسيحية علي المذهب الأرثوذوكسي القبطي ، وأنشئت الكنائس والأديرة ، وصبغت التقاليد المسيحية عادات السكان في الولادة والسماية والزواج ، وتغيرت طقوس الدفن المتبعة في الديانات المصرية والكوشية ، وتم قفل المعابد القديمة تدريجياً ، وأخذت العلاقات بين ممالك كوش والأنظمة في مصر تتأرجح بين مستقرة ومتوترة ، حتي بدأت الفتوحات العربية الإسلامية والتي وصلت مصر في حوالي عام 20 هجرية / 640 ميلادية ، وكالعادة ، دخل المحتل الجديد في مصر في مناوشات مع الممالك الكوشية ، وبدأ العرب في التسرب الي الأراضي الكوشية ، وبالذات الي الصحراء الشرقية ، وفي عام641 م تم غزو ديار النوبة (المقرة) رسمياً ، ودارت معركة حامية بين المقريين والمسلمين إنتهت بعقد معاهدة البقط المشهورة والتي سبق الحديث عنها ، بدأ الإسلام في الإنتشار تدريجياً ، أما اللغة العربية فقد واجهت صعوبات شديدة في الإنتشار ومازالت ، بالذات في مناطق كوش الشمالية ، بين أسوان في الشمال الي الدبة جنوباً ، مازال السكان متمسكون باللغة النوبية كلغة مخاطبة ، وبقاء اللغة النوبية وعدم إندثارها ـ كما قلت من قبل ـ وعدم مقدرة اللغة العربية محو النوبية والحل محلها ، إنما يعود الي التداخل المحدود الذي حدث بين السكان النوبيين والعرب الغزاة ، فعلي عكس ما يفهم البعض ويدّعي ، وتنفيذاً لبنود إتفاقية البقط ، لم يستقر العرب في مناطق النوبة إلاّ فيما ندر ، وعليه فلم يتم التزاوج الذي يدعيه (المستعربون) الذين يتنكرون لأصولهم النوبية النقية ، الذين يتمسحون بأعتاب الإثنية العربية دون لزوم ، وعلي

كل حال فتلك قضية أخري ، المهم أن مملكة المقرة بعد معاهدة البقط بقيت علي الديانة المسيحية . وإستمر ملوكها علي دينهم لعدة قرون.

في عام 1268 اعتلي عرش المقرة في دنقلا ملك مسيحي إسمه داؤد. بعث الملك داؤد الي السلطان المملوكي في مصر. الظاهر بيبرس. طالباً منه الإعتراف به ملكاً علي المقرة. فطالب بيبرس داؤد بالعودة الفورية الي الإلتزام ببنود (طيبة الذكر) إتفاقية البقط . وكان الملوك المقريين قد تخلوا عنها. وبدلاً من الإستجابة لطلب السلطان. قام داؤد في عام 1272 م بمهاجمة ميناء عيذاب. أهم الموانئ الحيوية لمصر. في ردة فعل عنيفة قام المماليك بإجتياح المنطقة الشمالية للمقرة (نوباديا) وأسروا حاكم المنطقة. وأخذوه الي مصر حيث أُعدم.

في عهد داؤد بدأت الدسائس السياسة تسيطر علي المملكة . وبدأها إبن أخت داؤد . الأمير النوبي (شكندة) . إذ سافر الي مصر وطلب من المماليك مساعدته لخلع خاله داؤد عن العرش وتنصيبه ملكاً علي أن يكون مطيعاً للسلطان المملوكي . لم يفكر المماليك مرتين . بل وافقوا فوراً علي مساعدته . ووضعوا قوة عسكرية كبيرة تحت أمره . في بداية عام 1276 م وصلت حملة شكندة شمال المقرة . فما كان من حاكم المنطقة الشمالية إلاّ الإنضمام الي الحملة . في أبريل من نفس العام وصلت الحملة الي دنقلا العجوز . فهرب الملك داؤد . وعادت الحملة الي مصر بعد تنصيب شكندة ملكاً علي عرش المقرة . وأخذ المماليك بعض الأمراء كرهائن . ولكن لم يدم شهر العسل طويلاً بين المماليك وشكندة . إذ سرعان ما تأمر المماليك ضد شكندة وأغتالوه عن طريق (براك) الذي نصبوه ملكاً . ثم تأمروا علي براك فأرسلوا الأمير سمامون الذي كانوا قد أخذوه رهينة . جاء سمامون الي المُلك بمكر تعلمه في مصر . فأخذ في مراوغة المماليك . وفشل المماليك مرات كثيرة في أسره أو قتله . فأستمر ملكاً علي مدي إثني عشر عاماً . جاء بعده الملك آمي . الذي لم يستمر كثيراً . إذ تم إغتياله . وخلفه علي العرش أخوه كودنباس (كُرُنبس) الذي كان أخر الملوك المسيحيين في المقرة . جاء بعده علي العرش (كنز الدولة) وقد تم تنصيب كنز الدولة من قبل أهل المقرة المسيحيين رغم أنه مسلم . احتراماً للتقاليد والأعراف. فقد كان "كنز الدولة" من أم دنقلاوية مسيحية (شقيقة ملك المقرة كُرُنبس) ومن أب نوبي مستعرب مسلم من قبيلة الكنوز . ولكنه علي كل حال إبن أخت الملك . فحق له المُلك . بعد ذلك إختلط الحابل بالنابل . وأصبح كل إبن أخت يغتال خاله ليعتلي العرش . ثم يُقتل بدوره . وتوالي علي عرش المقرة التاريخي ملوك (لحم راس) . إذ تعارك علي العرش بنو كنز وبنو جعد وبنو ربيعة وبنو عكرمة وبنو هلال وكل عارب ومستعرب من (الناهبين البدو) كما سماهم إبن خلدون . وظلت كذلك حتي زالت تماماً في عام 1323م . وإنقسمت المملكة بكاملها الي إمارات ومشيخات . حكمها أفراد إتخذ كل واحد لنفسه لقب (الملك) .

إلي الجنوب من مملكة المقرة . ومنذ حوالي عام 580م . تكونت مملكة النوبة المسيحية الثالثة . وهي مملكة علوة بعاصمتها في مدينة سوبا . ويبدو أن علوة عاشت لفترة طويلة في عزلة عن الشمال . ولبعدها في الجنوب فلم تتعرض للحملات العدوانية المصرية أو الفارسية أو الإغريقية أو الرومانية . بعد نشوئها بقليل تحولت علوة الي المسيحية وبدأت تستعمل اللغة الإغريقية . وواضح حسب المصادر أن علوة كانت مملكة ثرية وتمتعت بقدر كبير من

الإكتفاء الذاتي . فقد تمددت بين النيلين الأزرق والأبيض وضمت نهر عطبرة . تملكت أراضي زراعية مروية ومطرية بالإضافة الي المراعي الواسعة. ولذلك لم تتداخل كثيراً مع جاراتها في الشمال ولم تكن مضطرة لخلق علاقات مع مصر . تلك المراعي الواسعة كانت قد جذبت القبائل العربية البدوية التي تدفقت إليها علي مر الزمن . خاصة في العهود الطولونية والفاطمية والأيوبية . بالإضافة الي أعداد العرب الكبيرة الموجودة في تلك المنطقة . فقد كانت الصحراء الشرقية وبلاد البجة محتلة تقريباً من عدد من القبائل العربية تسللوا الي هناك عبر التاريخ . هذه الجماعات العربية البدوية المهاجرة أصبحت تشكل تهديداً حقيقياً للمملكة . وبالإضافة الي التهديد العربي البدوي الذي تعرضت له علوة . فقد تعرضت الي تهديد أخر من الجنوب والغرب . من سلطنة الفونج الزنجية . وفي عام 1504 م تجمع الشتات العربي تحت قيادة الزعيم العبدلابي عبدالله جماع . ودخلوا في حلف مع سلطان الفونج عمارة دنقس . وإنقض الحلف العربي الزنجي الإسلامي علي المملكة النوبية المسيحية . وخربوا عاصمتها سوبا (خراب سوبا). واقاموا علي أنقاضها السلطنة الزرقاء . التي إتخذت من سنار عاصمة لها . تمكنت السلطنة الزرقاء من توحيد جزء كبير من السودان الحالي . وحكمت حتي عام 1821م عندما غزا محمد علي باشا السودان . قاد الحملة العثمانية إبن محمد علي باشا . إسماعيل باشا . لم يلق إسماعيل باشا مقاومة تذكر حتي وصل ديار الشوايقة والجعليين حيث قاوموا قليلاً ولكنهم هُزموا . أرسل إسماعيل باشا الي السلطان محمد ود عدلان في سنار طالباً منه الإستسلام وإعلان الولاء للخليفة العثماني . وبدلاً من إعداد قواته للحرب أخذ ود عدلان يطلب العون من الأولياء والصالحين . ثم كتب لإسماعيل باشا رسالته المضحكة المشهورة: ((لا يغرنك انتصارك على الجعليين والشايقية، فنحن هنا الملوك وهم الرعية. أما علمت بأن سنار محروسة محمية، بصوارم قواطع هندية، وجياد جرد أدهمية، ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية)). ثم إختلف مع مستشاريه فتم إغتياله. وإضطربت الأحوال في العاصمة سنار، وكفي الله اسماعيل باشا وجيشه شر القتال، فدخلوا سنار أمنين. وبدأت مرحلة أخري من تاريخ السودان.

ويبدو أن خراب سوبا الأول لم يكن كافياً. فجاء خراب سوبا الثاني في عهدنا الحالي . فبعد بقاء المنطقة الأثرية بالمدينة بعيدة عن الأيدي العابثة. تعرضت المنطقة لإعتداء همجي وشرس من تجار الأراضي وأصحاب الجشع من المسئولين، وقد تم تقديم بلاغات من خفراء، ومفتشين، وباحثين، ومهتمين في مجال الأثار. حتي وزارة البيئة والأثار قامت بمخاطبة المسئولين في وزارة الزراعة الولائية والجهات المختصة، ولكنها صمّتْ أذنيها بطين الأرض المنهوبة . وإكتشف بعض المحققين الصحفيين أن المواطنين الذين أقاموا المزارع والحظائر والمجمعات السكنية لديهم تصاديق رسمية بإمتلاك تلك الأراضي . وليس للجشع حد . فمن الواضح أن المسئولين وراء تلك الحملة . وليس الدافع إلاّ مادياً.

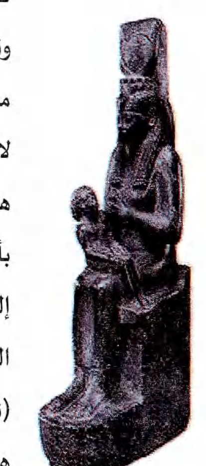
الاثار يا سادة كنوز لا تقدر بثمن، فهي تاريخ البلد ومرآة حضارتها . ليس من حق كائن العبث بها أو إزالتها . وتباً لدولة تبيع تاريخها وتحوله إلي حظائر. راجع (arkamani.org).



حفريات في سوبا شرق

قبل أن ترتبط أسباب السماء بأسباب الأرض ، وقبل أن يهدي اللهُ الإنسانَ من ضلاله بالديانات السماوية ، تاه الإنسان في بحث فكري بدائي عن قوة طاغية متملكة ، وقد نشأ هذا البحث نتيجة إحساس الإنسان بضعفه الكبير أمام قوي الطبيعة الخارقة وظواهرها المحيرة . فالرياح والأمطار والزلازل والفيضانات ، ثم الوحوش البرية الكاسرة والمفترسة ، بالإضافة الي الأمراض الفتاكة ، وما مثله الموت من خوف حقيقي من المجهول ، وتعاقب الليل والنهار ، وإنفتاح الفضاء أمامه وما فيه من أجرام بعيدة ، وإحساسه الطاغي بحوجته الي الي قوة تحميه من شرور الحياة . كل ذلك أدي الي توهان فكري بدائي للإنسان ، وكان من الطبيعي أن يتعلق هذا التوهان الفكري بالأعلي ، بالسماء ، فأخذ يتخيل أن في السماء قوي جبارة هي التي تسيطر علي الحياة ، ولا بد له من إرضاء تلك القوي ليتقي شرها ولينال رضاها ، هكذا أخترع الإنسان مفهوم الإله ، ولأنه يري ظواهر طبيعية متعددة ، لأنه يري الخير والشر، لأنه يري ثنائية في كل شئ، فقد تملكه إحساس بأن في الكون أكثر من إله ، لذلك إخترع مفهوم الألهة ، ولم تكن غير الأجرام السماوية البعيدة هي التي تستحق تلك الألوهية ، فنسب إليها العناصر الرئيسية في حياته ، فجعل لكل من الحياة والموت والمرض والخير والشر والحب والكراهية ، ثم المطر والفيضان والزرع والحصاد والبرد والدفئ ، ثم الخلفة والعقم والجمال والقبح ، ثم النصر والهزيمة في الحروب ، جعل لكل شئ إله مختلف ، وأخذ في نسج الأساطير والملاحم حول هذه الالهة ، وتحول إلي عبادتها والتقرب منها بتقديم القرابين ، ووجد في التوسل إلي هذه الألهة بشتي الطرق بعض الراحة والإحساس بالأمن. لأنه أوكل أمره إلي قوة غيبية خارقة ، ولأنه كان يري أقرباءه الذين ماتوا في أحلامه وهم يتحركون ويمارسون حياتهم العادية فقد أوصله تفكيره إلي أن هناك عالم آخر ينتقل إليه الناس ، وهكذا نشأت فكرة الحياة الأخرى ، ثم مع مر العصور أُلحق بها كل التصورات المصاحبة من حساب وعقاب وجنة ونار ، وقد تحولت الألهة عند الإنسان في فترات متفرقة الي آلهة أرضية ، فعبد الإنسان عدد من الحيوانات مثل البقرة والأسد والثعبان ، ومازال يعبدها حتي يومنا هذا ، وبالذات الشعوب الأسيوية في الهند ، ومن المرجح أن الهنود والفرس وسكان وادي النيل هم أوائل الشعوب التي إخترعت فكرة الألهة ، بل هناك الكثير من الأراء التي تؤكد أن فكرة الديانات بل الحضارة الإنسانية كلها بدأت في وادي النيل ، وفي وادي النيل جاءت فكرة التوحيد لأول مرة ، وكان أخناتون هو أول من أعلن عنها ، وأخناتون هو الفرعون أمنحتب الرابع ، وقد غير أسمه بعد تألهه ، فقد إعتبر أن أمون إله واحد متعال بذاته وبجانبه عدد من الألهة تقوم بتحقيق رغبة الذات الإلهية ، ثم جعل أمون الإله المطلق في السماء ، وجعل من نفسه إله علي الأرض ، وأعلن أن من يعبده فقد ضمن رضي إله السماء ، وهي نفس السياسة الدينية الإجتماعية الإقطاعية التي مارسها من يُسمون برجال الدين من كهنة وقساوسة وفقهاء في كل العصور وفي كل الديانات ، لا يستثنى إلاّ من رحم ربي.

ينسب العلماء والباحثون نشأة الفكر الميتافيزيقي الي مدينة (أون) وهي هليوبولس كما سماها اليونانيون ، وهي ضاحية تقع شمال شرق القاهرة . هناك نشأ أقدم مذهب فلسفي ديني لتفسير الوجود ونشأته ، وكانت نظريتهم تقول أنه في البدء كان (نون) موجوداً وحيداً في الوجود ، وكان محيطاً أزلياً مظلماً ، ومن ذلك الظلام خرج إله الشمس آمون رع، وإسمه يعني الخفي، الذي لا يمكن إدراكه، خرج بقدرته الذاتية دون معين ، لأنه كان هو كل شيئ في الوجود ، ثم إختار هذا الكامل مدينة أون ليجعل منها مركزاً للخليقة كلها ، ويوماً ما عطس آمون رع أتوم فنطق بأسماء أعضاء جسمه ، التي شكلت الآلهة ، فخرج الإله (شو) إله الهواء ، والإلهة (تفنوت) إلهة الندي والرطوبة ، ثم إلتقي شو وتفنوت بمشيئة آمون، وأثمر اللقاء عن إنجاب الإله الرابع (جب) إله الأرض ، ثم قام الإله شو بفتق الأرض الي قسمين ، وخلق في السماء الإلهة (نوت) ، ثم تزاوج نوت وجب وأنجبا أربعة أبناء (آلهة)، ولدان هما أوزيريس وسيت، وبنتان هن (إيزيس) ونبت حت أو(نفتيس) ، ثم قدر لهم أبوهم رع اتوم تعمير الأرض بالبشرية ،



فتزوج اوزيريس أخته إيزيس ، وتزوج سيت أخته نبت حت وأنجبوا كل الخلق الذين هم أشباه للإله ، إذ نشؤوا من بدنه ، ان الإله اوزيريس الذي هو إله الخصب وإله مملكة الممات أيضاً أُعيد إلى الحياة بواسطة زوجته ايزيس التي كانت مسئولة عن إحياء الموتي ، فقد قام سيت (اله الربكة والفوضي) بقتل أخاه اوزيريس وتمزيق جسده وتوزيع أشلائه في كل أنحاء البلاد، ولكن إيزيس زوجة ايزيريس تمكنت من جمع هذه الأشلاء وإعادة ايزيريس الي الحياة مرة أخري، ثم حملت منه دون مضاجعة وأنجبت إبنها حورس (الإله الصقر)الذى أصبح وريثاً لعرش والده، وانتقم لأبيه أوزوريس الذى أصبح ملكاً على أرباب العالم الآخر، ثم أصبحت إيزيس رمزاً للزوجة المخلصة والأم الحنون، وكثيراً ما صورت إيزيس في التماثيل وهي ترضع الطفل حورس، وهناك تشابه بين تماثيل إيزيس التي ترضع وليدها حورس، وما ظهر فيما بعد من الصور المسيحية للسيدة العذراء والطفل يسوع، وفى التمثال يظهر على رأس الإلهة قرنا البقرة حتحور وبينهما قرص الشمس.

في وادي النيل أيضاً ، وقبل المسيحية بمراحل نشأت فكرة (التثليث) ، وقد تمثلت زواياه في (إيزيس وإبنها حورس وزوجها أوزيريس الذي أنجبت منه دون مجاضعة) ، كما عرفوا فكرة الإنسان الكامل ، التي تجسدت عند المتصوفة فيما بعد، ومن نافلة القول أنهم عرفوا الآخرة والخلود، ان التأكيد على وجود الحياة الأخرى هي من معالم حضارة وادي النيل القديمة، حيث تتم محاكمة الإنسان في العالم الآخر ، يكون اوزيريس قاضياً، ويقوم انوبيس إله الموت بوزن قلب الإنسان ، وفي الكفة الأخرى للعدالة توجد الإلهة معات، ويقوم الإله توت (إله القمر والحكمة) بتسجيل النتيجة، وفي نهاية المحكمة على الميت أن يقدم اعترافاً ويقدم تبريراً لما قام به من أفعال في العالم الأرضي، ومن المعلوم أن سكان وادي النيل كانوا من أكثر الشعوب تعبداً ، أذ أخلصوا لآلهتم ، حتي أن إنسان وادي النيل كان لا يتذوق ثمار محاصيله ولا ينتفع بحيوانه قبل أن يقدم لآلهته أولاً، بل بالغ هذا الإنسان لدرجة أنه كان يضحي

بفلذات أكباده علي مذابح الآلهة . وكان لا يتواني في إلقاء أجمل الفتيات في جوف النيل . هكذا عاش الإنسان النوبي في ممارسات وطقوس دينية متعلقة بكل شيئ في حياته اليومية . ورغم أن الإله آمون/آمان كان معروفاً وعُبد بصورة أساسية في كوش . ورغم أنه كان هو الإله المعبود في مملكة كرمة . إلاّ أن مركز عبادته ومقره الرئيسي المقدس أصبح في نبتة . وكان يعرف بـ (أمون النبتي) مقابل (أمون الطيبي) في مصر . وطيبي منسوب الي مدينة طيبة في جنوب مصر والتي كانت العاصمة الدينية المصرية لفترة طويلة . وكانت نبتة هي العاصمة الدينية لكوش . حتي بعد انتقال المملكة الي مروي . وكان جبل البركل هو الجبل المقدس . إذ شُيِّد هناك معبد آمون الكبير . وعنده دفن الكثير من ملوك مروي . وعادة ما يستنتج المؤرخون القيم الثقافية للشعوب القديمة من ديانات تلك الشعوب. ولكن في حالة مروي. فاللغة الأساسية التي كتبت بها تفاصيل الثقافة الدينية التي سادت في تلك المرحلة لم تتم قراءتها بصورة كاملة بعد. ولذلك يجد المؤرخون صعوبة بالغة في تحديد المعتقدات الدينية لملكة مروي بوضوح مؤكد. ولكن النصوص المرويّة التي تمكن العلماء من فهمها تشير إلي أن المرويين تميزوا بالورع الشديد تجاه الآلهة. والنقوش التي تركها المرويون علي المسلات وموائد القرابين والأغراض التي وجدت في قبورهم بالإضافة الي النقوش الموجودة علي جدران المعابد. كلها تشير الي أن المرويين كانوا شديدي الإهتمام بما بعد الموت. وأنهم أرادوا أن يضمنوا حياة أبدية ومباركة في العالم الآخر. وبجانب أمون عبد الكوشيون الإلهين إيزس وأوزيريس . كان أوزيريس هو صانع الحسنات والمرشد العام الي العالم الآخر. كما أنه كان يعتبر (المسيح المنتظر) أو (المهدي المنتظر) . بينما كانت إيزيس مسئولة عن إصدار التصاريح بإحياء الموتي . كما أنها كانت تعتبر (مخترعة) الزراعة ومُباركة المحصول . وفي ألواح القرابين نجد أيضاً الإلهة نفتيس والإله أنوبيس . كما أن الكوشيين عرفوا الإله أبادماك الذي كان الإله الرسمي للدولة في عهد الملك أركماني. والحقيقة أن فكرة الموت والخلود والحياة الأخري. وفكرة التناسخ. وفكرة الثنائية في الكون. ووجود آلهة خير وآلهة شر. كل تلك الأفكار كانت موجودة عند كل شعوب العالم القديم. في حضارة وادي النيل التي تحدثنا عنها. وفي حضارة وادي الرافدين والفارسية و اليونانية والرومانية والهندية. حسب دياناتهم وثقافاتهم وبيئتهم. وقد تجلت تلك الأفكار فيما تركته تلك الشعوب من أثار تتعرض للثقافات الدينية والإجتماعية والفلسفية والطبيعية التي عاشت عليها وما زالت. ففي الديانة الهندوسية مثلا. هناك عقيدة الكارما والتناسخ وفكرة التوحد ين اتمان وبراهما. يشكل براهما ماهية العالم وأصل الموجودات. بينما اتمان هي الذات الفردية (النفس) الموجودة في الطبيعة. والتي تتحد بما هو خارج عنها (الروح) فيتكون الإنسان. ثم يرتقي اتمان في طريق الكارما بالزهد والمعرفة والسيطرة علي الذات حتي يذوب في البراهما فيقول أنا هو براهما. وهذه الفكرة ليست بعيدة عن أفكار المتصوفة لدينا. أما في الديانة البوذية فلا يوجد مفهوم الحياة الأخري وحساب ما بعد الممات. ولكن يوجد مبدأ النرفانا. وهي الحالة الطوباوية في تلك الديانة. وللوصول الي تلك المرحلة يمر الإنسان بسلسلة طويلة من عمليات الموت والولادة المتعددة. والتي يمارس فيها الزهد والتنسك. حتي يصل مرحلة الكمال التي يعي فيها ذاته. وعندها تتوقف رغبات وغرائز الإنسان نهائياً. فيتحول الي خير مطلق. أما في الديانة الزرادشتية فالفكرة

الأساسية فيها هي ثنائية الخير والشر. يتمثل الخير في الإله (اخورا مازدا) ويتمثل الشر في الإله (اهريمان). والزرادشتية من الديانات التي تتطور عبر التاريخ. وفيها أن الإنسان يحاسب في الآخرة علي أعماله وأفكاره. ويفوز الخيرون بالخلاص والخلود. وفي مجموعة الديانات التي إعتقد بها سكان وادي الرافدين تظهر فكرة الخلود بصورة واضحة. كما في أسطورتي كلكامش وعشتار. أما في الفكر الإغريقي والذي كان أهم فكر فلسفي عقلي في التاريخ فالمدارس الفكرية كثيرة. ولكن أهمها هي فلسفة أفلاطون. وأهم ما عند أفلاطون هو نظريته الشهيرة (المثُل). والتي نجد فيها تشخيص واضح لفكرة وجود النفس (الروح) التي هي أبدية. والجسد الذي هو زائل. فهناك عالمان. عالم المثُل المستقر الثابت الذي لا يتغير. وعالم الواقع المادي المعرض للتغير والزوال. إن الروح من عالم المثُل. لذلك هي أبدية. أما الجسد فمن عالم الواقع لذلك فهو زائل. والروح في هذا العالم تتصارع مع الجسد لتتحرر منه وتعود الي ابديتها في عالم الخلود. وليس من المستبعد أن تكون هذه الحضارات قد تأثرت ببعضها البعض. وان يكون وادي النيل من المناطق التي وصلت إليها مفاهيم دينية من مناطق أخري.

كان الزواج والطلاق من الأمور المدنية التى كان يحكمها العرف والتقاليد فى وادي النيل. ولم تتحكم الديانة أو القانون فى الزواج أو الطلاق سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. وفى العصور المبكرة كان الزواج يتم بدون عقد. ولكن بشهود. ومنذ القرن التاسع قبل الميلاد كانت عقود الزواج تكتب. إلا أنه لم يكن لها صيغة محددة. وكان هناك قواعد وشروط وشهود لا بد أن يكونوا حاضرين. وكان على الرجال أن يقدموا لزوجاتهم الهدايا والأثاث والمنزل. وبعد الزواج كان الزوج يعطى زوجته ثلثى ممتلكاته. وكان هى من حقها الإحتفاظ بنصيبها التى جلبته معها من بيت أسرتها. وكان الطلاق مسموح لعدة أسباب مثل الكراهية أو إذا وقع أحد الزوجين فى الزنا أولم يكن قادراً على الإنجاب. وفى هذه الظروف كان من حق الزوجة الحصول على تعويض.

مهما كان الأمر. فقد كان الإنسان النوبي متحضراً وواعياً من الناحية الدينية . كان مؤمناً وخاضعاً الي إله في السماء . ولذلك فعندما جاءت المسيحية . وتم التبشير بها . لم تجد صعوبة . إذ صادفت عقلاً واعياً وروحاً مؤمنة . فلم يحدث تغيير كثير لا في فكر ولا في أعماق هذا الإنسان . تحول المعبد القديم الي كنيسة . وأصبح الكاهن قسيساً . وتحول الثالوث النوبي (إيزيس . حورس . أوزيريس) الي (الأب . الإبن . الروح القدس) . وأصبحت الرسومات ترمز إلي المسيح وأمه بدلاً من إيزيس وحورس . ولم يتغير جوهر الإعتقاد في الالوهية . وهكذا أيضاً عندما جاء الإسلام . تحولت الكنائس الي مساجد . وذابت الممارسات والطقوس القديمة بيسر وسهولة . وتحولت الي تقاليد إسلامية رغم أنها تحمل أصل عبادة آمون أو الشمس أوتقديس النيل . تغيرت الأسماء والتفسيرات لفكرة واحدة . وكان الإسلام من السماحة بحيث إستوعب كل ذلك . فهو دين الفطرة . وظل الإنسان النوبي كما هو . مسالماً طيباً . مزارعاً مرتبطاً بنيله وأرضه . ينتظر الفيضان كل عام . رغم خوفه منه. كانت المناطق النوبية من أسلم وأأمن المناطق علي الكرة الأرضية علي الإطلاق. كانت أبواب البيوت مفتوحة علي مصراعيها طوال النهار. كانت ربة البيت عندما تقوم من نومها في الصباح الباكر أول ما تفعله هو فتح الباب. كان من العيب قفل الباب بالنهار. كان الجيران

يدخلون البيوت ويستلفون منها الأشياء حتي في عدم وجود أصحاب البيت، ولم يكن التواصي بحق الجار من منطلق ديني، إنما كان من منطلق أخلاقي فطري، والبيوت كانت متداخلة ببعض، بيت واحد يسع عدة أسر، لكل أسرة صغيرة غرفة او اثنتان، كانت النفوس طيبة، والقلوب نقية، والمعيشة هنية، ومصدر الرزق واحد، هو الساقية التي تدور بالخير العميم على الجميع.



من الآثار التي أذكرها هنا، أثر منقوش علي لوحة المجاعة بجزيرة سهيل بأُسوان، يتحدث النص عن المجاعة التي حدثت عندما توقف الفيضان لمدة سبع سنوات في زمن الملك سنفرو من عصر الأسرة الرابعة حوالي 2650 ق . م ، وكيف أن الملك جمع الكهنة وإستشارهم في الأمر، فأشاروا اليه بأن يقدم القرابين لخنوم إله الماء في أسوان، وأن يزود معبده بالعطايا، ونفذ الملك الوصية، فرحمهم الإله وأمر النيل بالفيضان، والإله خنوم المذكور هنا من كبار الآلهة ، بل كان القدماء يعتقدون أنه هو الذي يصنع البشر من طين الصلصال ثم ينفخ فيهم الإله آمون من روحه فيهبهم الحياة . ومما يجدر ذكره أن نهر النيل كان طريق النقل الرئيسي، ولكن الملاحة فيه كان ينطوي علي خطورة كبيرة بسبب التماسيح، ولإبعاد خطر التماسيح شيدوا معابد للإله (سوبك) الإله التمساح في مناطق متفرقة علي نهر النيل، وكانت توجد في كل معبد غرف جوفية (بحيرة صناعية) كانوا يحتفظون فيها بتمساح حي يتلقي القرابين والصلوات.

وربما كان من الأنسب أن نختم هذا الجزء بفقرة مختصرة عن الإله آمون ، وهناك كتابات ودراسات كثيرة عنه ، ولكني أكتفي بكتابين قيمين موثوقين ، ثم ببعض المقتطفات من مصادر مختلفة.

للراحل البروفسير أسامة عبد الرحمن النور كتاب قيم جداً إسمه دراسات في تاريخ السودان القديم : نحو تأسيس علم الدراسات السودانوية، صدر عن مركز عبدالكريم ميرغني، 2006 ، والكتاب مذكور في موقع أركماني ، ولكن لا يوجد من محتوى الكتاب إلاّ مقدمته ، وقد بذلتُ كل ما أستطيع من جهد للحصول على الكتاب وباءت محاولاتي بالفشل ، ولكن أسعدني جداً أن وجدت بعض المقتطفات من هذا الكتاب في المواقع الأسفيرية المختلفة ، وإشارتي لبعض الفقرات من هذا الكتاب مقتبس من هذه المواقع ، ((ورد في ص347 قال الملك بيا (بعانخي) في وصيته للجند الذاهبون للقتال في طيبة (الأقصر) في حوالي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد قال الملك" لا تنقضوا علي العدو ليلا و كأنكم تلعبون و تلهون، لا تحاربوا إلا و أنتم مبصرون، خوضوا ضده المعركة دون الاقتراب منه و إذا قال لكم انتظروا المشاة و سلاح المركبات القادمة من مناطق أخري،

فتريثوا لحين وصول جيشه و لا تبدأوا المعركة الا عندما يطلب ذلك ، و إذا كان حلفاؤه في مدينة أخري فأصدروا الأوامر بالانتظار حتى يصلوا، حاربوا في المقام الأول القادة العسكريين المرافقين له كحلفاء و حرسه الخاص من الليبيين. و عند استعراض الجيش لا ندري لمن نوجه الحديث فنقول " أيا أنت أسرج أفضل ما في اسطلبك من جياد و هيئ نفسك للمعركة عندئذ سيعرف أننا رسل آمون.))

وأيضاً للبروفسير عمر حاج الزاكي كتاب قيم جداً في تاريخ السودان القديم (بالذات العهد المروي) من اصدارات دار النشر جامعة الخرطوم مطبوعات كلية الدراسات العليا ، وهو أيضاً كتاب لم أتمكن من الحصول عليه ، والفقرات المقتبسة من الكتاب في هذه الصفحات مأخوذة من المواقع الأسفيرية . جاء في الصفحة 16 من كتاب د. عمر في نفس المنحي (بعانخي يخاطب الجيش فيقول ما يلي ((انغمروا في الماء و تطهروا في النهر و ارتدوا الكتان النقي و حطوا الأقواس و القوا السهام جانبا و لا تتباهوا بأنكم أصحاب سلطة في حضرة الذي بدون رضاه ليس للشجاع قدرة (المقصود الإله آمون طيبة) فيجعل الضعيف قويا و الجموع تتراجع أمام القلة و تعود أدراجها و يتغلب الفرد علي ألف و تبللوا بماء هياكله و قبلوا الأرض بين يديه و قولوا له: أرشدنا إلي الطريق فلنحارب في ظل قوتك و لتكن معارك المجندين الذين بعثت بهم مظفرة ، و ليستولي الرعب علي الجموع عندما تواجههم.))

هو الإله آمون ، الذي عبده سكان وادي النيل لمدة ستة قرون أو أكثر ، الإله الذي بإسمه حارب الملوك ، مستنصرين به ، هو الإله الذي كانت الصلوات تؤدى في معابده ، وحسب الكتابين المذكورين آنفاً بالإضافة إلي مصادر أخرى فإن الإله آمون هو في الأساس معبود سوداني تعود فترة معرفته إلي ما قبل مملكة كرمة ، ثم إنتقلت عبادته إلي الأسر المصرية مع إنتقال الحضارة شمالاً من الجنوب ، ثم عاد الكوشيون إلي عبادته مرة أخرى. وله معبد كبير في منطقة الضانقيل الأثرية شمال مدينة بربر.



الصورة هنا تمثل تعامد الشمش السنوي على تمثال أمون رع في معبد الكرنك في الأقصر والذي يحدث في ديسمبر من كل عام.

من الملاحظات المهمة أنك حينما تقرأ ترجمات النصوص الأثرية القديمة فإنك تجد أن مفهوم (الإله) وعلاقة (الإنسان) به في الحضارات القديمة لا تختلف كثيراً عن مفهوم الإله في الديانات الرئيسية المعروفة . بل أن بعض التفاصيل تتطابق . وأن دُور العبادة في الديانات الحديثة ما هي إلاّ صورة مختلفة قليلاً عن تلك الأثرية . فالمعابد الحالية وملحقاتها تشبه إلي حد كبير معابد الآلهة القديمة . وبعض الطقوس والممارسات التي تتم داخل المعابد الحديثة كانت تتم بطريقة مشابهة في المعابد الأثرية .

تقع الجزيرة تقريبا في الحد الفاصل ما بين مناطق الدناقلة والمحس، وسكان الجزيرة كلهم نوبة. ينتمون من ناحية أصول عائلية إلي أسر كبيرة في المحس أو عند الدناقلة. ويتحدث السكان اللغتين النوبيين، المحسية والدنقلاوية(الأشكر)، ومع وجود خلاف كبير بين اللغتين الا ان هناك كلمات كثيرة مشتركة. وأصل اللغتين واحد. أغلبية السكان محس يتحدثون المحسية، وهي نفس اللغة التي يتحدث بها سكان المنطقة الممتدة من حلفا الي بدين، بالإضافة إلي منطقة النوبة المصرية، مع بعض الاختلافات في اللهجات وطريقة النطق، واختلاف في معاني بعض الكلمات من منطقة الي اخري. والنوبة عموما وبخاصة الحلفاويين قوم إشتهروا بصفات خاصة، كالظرف و السخرية كما يشاع أنهم يتحلون ب"هشاشة العقيدة". ويقول عنهم اهل السودان المستعربين أنهم "نُص ديانة". ويقال إنه عندما جاء رمضان اعتذر الحلفاوي عن صيام اول يوم قائلا ان اول يوم صعب، ولذلك فقد نوي الصيام اعتبارا من اليوم التالي . وهم اصحاب نكتة، يطبخونها في اللحظة. وكثيرا ما يختلط علي الناس الفرق بين المحسي والسكداوي والحلفاوي، والحقيقة ان كلهم نوبة، قومية واحدة تنقسم من الشمال الي الجنوب، الي، حلفا ثم السكوت تم المحس، ولكن غلب تسمية المحس علي الجميع. أما الدناقلة في بدين فاقلية، وهم يتحدثون الأشكر، وهي لغة سكان المنطقة الممتدة من بدين شمالا الي القولد وما جاورها جنوبا، قوم يقولون لله أرتي، وللجدول مَلّتي، وللغنماية برتي، وللخروف كّتي، وللبلح بنتي، وللسيد ترتي، وللثدي ارتي، وهم قوم ناجحون علي الصعيد الفردي، يعرفون المال ويحبونه حبا جما . ولا ادري من أين جاء (حديث التيس: دنقلاوي حلاب التيس.........)، فهم لا يحلبون التيس ولا اي من ذوات الثدي غير القابل للحلب، بل ان النوبيين عموما لا يستخدمون لبن النعاج، اما ما يحلب فيحلبونه حيلا، اوووب سُوري، اقصد حلباً، معليش، دنقلاوي يا جماعة . وهناك من سكان الجزيرة من يجيد اللغتين، وتجد في البيت الواحد من يتحدث المحسية، ومن يتحدث الدنقلاوية، وقد تتحدث الأم بالمحسية مع الولد وبالدنقلاوية مع البنت، بينما يتحدث الأب بواحدة مع الجميع، وهناك من يخلط اللغتين في الجملة الواحدة فلا هي محسية و لا هي دنقلاوية.

تسوقنا هذه المداخلة القصيرة إلي الحديث عن اللغة النوبية، والحديث عن اللغة النوبية ذو شجون، وشجون هنا تعني شجون وشجون، ذو شجون بمعني أشجان، ما يشجيك ويصيبك بالشجن، وذوشجون بمعني المتشعب كثير الفروع والفنون والأغراض، ونبدأ الحديث بالتعليق علي الجدل الذي يدور بين اعتبار اللغة النوبية (لغة) أو (رطانة) . والحقيقة أن اللغة النوبية التي نتحدث بها الأن إنما هي (لهجة) . واللهجة هي (المواضعة) اللغوية التي يتحدث بها الناس في المجتمعات المختلفة . واللهجة تنشأ في الأصل من لغة فصحي . كما نري في اللغة العربية . فهناك اللهجات (العاميات العربية) المختلفة . لهجة سعودية . لهجة عراقية . لهجة يمنية . لهجة مصرية . لهجة مغربية ... الي الأخر . ولكن الأصل هي اللغة العربية الفصحي والتي يلجأ إليها الجميع عندما يكتبون . ونفس الشئ يقال عن كل لغات العالم . بما فيها اللغة الإنجليزية . التي ربما أعتبرها البعض لغة ذات لهجة واحدة . مع أنها متعددة اللهجات . حتي

داخل الدولة الواحدة . واللغة النوبية كانت يوماً من الأيام لغة مكتوبة بحروفها ، ثم كُتبت نفس اللغة بحروف لغات أخري كاللاتينية والقبطية ، ثم بالمروية التي كانت آخرها ، ثم . ولعوامل كثيرة . أُهمل كتابة اللغة النوبية ، ولما جاءت اللغة العربية وبدلاً من كتابة اللغة النوبية بالحروف العربية . كما فعلت بعض الشعوب بلغاتها (السواحلية والصومالية والهوسا والأردو والفارسية والكردية والبشتو كمثال) . بدلاً من ذلك . إستعرب النوبيون وتركوا لغتهم وإتخذوا اللغة العربية لغة رسمية تحدثاً وكتابة . حدث ذلك لعدة أسباب. الأول هو إضفاء قدسية للغة العربية بإعتبارها لغة القرآن من جانب. وإعتبار اللغة النوبية لغة وثنية ثم مسيحية من جانب أخر. ثم تقليل العرب من قدر اللغة النوبية وبالذات لأنها لم تكن مكتوبة. وإنتشار تعليم القرآن بتعليم الكتابة باللغة العربية. ثم بحث السودانيين عن لغة مكتوبة تجمعهم. وما تبع ذلك من فرض اللغة العربية بالقوة من قبل أفندية السودان في مراحل التعليم. كل ذلك أدي إلي إقتراب اللغة النوبية من الإنقراض. وإضفاء قداسة علي اللغة العربية بإعتبارها لغة القرآن خلط لا يستقيم. فالقرآن هو كلام الله المنزّه. ولا تنحصر معاني كلام الله علي اللغة العربية. والقرآن كتاب أنزله الله لكل شعوب وقبائل الأرض. ولا تتحدث كل تلك الشعوب والقبائل باللغة العربية. وليس في القرآن ولا السنة ما يوجب نشر اللغة العربية علي شعوب العالم. ليس هناك أمر بذلك. . واللغة العربية كانت موجودة ومتداولة من قبل القرآن بكثير. فإذن فالقداسة للقرآن ومن خلاله للدين. أما اللغة فلا قداسة لها. فترك اللغة الأصلية ومحاربتها بذلك الفهم الخاطئ كان خطأً فادحاً . لم ترتكبه الشعوب الأخري . وبذلك حافظت علي لغاتها الأصلية . وأدخلت الحروف العربية في كتابة لغاتها بجانب حروف أخري . وتَرجَمت معاني القرآن الي لغاتها . ولم يفقد القرآن قدسيته نتيجة تلك الترجمات . ولا إكتسبت تلك اللغات أية قدسية . ولذلك لم تحدث أزمة الهوية التي حدثت عندنا في السودان . أما لفظة (رطانة) فهي لفظة عربية بحتة . وقد أطلق العرب تعريف رطانة علي لغات أخري قبل أن يطلقوها علي اللغة النوبية . إذ أطلقوها علي اللغات الفارسية والرومانية والإغريقية. وقد جاء تعريف (رطن) في لسان العرب. وفي الصحاح. وفي القاموس المحيط . بنفس المعني. وهو التكلم بالعجمية. أي بلغة لا تفهمها العرب. رطن أو تراطن رطناً : تحدث بلغته. وتراطنوا يعني تكلموا بلغتهم.

قال علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس:

يوحي إليها بإنقاضٍ ونقنقةٍ كما تراطن في أفدانها الروم

وقال طَرَفة بن العبد:

فأثارَ فارِطُهُمْ غَطَاطاً جُثَّماً أصواتُهُ كَتَراطُنِ الفُرسِ

والكلمة في الأصل تعني أصوات الأبل. (وإذا كَثُرَتِ الإبِلُ. وكانت رِفاقاً. ومَعَهَا أهْلُها. فهي الرُّطَّانَةُ والرُّطُونُ.) كما جاء في القاموس المحيط . وبمنطق العرب فاللغة العربية نفسها رطانة لمن لا يفهمونها. وعلي كل حال. ورغم أنها لا تلغي حقيقة أن النوبية لغة فقد أخذت كلمة رطانة معنيً مغايراً. وأصبحت مرتبطة في أذهان الناس بوصف دوني وتقليل وإزدراء للغة. والحقيقة أن معناها كما نقول في النوبية (نرنري) أو كما يقول المصريون (إنت بتبرطم بتقول أيه).

ووصف أية لغة برطانة هو وصف سخيف. ولذلك ففي رأيي الشخصي من الأنسب إعتبار اللغة النوبية لهجة. واللهجة هي اللغة غير المكتوبة. يقابلها بالإنجليزية كلمة (dialect). ولا توجد مرادفة لها في اللغة النوبية. فماذا نطلق علي اللغة النوبية لو أردنا تعريفها بغير التعريف العربي (لغة نوبية)؟. ورغم أن كلمة لهجة كلمة عربية هي الأخري. إلاّ أنها يمكن أن تكون أقرب إلي حال اللغة النوبية. فإذا بدلنا كلمة رطانة بكلمة لهجة تبقي أقل وقعاً وأكثر دلالة. غير ان هناك من لا يتفق مع هذا الطرح من منطلق ان اللهجة تتفرع عن لغة أم وبما أن النوبية لغة أم ولغة أولى للناطقين بها فلا يجوز اعتبارها لهجة لأنها لا تتفرع عن أصل آخر.

يرجع الباحثون أن اللغة النوبية الحالية ظهرت في هذه المنطقة في القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم إكتملت في صورتها الحالية ما بين القرنين الثالث قبل الميلاد والثاني بعد الميلاد . أما قبل ذلك فكانت اللغة الفرعونية المصرية هي المستخدمة. وفي عهد مروي كانت المروية هي اللغة الرسمية للدولة. بينما كانت النوبية هي اللغة الشعبية. والمروية لغة نوبية. إلاّ أنها لم تكن اللغة المتداولة. فقد كانت هناك لغتان في الدولة. لغة رسمية هي المروية. والتي تمت بها كتابة الأحداث الرسمية الخاصة بالملوك وحكمهم. ومن المعروف أن اللغة المروية لم يتم فك شفرتها بالكامل حتي الأن. رغم المحاولات المستميتة. ثم كانت هناك لغة شعبية أخذت إسم اللغة النوبية فيما بعد. ولذلك تفرز الدراسات بين اللغتين. دراسات تهتم باللغة المروية. ودراسات مستقلة تهتم باللغة النوبية. ومن المؤكد أن اللغة المروية ليست هي اللغة النوبية التي نتحدث بها الأن. وبعد سقوط مروي إستمرت الكتابات الرسمية بالمروية. أما في الفترة ما قبل المروية مباشرة. فكانت الكتابات تقتصر علي الكتابات الدينية التي إعتمدت إما الحروف الإغريقية أو القبطية ذات الأصل اليوناني. وأستخدم القساوسة المسيحيون اللغه الإغريقيهِ كلغة للتراتيل الدينيه في الكنائس. وحتى الأناجيل التى ترجمت الى النوبيه. رغم قلتها. استخدمت الأبجديه الإغريقيه لكتابة النصوص. ولم يهتم رجال الكنيسة بالحياة العامة. ولم يتم تدوين أي أثر بالأبجدية النوبية. وهكذا تحولت النوبية الي لغة شعبية دارجة يتحدث بها الناس ولكنهم لا يكتبونها. وذلك هو حالها إلي يومنا هذا.

يمكن تقسيم اللغة النوبية الي لغتين أساسيتين هما:

1 . (نوبين) وهي لغة الفديجا في مصر والحلفاويين والسكداويين والمحس في السودان ، وفي كثير من الأحيان تعرف هذه اللغة بـ (المحسية) . وأنا سوف إستعمل (محسية) للتعبير عنها.

2 . (نشكرين) وهي (الأشكر) وهي لغة الكنوز والمتكيين في مصر والدناقلة في السودان وتعرف بالدنقلاوية أيضاً.

ورغم أن اللغتين من أصل واحد ، ورغم وجود كلمات مشتركة ، إلاّ أن هناك فروقات كبيرة بينهما ، ولنضرب مثلا ببعض الكلمات:.

1ـ جميل

بالأشكر توتجل (Tongil)

بالمحسي أشري (Ashri)

---

2 . الشمس

بالأشكر مَسِلْ (Masil)

بالمحسي مَشا (Masha)

---

3 . الماء

بالأشكر أسي (Assi)

بالمحسي أمنْ (Amen)

---

4 . صغير

بالأشكر كِنّا (Kinna)

بالمحسي كدود (Kodoud)

---

5 . الأكل

بالأشكر كَلْ (Kel)

بالمحسي كَبا (Kaba)

---

6 . حصان

بالأشكر كج (Keg)

بالمحسي مُرتي (Morti)

---

7 . حمار

بالأشكر هَنو (Hano)

بالمحسي كَج (Keg)

---

8 . الساقية

بالأشكر كُلي (Koleh)

بالمحسية أسكلي (Askaleh)

---

9 . الحائط

بالأشكر كتري (Katre)

بالمحسية داب (Dab)

---

10 . المُركب

بالأشكر كُبْ (Kob)

بالمحسية سِقر (Sigir)

هذه أمثلة بسيطة للكلمات المختلفة بين اللغتين ، أما الكلمات التي تتطابق تماماً بين المحسية والدنقلاوية فكثيرة .. وهي تعني نفس المعني وتنطق بنفس النطق ، ومن الملاحظ أن الكلمات التي تتعلق بالزراعة وملحقاتها هي التي تتطابق أو تتشابه في الغالب، كما أن بعض هذه الكلمات تستعمل عند الشوايقة والجعليين وقطاع آخر كبير من سكان السودان، وعلي سبيل المثال:

1 . الثور قُز (Gor)

2 . البقرة تي (Ti)

3 . قمح إلّيه (Elleh)

4 . الذرة مري (Mare)

5 . فاصل أحواض الزراعةتكند/تكمد (Tokmad)

6 . المزارع تُربَر (Torber)

7 . الزراعة اوْرر (Awrer)

8 . القش قيد (Geed)

هناك بعض الكلمات التي تختلف في حرف واحد أو حرفين، وبالذات الكلمات التي تبدا بحروف الـ (ف) والـ (ب) ، مثال علي ذلك:

1 . حوض الزراعة

بالأشكر با (Ba)

بالمحسية فا (Fa)

2 . المنجل

بالأشكر تُورب (Torob)

بامحسية ترِب (Trib)

3 . جدول الماء

بالأشكر ملتي (Malti)

بالمحسية مرتي (Marti)

4 . البلح (التمر)

بالأشكر بنتي (benti)

بالمحسية فنتي (Fenti)

5 . بعيد

بالأشكر ورّي (Warri)

بالمحسية ويرا (wira)

6 . تمساح

بالأشكر ألِم (Alim)

بالمحسية أُلُم (Olom)

7 . تحيض

بالأشكر بُكّي (Bokki)

بالمحسية فُكّي (Fokki)

8 . ملح

بالأشكر أومبُد (Ombod)

بالمحسية إميد (Emeed)

9 . اسود

بالأشكر أرُمّي (Oremmeh)

بالمحسية أرُم (Orom)

10 . تحت

بالأشكر تُقو (Togo)

بالمحسية توّوه (Tawwo)

11 . يصل

بالأشكر بلّي (Belleh)

بالمحسية فلي (feleh)

12 أخرج

بالأشكر بل (Bell)

بالمحسية فل (Fell)

من المهم أن نورد هنا ميزة أساسية للغة النوبية . وهي أنها لا تعرف صيغة المثني أو التأنيث والتذكير . ومن المعروف أن الإنسان ، أي إنسان ، عندما يتحدث بلغة ثانية غير لغته الأم . فإنه لا شعورياً يترجم الكلام من لغته الأصلية ، وذلك ما يفسر عدم مقدرة كثير من النوبيين علي الفرز بين المؤنث والمذكر عند الحديث بالعربية. ولا يقلل ذلك من قدر اللغة النوبية. كما أن وجود المؤنث والمذكر في اللغة العربية لا يزيدها تميزاً. وكما قال العرب أنفسهم فلا التأنيث لإسم الشمس عيب ولا التّذكير فخر للهلال. وليس علي النوبي حرج إذا أخطأ في الحديث بالعربية. فهي ليست لغته الأم. وميزة أخري هي إمكانية جمع العدد (واحد) ليفيد الكثرة. وواحد هو (وي) أو (وير) فيجمع (ويكو) أو (ويري) وهي من التراكيب النوبية التي دخلت في العامية السودانية. فنقول للكثير (واحدين)، ولا يوجد ذلك في أية لهجة عربية أخري. كما أن الفاعل في اللغة النوبية يقدم علي الفعل. عكس اللغة العربية. فإذا كنا نقول بالعربية (أكلَ محمدٌ) ففي النوبية نقول (ميمد كَبدُن) أو (ميمد كلكّو) وعلي كل حال فمن المؤكد أن أصل المحسية والدنقلاوية واحد . ولكن الغريب في الأمر أن (الأشكر) يتحدث بها الكنوز والمتكيين في أقصي الشمال والدناقلة في أقصي الجنوب ، بينما المحسية تنتشر في الوسط بينهما . نحن تحدثنا عن (كنز الدولة) الذي كان أول ملك مسلم في دنقلا العجوز. وكان هو من أم دنقلاوية وأب كنزي. هل إنتقلت اللغة من عند الكنوز الي منطقة دنقلا مع كنزالدولة ؟ أم أن الأشكر الدنقلاوي هو الأصل للغة النوبية كلها كما يرجح البعض؟ ، علي كل حال هناك ملحوظة خطيرة وهي أن بعض الكلمات العربية المتداخلة في اللغة النوبية لا تجد مرادف لها في المحسية. بينما نفس الكلمات تجد لها مرادف في الدنقلاوية. وجدير بالذكر ملاحظة أن كبار السن في منطقة دنقلا يتحدثون (اللهجتين) بينما الكبار عند المحس لا يجيدون الدنقلاوية إلاّ قليلاً.

تقول منظمة اليونسكو أن اللغات المستعملة في العالم تقدر بنحو 6000 آلاف لغة ، منها نحو 2500 لغة مهددة بالإنقراض وبعضها قد إنقرض فعلاً . وتقول المنظمة أيضاً أن حوالي 97 % من سكان العالم يتحدثون نسبة 4 % من لغات العالم. ويتحدث 3 % من السكان بـ 96 % من اللغات ، وتقرر المنظمة أن اللغات الأكثر تعرضاً للإنقراض هي تلك التي يتوقف ناطقوها عن التحدث بها ، ويتوقفون عن نقلها من جيل الي آخر . ولا يتم تدريسها في المدارس ، واللغة النوبية من اللغات المهددة بالإنقراض ، وتنطبق عليها عوامل الإنقراض الأساسية ، هناك كم هائل من الدراسات الخاصة باللغة النوبية في دول الغرب . فهناك معاهد وكليات تقوم بتدريس تاريخ اللغة النوبية ، وهناك

علماء آثار كثيرون أمضوا وقتاً طويلاً في دراستها . كما أن الجامعات والمتاحف في كثير من الدول الغربية لديها أقسام خاصة بأثار الحضارة النوبية . وحسب علمي. فإن هناك محاولات كثيرة من جانب النوبيين لإكتشاف الحروف الأصلية للغة . وفي مقدرة بعض الأفراد كتابة اللغة إما بحروفها أو بالحروف اللاتينية أو العربية . رغم تحفظ البعض علي الكتابة بالعربية . فهي لا تستوعب كل حركات وأصوات اللغة النوبية . ولكن كل هذه المحاولات فردية ولا تكتمل ولا تنشر. وما ينشر منها ينشر في المنتديات النوبية المختلفة علي الأنترنت . والمنتديات محدودة القرّاء. وهذه الطريقة لن تجدي كثيراً. المطلوب هو العمل الجاد علي إدخال تدرس اللغة النوبية كمادة أساسية في مدارس المنطقة كلها إن أردنا لهذه اللغة أن تستمر.

أما تأثير اللغة النوبية علي اللغة العربية السودانية فلا يحتاج إلي تبين. ومن الطبيعي أن يكون هذا التأثير كبيراً. من الطبيعي تماماً أن توجد كلمات نوبية كثيرة في العامية السودانية. فالعربية السودانية حلت محل النوبية. بمعني أن نفس الناس الذين كانوا يتحدثون بالنوبية بدأوا في التحدث بالعربية. ولم يكن من الممكن للغة العربية أن تمحو النوبية وكأنها لم تكن. وإذا أردنا أن نورد الكلمات نوبية الأصل في العامية السودانية فسوف نضطر إلي إيراد نصف هذه العامية. ولكن. وبما أن الشعر يمثل عمق اللغة فأنظروا إلي هذه الأبيات: قال الشاعر السوداني (العربي) البلولة حاج الأمين:

الناس البتتقلب كذا التوريق

دايرة تجيب خدار لاموية لا موريق

جبل الرملة ما بصعب علي الكوريق

وحصالة التقي بتظهر مع النوريق

ماذا قال الشاعر شيخ العرب هنا؟. الا يذكرك هذا القول بتلك المرأة النوبية التي أرادت أن تستأجر تاكسي من الخرطوم إلي الكلاكلة. وعندما تحدثت مع السائق بالعربية رد عليها السائق بالنوبية. فقالت المرأة للسائق كيف عرفت أنني أتحدث النوبية. فقال لها السائق أنك لم تقولي شيئاً بالعربية.

نتحول الأن إلي الحديث عن أثار الحضارة واللغة النوبية في غرب السودان. والحقيقة أن ربط حضارة غرب السودان القديم بالحضارة النوبية يبدو للبعض غير موضوعي. ولكن هناك رابط وثيق. ومن الباحثين الحاليين في هذه القضية. أحد أبناء دارفور. هو الأستاذ إبراهيم محمد إسحاق. وهو روائي وباحث وأستاذ جامعي. ووجدت له مقابلة في جريدة الصحافة. العدد 5297 بتاريخ 16 يونيو 2008 . وأحببت أن أنقل لكم مختصر من ذلك اللقاء. يقول الأستاذ إبراهيم: ((الحضارة النوبية القديمة ليست ببعيدة عن أقاليم دارفور وكردفان. بالذات قبائل الميدوب في دارفور. والنوبا سكان جبال النوبة في كردفان. وكانت دارفور بحدودها القديمة ضمن نطاق ونفوذ الدولة المروية القديمة. وهناك الكثير من الشواهد المادية ومن الأثار ومن العلائق الإثنية والثقافية يمكن الاستناد إليها. ولكن الكتابات التي تمت عن دارفور فكلها إنصبت علي دراسة تاريخ دارفور وتراثها الثقافي واللغوي في العهد الإسلامي. ولم

يهتم أحد بالحقب ما قبل الإسلامية. وإذا كان من الثابت أن الحضارة المروية إمتدت إلي غرب القارة فمن الطبيعي أنها مرت خلال غرب السودان. والشواهد التي تم اكتشافها والآثار التي وجدت في منطقة «عين فرح» القريبة من بلدة كتم بشمال دارفور و«جبل أورى و«منطقة قرننق» في أطراف جبل مرة. تأكد بأنها ترجع لحقبة ما قبل الإسلام وتدل على ارتباط بين مروي والحضارة التي قامت في دارفور. ففي قمة جبل عين فرح «ولاية شمال دارفور» اكتشفت مدينة كاملة وبها قصر ضخم مبني على الطراز المروي ومسجد مبني على طراز المعابد المروية مبني من الطوب الأحمر يرجع تاريخه لما قبل 1440م. وكذلك تم اكتشاف مدينة في قمة جبل أوري أكبر من الأولى. وكل هذه المنطقة - امتداد طبيعي لما يعرف بمنطقة «فورننق» ويطلق عليها اسم سلسلة جبال (فونو) وترجمتها «جبل نوح» وهذه السلسلة امتداد لسلسلة جبل مرة تماثل تماما ما خلفته الحضارة المروية. وتقول النتيجة التي نصل إليها من خلال وجود مسجد مبني على الطراز النوبي القديم دليلا على أن حضارة قد سبقت الإسلام في هذه المنطقة وتاريخ بنائه يحدد فترة التحول الذي حدث كنقلة تاريخية للتحول إلى الحضارة الإسلامية على الرغم من أن مرحلة الانتقال من عقيدة وحضارة قائمة إلى أخرى تحتاج إلى زمن طويل.ولا يمكن أن نتجاهل وجود القصور الشبيهة بالآثار المروية ونتخطاها إلى الحقبة الإسلامية.

وقد أورد البروفيسور الراحل محمد ابراهيم أبو سليم ((مؤرخ ومدير سابق لدار الوثائق السودانية» عن عملية التحول في بلاط دارفور إلى الإسلام. من أن ذلك ((كان عملية داخلية حين دخلت النظم الإسلامية الخاصة بالحكم في التركيبة السياسية للسلطنة من دون أن تعرض التركيب القديم للانهيار. وهذا يعني أن المجتمع قد حافظ على تقاليده وعاداته ولغته وأعرافه الضاربة في عمق جذور التاريخ.)) وهذه النقلة والتلاقح الإسلامي والعرفي كان عن علم وقناعة ودراية بحقيقة الدين الإسلامي. بعدما عرفت دارفور في وقت ما المسيحية كعقيدة قبل الإسلام. ويؤكد ذلك باذل دافنشن في كتابه «أفريقيا تحت أضواء جديدة» والذي يؤكد بأن دارفور كانت همزة الوصل بين الممالك المسيحية التي قامت على النيل الأوسط. ويستند في قوله إلى ان العلماء الذين درسوا آثار عين فرح. قالوا إن المسجد الذي بني في قمة جبل عين فرح كان في الأصل كنيسة. ويؤيده «أركل» في ذلك بأن دارفور كانت ضمن الممالك النوبية القديمة التي أسهمت المسيحية في ربطها وشعوبها ثقافياً فخلقت «كوش» من جديد.

ويضيف .. «أهم ما نود أن نتناوله هنا هو الاكتشاف المثير الذي تحقق على يد البعثة البريطانية عام 1935م. حينما أعلنت عن اكتشافها لأقدم مدن أفريقيا الضائعة: القصور على قمم جبال قرننق. ومن ضمن هذه المدن مدينة «أنقري» التي يشبه نطقها كلمة» منقرع» الفرعونية» «الأغرب من ذلك أن القرية التي تحتها تسمى «منقري» ومدينة (جلا) العريقة ومدينة عين فرح ومدينة أوري في قمة جبل أوري.

وقد بني الشاويون الأوائل مدنا من الأحجار والطوب الأحمر على قسم من سلسلة جبال فورننق ما تزال آثارها باقية. هذه المدن استطاعت إن تعمر لأكثر من أربعة قرون وأن الطوب الذي بنيت به لا يوجد مثله الا في الآثار التي خلفتها مروي. وهو الطوب نفسه الذي بنى به النوبة كنائسهم. وهذه الآثار ربما تكون ذكرى من مروي التي اختفت وظهرت

من تلال دارفور. ومن بين الشواهد الأخري أن طريقة الزراعة التي يمارسها الأهالي في قمم الجبال خاصة في سلسلة جبال فورننق وجبل مرة. هي نفس الطرق التي كانت متبعة إبان الفترة المروية. والمفردة مروي أو ماروي. تلتقي في معناها في لغة ثلاث قبائل في دارفور منها «الزغاوة - الفور - الميدوب» وتعني حداد أو صانع الحديد بهذا النطق «مير - ميرو - ميري» مثلما هو الحال في جبال النوبة. حيث هنالك قبيلة نوبية يطلق عليها «الميري» وتعني الحدادين في لغة الفور. كما أن مروي اشتهرت بصناعة الحديد واكتشفت مؤخرا مناجم لصهر الحديد في «غرب جبل مرة» جهة وادي صالح.

هنالك تشابه لغوي غريب بين القبائل النوبية الواقعة في الشمال وجبال النوبة والقبائل الرئيسية في دارفور «الزغاوة. والفور. والميدوب. والمساليت في بعض الاصطلاحات وهناك تشابه غريب في أسماء بعض المدن في الشمال ودارفور. مع ملاحظة أن لكل مدينة في الشمال تفسيرا معنويا بلغة الفور مثل مدينة المقرة التي تعني عند الفور قراءة نص ديني. في حين تعني كلمة «علوة» عند الفور التأكيد بأن الله فوق كل شيء. ثم أن الرسوم التي يرسمها الأهالي في دارفور على حيواناتهم «الوسم أو الوشم» هي في الأصل لغة هيروغلوفية. وأن الصالة المطلة على القصر الملكي في قمة جبل أوري كانت منصة يجلس عليها الملوك المرويون لاستقبال رعاياهم قرب القصر الملكي. حيث يعتقد أن العائلة المالكة في مروي هربت أمام الغزو الأكسومي صوب الغرب ووصلت إلى تلال دارفور. وأقامت فيها مملكة تحمل كثيراً من الطابع المروري. وهناك بعض العادات المتشابهة عند بعض القبائل في مصر «الكنوز علي وجه التحديد» والتقاليد التي عرفت في مصر الفرعونية. مع عادات وتقاليد القبائل الموجودة في دارفور. ويمكن تقسيم القبائل التي تلتقي في التشابه اللغوي إلى ثلاث مجموعات كنماذج. ففي شمال النوبة «الدناقلة - المحس – السكداويين . الحلفاويون» وفي كردفان مجموعة الغلفان «التيرا - النمنق - التورا - الميري» وفي دارفور مجموعة «الفور - الزغاوة - الميدوب - المساليت - البرتي – الداجو.) إن التشابه اللغوي في بعض القبائل في الشمال والغرب ووسط الغرب. يقودنا للبحث في أصول العلاقة الثقافية الجامعة لهذه القبائل كقومية أفريقية ذات جذور حضارية في السودان القديم.

وتعد مروي من الحضارات العريقة التي ترتكز عليها الحضارة القديمة في السودان. ففي نهايات القرن الخامس قبل الميلاد انتقلت عاصمة النوبة من نبتة إلى مروي التي تقع جنوب الشلال الخامس. وتمتاز بخصائص كثيرة أهلتها لأن تكون العاصمة الجديدة للمملكة النوبية. أهمها الموقع الجغرافي المتميز. في مفترق طرق القوافل التي تربط مصر بأثيوبيا وكافة بلاد أفريقيا. وتميزت حضارة مروي بطابعها الأفريقي الذي تفردت به. خلافاً لبقية الثقافات التي ازدهرت في وادي النيل. وتدل الأثار المتبقية من هذا العصر على تأثر مروي بالثقافات المختلفة التي عاصرتها. ويبدو ذلك جليا في معابدها ذات الطابع الروماني والمصري والإغريقي.))

إلي هنا وانتهي حديث الأستاذ إبراهيم إسحاق. وقد أوردتُ هذا اللقاء الطويل حتي ألفت الإنتباه إلي وجود علاقة وثيقة بين الحضارة النوبية وأقاليم غرب السودان. أما من ناحية اللغة فقبائل البرقد والميدوب في دارفور تحدثت

حتي وقت قريب لغة سيطرت عليها مفردات اللغة النوبية. كما أن لغة النوبا سكان جبال النوبا بها كثير جداًُ من المفردات التي تتطابق أو تتشابه مع مفردات اللغة النوبية. ويذكر تاريخياً أن هناك هجرة نوبية كبيرة حدثت إلي الغرب عند سقوط مملكة علوة. فإنتقلت الحضارة النوبية الي هناك بلغتها، ثم إندمجت مع الحضارات المحلية. كما تفعل الحضارات المهاجرة دائماً. ولكن الأهم في هذا المجال فهو الرأي الشائع بين علماء النوبيّات والذي مفاده أن أصل موطن النّوبيّين قبيل قدومهم إلى نهر النّيل كان بمكانٍ ما بشمال غرب دارفور. وتقدّر هذه الفترة بألف عام قبل الميلاد. حيث وصلت أولي المجموعات، وهي المجموعة الناطقة باللغة المحسية. وبعد ذلك بخمسمائة عام وصلت المجموعة التي تتحدث باللغة الدنقلاوية. وعلي كل حال، فإذا جاءت اللغة من هناك الي النيل، أم ذهبت من النيل إلي هناك. فهناك الكثير من المفردات النوبية متداولة حتي الأن عند القبائل الأفريقية المختلفة في دارفور وكردفان. وعلي سبيل المثال:

الوجه (كُونج). اللبن (أج). أنا (أي). المطر (أري). الرأس (أُر). الحصان (كَج). الحمار (حَنو). النار (إيقه). الجمل (كَملا). الأحمر (قيلي). الحر الشديد (اسي). حي (أنجي). العشب (كَشي). البطن (تو). الماء (اشي). الثور (قُر). النمل (قور). أعمي (دُنقر). الفضيحة أو العار (أودي). الزاد في السفر (بِسِر). هناك (ناندو). الأخضر (دسي). الثدي (أرتي). الحصي (أرودي). الأذن (ألقي). واسع (بُجو). قدح الخشب (كوسي). العجوز (دوري). الماضي (واي). الموت (دِيَر).

هذه بعض الأمثلة التي وجدتها في المنتديات، وهي مدرجة عن طريق أشخاص من قبائل الميدوب والبرقد في دارفور، وبعض أبناء الأجانق في جبال النوبا. ورغم رغبتي في إظهار مدي عراقة الحضارة النوبية، ومدي إنتشار لغتنا في الماضي، ومدي إعتزازنا بذلك. إلاّ أنني لا أوافق الكثير من النوبيين علي إتخاذ هذه الحضارة وهذه اللغة مرجعاً لتفسير التاريخ الإنساني أجمع، بإعتساف كبير. وإتخاذ تخريجات وتلفيقات سخيفة لتفسير أسماء كثيرة ومحاولة إرجاعها إلي أصول نوبية، حتي وصل بنا الحال إلي محاولة إثبات أن سيدنا أدم كان يتحدث النوبية، وأنها لغة الأنبياء من نوح إلي موسي، وأن أسماء الملائكة نوبية. فاللغة النوبية التي نعرفها الآن حديثة نسبياً، ولا يمكن لها أن تكون أصلاً لأي لغة أخري، فلا داعي لإتخاذ أنفسنا مضحكة بتفسير إسم كندا أو الأرجنتين مثلاً تفسيراً نوبياً. فلكل الشعوب حضاراتها ولغاتها التي إستمدت منها وما زالت تستمد ثقافتها الحالية، ولو سلمنا أن كل لغات اليوم أصلها من لغة واحدة بالضرورة، لأن سيدنا آدم وأبنائه كانوا يتحدثون لغة واحدة، فليس من المعقول و لا من الموضوعية أن نقول أن لغة أدم كانت اللغة النوبية التي نتحدث بها الأن. فاللغات من أكثر الحقائق التي تتغير مع مرور الزمن، وهذه قاعدة تنطبق علي كل اللغات دون فرز. فإذا أخذنا اللغة النوبية كمثال فمن المؤكد أن الجيل الرابع من أجدادنا الي الوراء لم يكن يتحدث بالنوبية كما نتحدث بها اليوم، والجيل الرابع من أبنائنا في المستقبل لن يتحدث بمثل لغتنا اليوم. وإذا أخذنا اللغة العربية كمثال أخر لوجدنا أنها في البداية كانت لغة واحدة، ثم تحولت الي لهجات مختلفة في أماكن مختلفة في أزمان مختلفة. واللغة التي يتحدث بها أهل مكة اليوم ليست هي نفس اللغة

التي كان يتحدث بها أهلها في الجاهلية. واللغة التي يتحدث بها أهل المدينة اليوم ليست هي اللغة التي كان يتحدث بها أهلها قبل الهجرة. وليست لغة بغداد اليوم هي لغتها في العهد الأموي. وليست لغة الشام اليوم هي لغة العهد العباسي. وليس بين فصحاء العرب اليوم من يستطيع أن يجاري أبن المقفع أو الجاحظ . بل أن اللغة النوبية التي يتحدث بها أهل جزيرة بدين اليوم ليست هي التي تحدث بها أهلها قبل مائة عام. فاللغة تتعرض الي تعديلات وتبديلات مستمرة. ويلحق بها مفردات جديدة في كل حين. فتتجدد مع تجدد الحياة. وتتغير مع تداخل الشعوب والقبائل في بعضها البعض كحتمية تاريخية. وتتطور مع تقدم المدنية. واللغة كائن حي يطرأ عليه ما يطرأ على الكائنات الحية من تغيير وكبر وشيخوخة ومرض وموت ، مخلفة بعدها كائن أخر من أبنائها الذين ربما شابهوها قليلاً وأختلفوا عنها كثيراً ، وهناك مفردات كثيرة اليوم في النوبية ليست هي من النوبية و لا حتي من العربية. جاءت هذه المفردات مصاحبة للآلات والأجهزة التكنولوجية الحديثة ، وسوف تصبح بعد عشرين أو ثلاثين عاماً كأنها مفردات محلية. وهكذا فبنية اللغة لا تبقي ثابتة. مفردات تستحدث ومفردات تندثر. حتي قواعد اللغة وأصولها تتبدل. بل حتي الأنماط الصوتية التي تميز أصحاب لغة معينة تتغير. ولذلك فعلينا إتباع الحذر الشديد عندما نأخذ مفردة نوبية حالية لنفسر بها إسماً موجوداً من آلاف السنين. وعلماء الفيلولوجيا (وهو علم دراسة اللغات) يبذلون جهداً مضنياً ووقتاً طويلاً في البحث والتدقيق في النصوص والتحقيق فيها والمقارنة بين المصطلحات والعبارات وتاريخ تطوّرها والتغيّرات التي طرأت عليها عبر العصور . فدراسة اللغات من العلوم الصعبة والمضنية جداً.

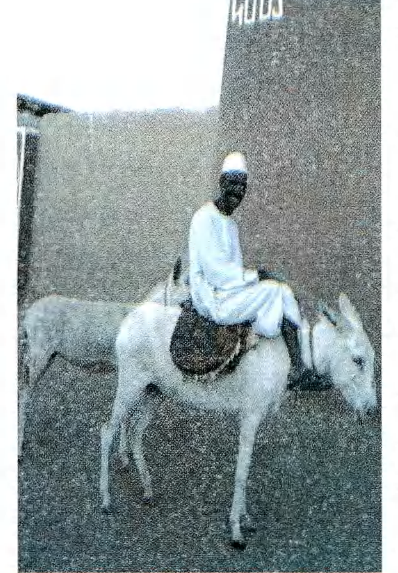
أخيراً أشير إلى أن بعض الكلمات الصغيرة فى اللغة النوبية والتى تتكون من ثلاثة أحرف مثلاً يمكن تشكيلها لتؤدى معان كثيرة جداً . مثلاً كلمة (كري)

كُرى .... معناها العيد	كِرى... معناها تعال
كِري .... معناها العدة أو الأواني	كُري .... معناها المعوج
كَرى .... معناها انثى	كُرى .... معناها بلح عجوة
كُري .... معناها ضب	كُري .... معناها شخير
كِري .... معناها ينسج	كري .... معناها مهر الزواج
كري .... معناها يربط	كرى .... معناها (رشوة)
كرى .... معناها الغير ظليل	و كرى .... الراكوبة

في نهاية هذا الجزء عن اللغة أود أن أتقدم بشكري الجزيل للأخوين الشيخ أحمد عزالدين محمد أحمد ومحمد لطيف حسن زبير اللذان يعتبران مراجع في اللغة النوبية وقد لجئت إليهما في أحيان كثيرة للإستفسار.

. 12 .

ربما كان هذا الجزء من الكتاب غريباً أو طريفاً، أو ربما إستاء البعض منه، ولكني أتعاطف مع هذا الحيوان المظلوم، الذي فتحنا أعيننا ووجدناه يقوم بخدمات جليلة لأهل الجزيرة، من منا لم يمتطي صهوة الحمار جيئة وذهاباً في طرقات البلدة، هو جزء أصيل من سكان الجزيرة ، وقوة أساسية في تاريخها، وقد إعتمد عليه سكان الجزيرة في قطع مشاويرهم الطويلة والقصيرة ، حالهم في ذلك كحال أهل النوبة جميعاً، إعتمد عليه المزارع والعمدة والشيخ والمدرس والطالب، إعتمد عليه الجميع للذهاب إلي السوق والطاحونة، وقبل ترف العربات كان الحمار هو وسيلة المواصلات الوحيدة الي أرقو ودنقلا، الي فريق ودلقو وحلفا، وكان بعض الناس يهتمون بحميرهم وكأنها خيول ثمينة، حتي أن بعض الحمير طبقت سمعتها الآفاق ، وثبت أن الحمار حيوان ذكي ، وأن إتهامه بالغباء محض إفتراء من جانب الإنسان ، والحمار إذا تركته علي بعد عشرات الكيلومترات من مربطه يستطيع العودة بمفرده ، كما أن الحمار يألف صاحبه إلفة حميمة . وقد كانت الحمير تابعة لأصحابها إسمياً، ولكنها إدارياً كانت تابعة للمشروع الزراعي، وكان مسئول الماء في المشروع، الذي كان يتفقد الجدول الرئيسي، إذا وجد حماراً مطلوقاً في اي من المزارع، كان يسوق الحمار إلي الـ (كارا) قرب الوابور، وكان الكارا سجناً مؤقتاً يحبس فيه الحمار حتي يأتي صاحبه ويدفع الغرامة فيُطلق سراح الحمار، وكان الحمار يشارك الناس إحتفالات الأعياد، فقد كانوا يتسابقون علي ظهور الحمير، يركبون الحمار بالمقلوب، يجلسون علي عكس إتجاه سير الحمار، فينطلق بهم وهو يقهقه من لعب الأطفال الذي كان يمارسه الكبار، ولأن جد الحمار المعروف حاليا هو (الحمار النوبي) حسب كتاب (كلتون بروك) (التاريخ الطبيعي للحيوانات الأليفة)، فهو يعتبر جزء من التراث، لذلك فلنتوقف عنده قليلاً ، ولنورد هذه الفقرة عن الحمير.



تقدر منظمة الفاو عدد الحمير في العالم اليوم بـ (44) مليون حمار، وأكثر الدول امتلاكاً للحمير هي الصين، ثم الحبشة، ثم المكسيك، أما السودان، وللعجب، فغير مذكور، وكنت اعتقد اننا بلد (حمير)، ولكن والحمد لله، وبشهادة الفاو، فاننا لسنا كذلك. وذكرت المنظمة ان المهام التي انيطت بالحمير تاريخياً، ومنذ 6000 سنة، هي نفسها الي تاريخ اليوم، نقل الناس والأسفار، جر العربات، توليد البغال، حراسة الماشية، والترفيه عن الأطفال، وإعتماداً علي هذا التقرير، فحميرنا متخلفة، ولا تعرف مهامها الأساسية ، فهي لا تلد البغال، ولا تحرس الماشية، ولا ترفه عن الأطفال، وقد فكرتُ، بعد قراءة التقرير، ان اذهب الي الصين او المكسيك، واشحن من هناك، الي السودان، عدد كبير من الحمير المدربة

علي الترفيه عن الأطفال . فأطفالنا المساكين في السودان لا يجدون من يرفه عنهم . فالكل مشغول عن الأطفال بما هو أهم . أباءً ومدرسين وحكومات . مشغولون بالتنمية والمستقبل الذي في رأيهم لا يتضمن الأطفال. وكأن الأطفال لا علاقة لهم بالمستقبل. رغم أنهم هم المستقبل كله . ربما قامت حمير الصين أو المكسيك بمهمة الترفيه. وقال التقرير ان عمر الحمار في البلدان الغربية. يتراوح ما بين 35 الي 40 سنة. بينما في الشرق الأوسط لا يتجاوز سبع سنوات. حتي الحمير عندنا لا نستطيع ان تعيش كثيراً. وكما قلت في مكان أخر فقد كنّا نشرب لبن الحمارة كعلاج أخير لمرض الـ (كدكود). وهو الكحة المزمنة (السعال الديكي) التي تصل مراحل صعبة جداً ولا يجدي معها أي دواء. وقد ثبت الأن ان لبن الحمير يحتوي علي مواد غذائية مفيدة جداً. وقد إكتشف بعض الخبراء الصينيين إمكانية الإستفادة من جلود الحمير إقتصادياً . كما أنهم أثبتوا أنه يمكن استخلاص بعض العقاقير والمنشطات الجنسية منها . ويقال ان الملكة كيلوباترا كانت تحرص علي استعمال لبن الحمير. لتفتيح بشرتها. والحفاظ علي نضارة وجهها. ثم ظهر الان في بعض أسواق أوربا (جبنة الحمير) وهي أغلى أنواع الجبن في العالم.

اما في مصر أم الدنيا. وارض العجائب. فهناك حتي من الحمير شعراء ساخرون. انظروا الي هذه القصيدة الحمارية الدارجية الساخرة:-

عجبي يا ابن آدم. قوّمتَ الدنيا لم قالو لك حمار

هو إسمي شتيمة؟. ولاّ أنا جنسي ده عار

عايش في حالي متهني وليّا افكار

باكل وبشرب وبنهق وبجامع. ومافيش أسرار

وعندي ابن آدم بيخدمني. ليل ونهار

إن جعت يشتري برسيمي بأغلي الأسعار

خادم امين من غير راتب ولا حتي إيجار

الحين عرفت يا ابن أدم مين فينا حمار؟

اما امير الشعراء شوقي فقد كان قاسياً علي الحمير. وانا اعتقد انه لم يكن يقصد الحمار الحيوان. بقدر ما كان يقصد الأغبياء. الثقلاء من بني آدم. عندما قال:-

سقط الحمار من السفينة في الدجي :: فبكي الرفاق لفقده وترحمُوا

حتي اذا طلع النـهار أتت به ::: نحو السفينة موجة تتقدمُ

قالت خذوه كما اتاني سـالماً ::: لم أبتلعه لأنه لا يهضمُ

ويقال أن أول رواية في التاريخ هي (الحمار الذهبي) للروائي لوكيوس أبوليوس في القرن الثاني الميلادي. وكان الحمار هو الراوي . وهناك كتاب حمار بوريدان. لكاتب الماني. عن تجربة قام بها جان بوريدان عميد جامعة السوربون. حول سلامة الإختيار الحر عند الحيوان. أما في كتاب جورج أرويل (مزرعة الحيوانات) فالحمار لا يضحك ابداً. لأنه

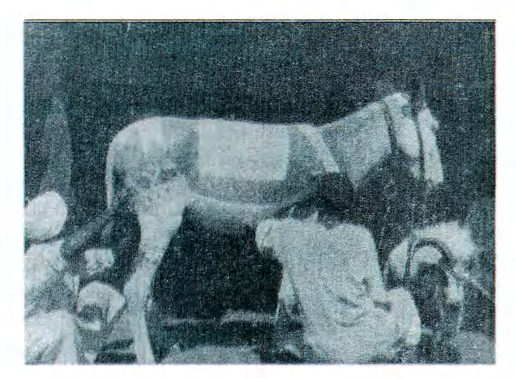
ما من سبب في الدنيا يدعو الي الضحك، وهناك اديب اسباني فاز بجائزة نوبل للآداب عام 56 له كتاب اسمه (الحمار ذو اللون الفضي) ، أما عربياً فهناك حمار الشيخ الذي وقف في العقبة، وكثير من الشيوخ تقف حميرهم في عقبات الأسئلة، ثم هناك حمار الحكيم، وحماري قال لي، وحماري وعصاي والآخرون، لتوفيق الحكيم ، والحمار يلعب دور كبير في أدب توفيق الحكيم ، وهو قد كَتب أكثر من ثلاثة كُتب القاسم المشترك بينها هو الحمار، وإتخذ من الحمار شريكاً له في النقاش وتوضيح الأمور لمن إحتاج للتوضيح من الآدميين، وهم كثر، ويروي الحكيم أنه سأل حماره ذات يوم عن الفرق بين معشر الحمير ومعشر الآدميين؟ وأجاب الحمار: وجدت أن الفرق الأساسي بيننا وبينكم هو أنكم تعرفون النفاق، ونحن لا نعرفه، وقد عللت نفسي ومنيتها بحلم جميل هو أن تعلمني النفاق لأنه لو أمكنني تعلم النفاق وإدخاله في فصيلة الحمير لانقلبنا مخلوقات مثلكم. أما إجتماعياً فقد قامت مدينة (بلاكبول الساحلية شمال غربي إنجلترا) بتطبيق قواعد صارمة للحفاظ على الحمير ، إحداها ألا تتجاوز أيام عمل الحمار ستة أيام في الأسبوع، ما بين العاشرة صباحا وحتى السابعة مساء ، تتخللها ساعة راحة يومياً لتناول وجبة الغداء، علاوة على إجراء اختبارات صحية إلزامية قبل بدء موسم الصيف ، والحمار هو شعار الحزب الديمقراطي الأمريكي كناية عن الصبر ، وفي التقويم الجمهوري الفرنسي، يعتبر يوم 6 أكتوبر من كل عام هو يوم الحمار. وعلى عكس الصورة الشائعة عنه يثبت العلم والواقع: أن الحمار حيوان ذكي، يتعلم ويفهم، ويتحمل الإنسان بكل ظلمه وحماقاته، والحمار مذكور في مخطوطات كثيرة، منها ما قال الدميري في حياة الحيوان الكبرى عن الحمار:.الحمار جمعه حمير وأحمرة وربما قالوا: للأتان حمارة، وتصغيره حُمَيّر، وكنية الحمار أبو صابر وأبو زياد.

قال الشاعر: زياداً لست أدري من أبوه :: ولكن الحمار أبو زياد

وقال : يقال للحمارة أم نافع، وأم تولب، وأم جحش، وأم وهب، ، كما يوصف بحدة السمع ، وصوت الحمار هو النَّهِيقُ، والذي هو أنكر الأصوات ، فإذا كرّر نَهِيقه واشتدّ قيل: أخذه النُّهاقُ .

وفي الفكاهة فقد كان لجحا حمار لا يفارقه، وحدث ان جاءه رجلٌ ذات يوم وطلب منه أن يعيره الحمارفقال له جحا: الحمارغير موجودٍ الآن

فنهق الحماروقال الرجل: وهذا ؟ !



فأجابه جحا : أتكذّبني وتصدّق الحمار ؟!

أما بشار بن برد، الشاعر المجيد، وصاحب الروح المرحة، والدعابة الذكية، وهو شاعر أحبه كثيراً، فقد مات له حمار، فلمّا زاره أصدقاؤه للعزاء، أظهر لهم أنَّه مغموم محزون، فألحّوا عليه في السؤال يريدون أن يعرفوا سبب حزنه وغمّه، فقال لهم: إنَّني رأيت حلمًا مزعجًا، رأيت حماري في النّوم، فقلت له: ويلك! مالك مِتّ؟. قال: إنَّك

ركبتني يوم كذا، فمررنا على باب الأصبهاني، فرأيت أتانًا (أنثى الحمار) عند بابه، فعشقتها فمِتُّ. وزعم بشّار أنَّ حماره أنشده المقطوعة التّالية:

سَيِّدي مِلْ بِعَناني نَحوَ باب الأَصْبهاني

إنَّ بالبابِ أتانًا فَضَلَتْ كُلَّ أتانِ

تيَّمتني يَومَ رُحْنا بثَناياها الحِسانِ

تيَّمتني بِبَنانٍ وَبِدَلٍّ قد شجاني

وبِحُسنٍ ودلالٍ سَلَّ جِسمي وبراني

ولها خَدٌّ أسيلٌ مِثلُ خَدِّ الشَّيفرانِ

فبها مِتُّ ولو عِشتُ إذاً طال هواني

فقال له أحد جلسائه: ما الشَّيفران ؟!.

قال: ما يُدريني؟! هذا من غريب الحمر. فإذا لقيتم حمارًا فسالوه.

كان هناك حلاق الحمير الذي يأتي الي الجزيرة فيبادر بعض الناس الي حلاقة حميرهم وتزيينها.



في هذا الجزء سوف أحاول إيراد سِيَرْ بعض الشخصيات في بدين ممن لم أذكرهم في ثنايا الكتاب ، وكما قلت في المقدمة، فلا يمكن ذكر كل الشخصيات مستحقة الذكر، إلاّ أن بعضهم كانوا أكثر شهرة وتأثيراً في تاريخ الجزيرة، ومنهم من كان له تأثير كبير علي تاريخ السودان، والسيرة الأولي سيرة رجل معروف علي نطاق السودان ، هو أحد ابناء السودان الذين أثّروا علي مجريات الأمور فيه ، تقلد مناصب أساسية في الدولة ، إتخذ قرارات مصيرية ، سن قوانين تمس حياة المواطنين في كل بيت ، إقترب وإبتعد من الأنظمة بدهاء كبير ، كان من أوائل رجال الأعمال الذين أسسوا شركات خاصة ما زالت تعمل في الساحة الإقتصادية ، حيث أسس الشركة السودانية للتأمين وإعادة التأمين المحدودة ، هو السيد عزالدين السيد محمد، وقد وجدت تعريف ضاف لسيرته الذاتية في موقع المجلس الوطني (parliament.gov.sd.) ، وحسب ما جاء في الموقع فقد درس في جامعة بيروت وجامعة لندن ، نال عضوية الجمعية التأسيسية الأولى عام 1965 ، كان أول وزير للصناعة والتعدين عام 1966 ، ثم وزيراً للتجارة والتموين ، عضو مجلس الشعب الأول عام 1973م ، ثم تقلد عدة مناصب مهمة في مجلس الشعب والإتحاد الإشتراكي السوداني ، ترأس عدة مجالس في مواقع مختلفة ، شارك في عدة مؤتمرات خارجية ، نال أكثر من دكتوراة فخرية من مؤسسات تعليمية ، نال عدة أوسمة في السودان وخارج السودان.

الشهيد محمد صالح عمر



ولد في جزيرة بدين عام 1932م، تخرج في كلية الحقوق (القانون) قسم الشريعة بجامعة الخرطوم في الأول من ابريل 1959 م حيث تم استيعابه معيداً بكلية الحقوق. تم ابتعاثه لجامعة لندن (School of Oriental & African Studies) حيث حصل علي درجة الماجستير في القانون في 24 أكتوبر 1961م.

إنضم لجماعة الاخوان المسلمين اثناء دراسته بالمرحلة الثانوية. تم اختياره في وزارة سر الختم الخليفة وزيراً للثروة الحيوانية في حكومة ثورة أكتوبر 1964م ، التي خلفت حكومة الفريق إبراهيم عبود، حيث كان ممثلاً لجبهة الميثاق الإسلامي، استقال لاحقاً من وظيفته كمحاضر بجامعة الخرطوم والتحق بالمقاومة الفلسطينية الجناح العسكري لحركة فتح، رجع الي السودان في عام 1969 ، بعد وصول جعفر نميري الي السلطة بإنقلاب عسكرى.

هو من رموز الحركة الإسلامية في السودان، من جيل الطاهرين المتطهرين، حاول الكثيرون من الإسلاميين محو سيرته من الذاكرة التنظيمية. لأنه يرمز الى بيوريتانية/ تطهرية تجعلهم يحسون بالذنب. كما قال الأستاذ جعفر عباس. والأستاذ جعفر هو إبن خال الشهيد، وهو خير من يكتب عنه. وأنا سوف أكتفي بإيراد حديث الأستاذ عنه:

((اسمه بالكامل محمد صالح عمر محمد الأمين احمد تاقي.. ولد في قرية خميس إكّي بجزيرة بدين و(إكي) كلمة نوبية تعني «دار» وتطلق هي و(مار) على الأحياء السكنية. ولكنه كان يُنادى على الدوام «شيخ صالح» وعاش ومات مؤكدا انه كان شيخا صالحا.. أبوه أيضا كان يحمل اسم «شيخ عمر» وكان من بين نحو ثمانية أشخاص من أبناء جيله في بدين يحسنون القراءة والكتابة.. عمل شيخ عمر لسنوات طويلة في مصر لتوفير القوت لعياله: شيخ صالح وحسن وعبد الرحيم وصلاح وآمنة.. أم شيخ صالح هي فرحين سيد أحمد شقيقة والدي .. كان أخوه صلاح في نفس عمري تقريبا.. كان يلعب معنا في بيتنا ونحن صغار، ولما غربت الشمس عاد الى بيت العائلة في خميس إكي، وبعد نحو نصف ساعة سمعنا العويل: صلاح مات بلدغة عقرب.. وهكذا وإلى يومنا هذا لازمني الخوف المرضي (فوبيا) من العقارب.. وطوال سنوات إقامتي في بدين لم أتعرض للدغة عقرب بينما كان متوسط دخل الفرد من اللدغات نحو ثلاث في السنة، وكنت أحرص على نحو خاص على تفادي لدغة مقرين سقد (عقرب المغارب) داكن اللون الذي لا يمهلك طويلا.

انتقل شيخ صالح من بدين الأولية الى القولد الوسطى وكان أول دفعته في امتحان الانتقال الى المرحلة الثانوية على مستوى القطر، ونال جائزة الملك فاروق، ومنها الى وادي سيدنا الثانوية حيث زامل فاروق حمدنا الله ومأمون عوض أبوزيد (وكانا المهندسين الحقيقيين لانقلاب مايو 1969).. ومن هناك إلى جامعة الخرطوم.. كان بإمكان شيخ/ محمد صالح دخول الطب او الهندسة او العلوم، ولكنه قرر دراسة الشريعة لأنه كان قد قرر تكريس عمره كله للنضال لإقامة نظام إسلامي في السودان.. وكان وزيرا في حكومة ثورة أكتوبر الأولى.. وكان شوكة حوت في حلق الدكتور الترابي وبعض قيادات جبهة الميثاق الإسلامي.. ورغم أنني عشت في كنفه حينا من الدهر وعاش هو في بيتنا لفترات متقطعة خلال الإجازات المدرسية، ورغم أنه كان شديد البر بأهله ويحرص على زياراتهم على نحو منتظم، وبالتالي تعهدني بالرعاية والحب، إلا أنني أتحدى من يقول إن محمد صالح جاهر بخصوماته التنظيمية خارج التنظيم.. وترك الجامعة وانضم الى الفدائيين الفلسطينيين وحارب معهم في الأردن والضفة الغربية، وعندما قام إنقلاب مايو تسلل الى الجزيرة أبا ومعه بعض الإسلاميين وتحالف مع السيد الهادي المهدي للشروع في عمل مسلح ضد حكومة نميري، ولكن الحكومة أخذت علما بالمخطط، وهاجمت أبا بطائرات الميج والدبابات واستشهد محمد صالح بالقرب من محلج ربك.

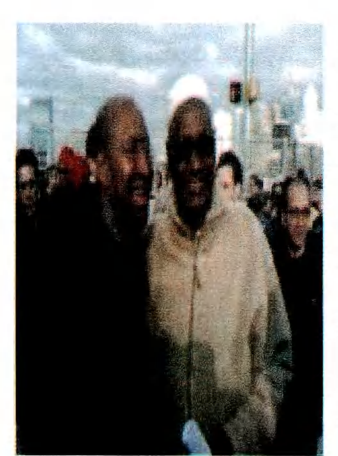
لم يكن محمد صالح من النوع الذي يسعى لـ (تجنيد) كل من هو قريب منه، بل كان في حياته الخاصة يحب الونسة وصاحب نكتة.. تجده جالسا في مخبز محمد عبد العزيز في سوق بحري ومعه ابراهيم محمد افندي ومحمد الحسن كمبال وغيرهما فلا تسمع منهم كلمة واحدة باللغة العربية، بل يكاد كل كلامهم يكون قهقهات متصلة.. لم يخاطبني

قط في أمر سياسي، وكان والدنا يزجرنا كلما وجدنا نمارس اللعب بالورق/ الكشتينة: شيخ صالح كان يقوم ويرقد طول اليوم وفي يده كتاب.. وهكذا صرنا أنا وإخوتي عابدين ومحجوب مولعين بالكتب حتى نحظى بالمكانة التي حظي به شيخ صالح في قلب والدي.

وبعد أحداث أبا ظلت السيدة الفاضلة إحسان أرملته تلهث من مسؤول الى آخر لاسترداد شهادات ميلاد عيالها حتى لا تفوت السنة الدراسية على «سلمى»، وساعدني صلاح محمود مدير مكتب وزير الداخلية فاروق حمدنا الله على مقابلته وشرحت له الأمر فأمر على الفور برد الشهادات الى إحسان وقال لي - والله على ما أقول شهيد: قابلت محمد صالح في بيروت وأعطيته الأمان ليعود أستاذا في الجامعة بشرط عدم ممارسة السياسة فقال لي: ما عندي شغلة غير أسقط حكومتكم.. وأضاف حمدنا الله: لو كان عندنا خمسة اشتراكيين من نوع محمد صالح لبقينا في الحكم الى يوم القيامة!! والفضل ما شهدت به الأعداء.

والده عمر محمد الامين (وكانوا ينادونه شيخ عمر) كان حسن التعليم ومتدينا و"دوغري" وكان من قلة في بدين تقضي وقت فراغها في القراءة، من اخوته عبد الرحيم عمر الذي توفي في حادث سيارة اليم في الرياض في مطلع الثمانينات، كان عبدالرحيم قاضيا شرعيا على خُلق رفيع، كنا زملاء منذ ما قبل المدرسة حتى جامعة الخرطوم ولم اسمعه يوما ما ينطق بكلمة نابية او لفظ جارح وحتى عندما كنا صغارا لم يكن يمارس الشيطنة المعتادة مثل سرقة البطيخ وعيش الريف، وحسن عمر يقيم الآن بالعاصمة بعد اغتراب طويل في السعودية ولديهم اخت واحدة هي آمنة)) إنتهي كلام الأستاذ جعفر، وعندما توفي مولانا القاضي عبدالرحيم عمر كنت أنا في الرياض في ذلك الوقت، وما زلت أذكر موقع الحادث، كان الحادث الأليم في ثاني أيام العيد، وكان الراحل صائما، وكان في طريقه إلي الجمعية لملاقاة إخوته أبناء بدين، ولكنه لاقي خيراً منهم، إذ لاقي ربه، له الرحمة والمغفرة.

عبدالقادر أحمد همت



(يبدو الحاج عبدالقادر في الصورة مع عمدة مدينة فلدلفيا في ولاية بنسلفانيا الأمريكية ، وهي المدينة الأثيرة للكثيرين من أبناء بدين المقيمين بأمريكا ، وهي مدينة في غالبها شعبية لا يحس فيها المرء بكبير فارق بينها وبين الخرطوم ، وأبناء بدين في (فلي) كما يدلعونها ، أصبحوا وكأنهم من السكان الأصليين ، يتحدثون مثل أهلها ويمشون في أسواقها ويتجولون في شوارعها وكأنها ضاحية من ضواحي ملتقى النيلين ، تجدهم في أماكن العمل يتحدثون مع بعضم بالنوبية ،

يمتلكون البيوت ويمارسون أعمالهم الخاصة ، لهم في المدينة صولات وجولات في شتى مناحي الحياة ، تذهب إليهم فيحتفلون بك في كرم حاتمي حميم. هناك يعيش الحاج مع أحفاده أبناء إبنه هشام ، وهشام يشغل وظيفة هندسية مرموقة في بلدية فلدلفيا.)

ولد الحاج عبدالقادر بجزيرة بدين في العام 1940 ، تلقي تعليمه الأولي في مدرسة بدين الأولية التي إلتحق بها في العام 1948 ، وكان منتظماً في خلوة الشيخ حاج فرحان، وكان الناس في ذلك الوقت لا يحبذون إرسال ابنائهم الي المدارس، كانوا يرسلونهم الي الخلاوي، منها خلوة الشيخ حاج فرحان، وبعد إنشاء المدرسة جاء المفتش الإنجليزي، ودَرَسَ الوضع، وبدهاء المستعمر، عين الشيخ حاج فرحان مدرساً للدين في المدرسة ، حتي يرسل الناس أبناءهم الي المدرسة، وقد كان، فذهب الكثيرون الي المدرسة ، وتوقف التعليم في الخلوة علي أيام الجمعة، إكتسب عبدالقادر من روحانيات الشيخ الكبير ما صبغت نفسه وقلبه بإيمان نبيل، ونزاهة في القول والفعل، والحديث عن الشيخ حاج فرحان محبب الي نفسه، ومما حكاه أن الشيخ كان يشرب الشاي ببراد أصفر صغير، وكان هذا البراد الصغير يكفي كل الحيران، وكانت له حاسة غريبة بوجود ما يضر بالقرب من الخلوة، فكان مرات يقف فجأة ويطلب الأبريق، ثم يخرج ويصب الماء علي حجر معين فتخرج عقربة فيقتلها ويعود، وكان في المدرسة في حصة الدين عندما يأتي المفتش الإنجليزي يطلب من التلاميذ قراءة سورة (الكافرون) قل يا أيها الكافرون، الي أخر السورة، وإذا حدث أن صافحه المفتش كان يخرج سريعا من الفصل ويمسح يديه بالتراب ويغلسها بالماء، والمفتش ينظر ويبتسم.

في العام 1952 إنتقل عبدالقادر إلي وادي حلفا للإلتحاق بمدرسة حلفا الأميرية الوسطي، وكان معه 11 طالبا من بدين، منهم أرصد أحمد، عوض إبراهيم، عثمان فرشوم، خيري ملجاب، كمال محمد أفندي وسعيد محمد سيد احمد وآخرون، وكان في حلفا مدرستان، الأميرية والأهلية، يذهب الطلبة من المناطق المختلفة للإمتحان والمنافسة في المدرستين، وفي تلك السنة كان عدد الطلبة المتنافسين 360 طالباً، يقبل منهم اولاً 42 طالب في الأميرية وهي مجانية، ثم 42 في الأهلية وفيها رسوم، وعلي بقية الطلبة العودة أو الذهاب للمنافسة في مدارس أخري، وكان ترتيب عبدالقادر هو 28 من الـ 360، وكان المفروض أن يقبل في الأميرية، ولكن حدثت مؤامرة من تجار حلفا وبالإتفاق مع المفتش الإنجليزي أكملوا العدد المطلوب في الأميرية من ابنائهم، وقُبل هو في الأهلية، وكان مبلغ الرسوم 150 قرشاً، وما أن إنتظمت الدراسة في المدرسة حتي جاءه عرض(مغري) من مصر للسفر إليها والدراسة هناك، فمرة، وهو في الفصل ناداه الناظر وقال له أن إخوانك في مصر يريدون منك السفر لمواصلة الدراسة هناك، فإحتار في الأمر وشاور زملاءه، هو يريد المواصلة في حلفا ولكن مصر بدت مغرية، وفهم الناظر أنه سوف يسافر فقبل طالبا أخر في الداخلية بدلاً منه ، ولما عاد الي الناظر وقال له أنه ربما يواصل قال له الناظر أن فرصته في الداخلية ضاعت وأنه يمكن أن يواصل خارجي، وقد عرض عليه الإخوان إدريس بدوي وعوض بدوي السكن معهم في البيت، وهم من أبناء المحس الذين تربوا مع عبدالقادر في بدين، ولكن في النهاية قرر السفر الي مصر، وكان الطلبة في الفصل، ومن الشباك ودعهم وقال لهم أنه مسافر، وفي الميناء وجد العم سعيد هاشم الذي إشتري له تذكرة بـ (7 قروش) الي الشلال ثم من هناك الي القاهرة، ولم تكن جوازات السفر مطلوبة، بل كان السودانيون يذهبون الي مصر بدون اي أوراق ثبوتية، وثاني يوم وصوله الي القاهرة قامت الثورة، أنقلاب جمال عبدالناصر، كان إخوانه وأبناء عمومته في

الأسكندرية. فسافر الي هناك. ونافس في مدرسة ثانوية مع 800 طالب. وكان ترتيبه الأول في الـ 800 ، ولكن ما أن إنتظمت الدراسة حتي تم قفل المدرسة من قبل الثورة بإعتبارها مدرسة برجوازية. فعاد عبدالقادر الي القاهرة للإلتحاق بالأزهر. وكان بالأزهر في ذلك الوقت عدد كبير من أبناء بدين،حوالي 42 طالباً. منهم: محمد عثمان موسي، الذي عمل في وزارة التربية والتعليم في السودان. قسم المناهج المدرسية. وكان له كتاب شرح لمعلقة عنترة التي درسناها في الثانوية العامة. ومحمد علي موسي، ومحمد الحسن موسي، ومحمد حسنين. والطاهر سيد ترجمان، وعبدالرازق عبدالودود. وعبدالمجيد عبدالرحمن. الذي عمل مديراً زراعياً في عسلاية. وعمسيب محمد فضل، وفضل عكاشة. وعبدالماجد خليل . وإبراهيم حسن وأخرون.

وبينما كان عبدالقادر يدرس في الأزهر إلتحق بمدرسة عابدين الإعدادية الليلية. ثم في العام 1955 إلتحق بثانوية(مسائية) وفي 1957 سمح للطلبة السودانيين بالتحول الي المدارس الأكاديمية. فألتحق بالثانوية التجارية ومعه الطاهر سيدأحمد. وإلتحق عمسيب بقسم الكهرباء، وعبدالمجيد بالقسم الزراعي. وكانت المنحة الحكومية للطالب السوداني في ذلك الوقت 8 جنيهات من الحكومة المصرية. وفي العام 1960 تحصل علي دبلوم التجارة الثانوية. وكان مع الدراسة يمارس الرياضة. وبين عامي 57 و 1960 تحصل علي بطولة جمهورية مصر للملاكمة للمدارس الثانوية (وزن الريشة) وأيضاً علي بطولة الجمهورية في ألعاب القوي في الجري مسافات طويلة ومتوسطة. ثم إنضم الي الفريق القومي المصري مع أعضاء النادي الأهلي. وفي 1960 تقرر أن يسافر الفريق القومي الي روما للأولمبياد ، فأستخرجوا له بطاقة بإعتباره من مواليد أسوان، وكان خط سير الرحلة الي سوريا ثم الي ألمانيا ثم من هناك الي روما. ويوم السفر وبعد الصعود إلي الطائرة وبعد أن شحنت شنطته الي روما ، أنزلوه وقالوا له لا بد من إستخراج جواز سفر. ولا بد له من الجنسية المصرية. وكلفوا ضابطاً ليأخذه في اليوم التالي الي المجمع لإستخراج الجنسية والجواز ثم اللحاق بالفريق في سوريا مع الضابط . فتردد. ثم شاور إخوانه في الجمعية والنادي السوداني. فقالوا له (إذا اتجنست مصري تاني ما تعتب الجمعية والنادي) فقد كان التجنس بجنسية أخري في ذلك الوقت عيباً ومرفوضاً. بالذات الجنسية المصرية. وفي صباح اليوم الثاني وهم في القهوة رأي الضابط المكلف قادماً. فأختبأ في الحمام. وجاء الضابط يبحث عنه. ويسال السودانيين (يا قماعة ما شفتوش عبدالادر. بتاع الملاكمة. حيكون راح فين يعني . يخرب بيته. ده حيطلعني من السفر. لازم تجيبو من تحت طآطيق الأرض). وفي اليوم التالي والضابط يبحث عنه سافر عبدالقادر وهرب الي السودان. وصل الخرطوم في اغسطس 1960 ، وذهب الي طلعت فريد وزير الإعلام في حكومة عبود. وكان بينهم معرفة. فطلب منه طلعت السفر إلي مدني مسئولاً عن الإعلام الرياضي هناك. وفي اليوم التالي وبينما هو وجمعة خليلي ذاهبان الي وزارة الإعلام. توقف في البنك العربي لتقديم إستمارة طلب وظيفة. وكان المدير أردنياً. وبعد مقابلة قصيرة ارسله لموظف حلفاوي إسمه حافظ البارودي. فأجلسوه الي طاولة وسلموه الشغل فوراً. فبدأ العمل. وبعد أكثر من ساعة تذكر أن جمعة خليلي ينتظره في الخارج. فذهب وقال له (إنت ممكن تمشي، أنا إشتغلت). ثم ذهب الي طلعت فريد وأعتذر عن السفر الي مدني بحجة الوظيفة في البنك.

فطلبوا منه تدريب الملاكمة وألعاب القوي في الفريق القومي، ثم تقرر أن يسافر الفريق القومي الي الرباط في الدورة العربية. فرفض البنك . فقامت (شكلة) بين البنك والوزارة، وتعاملت الوزارة بأسلوب العساكر فرضخ البنك وسمح له بالسفر، وفي الرباط . ونتيجة الفساد والإستهتار الذي يصاحب المسئولين السودانيين فقد تم إختلاس الميزانية المخصصة للاعبين ولم يتم تجهيزهم كما يجب، فقد زودوا فريق الجري للمسافات المتوسطة والطويلة بأحذية (باتا) الرخيصة والتي لا تناسب تلك الرياضة، فلم يتمكن اللاعبون من احراز أي نتيجة، وقد وصل بعض اللاعبين الي نهاية الخط وهم حفايا بعد أن تمزقت تلك الأحذية الرخيصة، وعندما عاد الفريق قدم عبدالقادر إستقالته إحتجاجا علي ما حدث.

بينما هو يعمل في البنك العربي إلتحق بالقسم الليلي في المعهد الفني (جامعة السودان حالياً) . وفي 1967 تحصل علي الدبلوم العالي من معهد المصارف (الدفعة الثانية في المعهد)، وفي 1971 كان مقرراً أن يسافر الي لندن من قسم المحاسبين القانونيين ولكن صدر قرار جمهوري بمنع السفر، في 1973 إنتقل الي بنك النيلين فرع الأمم المتحدة، وبعد التدرج في وظائف إدارة البنك، وفي 1981 أُنتدب لمدة 4 سنوات لتأسيس بنك التنميةالشعبية، حيث تم تأسيس 4 فروع.

في 1988 أنتدب مرة أخري لتأسيس بنك العمال، ولا تسمح القوانين بإنتداب الموظف الحكومي مرتين، ولكن تدخل د. بشير عمر وزير المالية في ذلك الوقت واستعمل حق الوزير في إنتداب عبدالقادر مرتين، فأسس البنك وعمل مديراً حتي 1993 . وبعد مجابهة بينه وبين بعض الإسلاميين احيل الي المعاش.

في نفس العام 1993 سمع من الإذاعة وبصوت رئس الجمهورية عمر البشير تعيينه مديرا عاما للإتحاد التعاوني لولاية الخرطوم، وفي صباح اليوم الثاني سافر الي بدين تهرباً من الوظيفة، فأرسل إليه يوسف عبدالفتاح نائب الوالي ومسئول الحركة التعاونية في الولاية مذكرة صغيرة تقول(ممكن تقعد هناك سنة لكن حتجي تستلم التعاون). فعاد وذهب الي اللواء الزبير نائب رئس الجمهورية، فأفهمه الزبير ان هذا القرار تكليف ولا بد له من التنفيذ، فاستفسر عبدالقادر عن المدة، فقال له الزبير بالأُشكر (سنة دج بتيقي) يعني حتقعد خمسة سنين، فذهب الي يوسف عبدالفتاح، وكان يوسف يعرف راي عبدالقادر في إدارة التعاون التي كان يهاجم فيها الفساد، فقال له يوسف أنه تم تعيينه حتي يحارب الفساد، فأشترط هو تطبيق شروط البنوك التجارية في التعاون، فلم يمانع يوسف، وفور إستلامه العمل إجتمع ببعض الموظفين وطلب منهم الذهاب الي 3 بنوك وإحضار شروط العمل فيها، وخلال 48 ساعة تم تعديل شروط العمل فتمتع الموظفون بكل إمتيازات موظفي البنوك، وكان كل ذلك حافزاً لهم للإلتزام الكامل بمواعيد العمل وترك التسيب، وأخذ الاتحاد التعاوني في تطور لا مثيل له، وتم استيراد عدد من المطاحن من الصين، ثم مصانع زيوت ومصانع صابون وجراكن وأفران آلية من تركيا، وكان ذلك بداية التبادل التجاري الكبير بين تركيا والسودان، فقد مهد له هو بصفقة المصانع، وأصبح الإتحاد التعاوني أحد أنجح المؤسسات في الدولة، ولكن (السوس) الذي يصيب كل نجاح زحف علي التعاون، فقد تآمر اصحاب العمل وإتحاد الصناعات

علي هذا النجاح، فجاء توجيه من أمانة التنظيم الي عبدالقادر بقفل هذه المصانع وشراء المواد من مصانع التجار وتوزيعها علي التعاونيات، بحجة أن التجار شريحة لا يمكن الإستغناء عنها وعن دعمها، وهكذا أجهض ذلك النجاح الإقتصادي الكبير، وقد تطورت المواجهة بينه وبين الجهات الفاعلة في الدولة وتم قفل المطاحن والمصانع التي تحولت الي خرابات ينعق فيها البوم ، وتقف شاهدة علي الفساد الجائر، وهكذا قدم عبدالقادر إستقالته من التعاون، حتي معاشه الرسمي من البنك (ومعه آخرون) توقف عندما باعوا البنوك، وقد رفعوا دعوي أمام المحاكم وكسبوها، ولكن رأي محافظ بنك السودان أنه أكبر من القضاء فرفض تنفيذ قرار المحكمة، وهكذا ترك كل شئ وتفرغ لرعاية أبناءه وأحفاده، ألا أبقاه الله لهم وأبقاهم له.

محمد شريف فضل حاكم

وهذه سيرة شخصية أخري من بدين، هو السيد / محمد شريف فضل حاكم، وهو من مواليد 1940 ميلادية، تلقي تعليمه الأولي في مدرسة بدين الأولية، ثم أرقو الوسطي والتي عمل فيها السيد عزالدين السيد معلماً، وربما درّس السيد محمد شريف، ثم إنتقل السيد محمد شريف الي مدرسة وادي سيدنا الثانوية، حيث بدأ نشاطه السياسي في تلك المرحلة منضماً الي حزب الأمة، إلتحق بكلية الآداب جامعة الخرطوم، وكان من الطلاب النشطين تحت راية حزب الأمة في إتحاد الطلبة، وكان من الذين شاركوا في القيادة الطلابية التي ساهمت في إسقاط نظام عبود العسكري، تخرج من الجامعة في العام 1968، بدأ حياته العملية ضابطاً إدارياً، وبعد المصالحة في 1977 مثل الضباط الإداريين في مجلس الشعب لدورتين من موقعه سكرتيراً للضباط الإداريين، بعد إنتفاضة أبريل 1985 ترشح في الدائرة 57 دنقلا الشمالية (ريفي أرقو والحفير)، ضد مرشح الجبهة الإسلامية د. عبدالوهاب عثمان والأستاذ علي محمود حسنين مرشح الحزب الوطني الإتحادي، ولكن لم يحالفه الحظ حيث فاز مرشح الجبهة.

في العام 1987 نال ثقة رئيس حزب الإمة ورئيس الوزراء الصادق المهدي وعين نائباً لحاكم الإقليم الشمالي وإستمر في ذلك المنصب حتي تاريخ تشكيل حكومة الوفاق الوطني التي بموجبها دخلت الجبهة الإسلامية القومية السلطة. عرف عنه الوطنية الصادقة والإخلاص الشديد لحزبه ومبادئه ، وقد كان رحمه الله عفيفاً متواضعاً لم تفسده إغراءات السياسة والمناصب .

الأستاذ جعفر عباس (أبوالجعافر)



جعفر عباس سيد أحمد حاج شيخ موسى حاج ، وُلد فى الخرطوم بحرى، في يوم ما فى سنة ما من القرن الماضى ، وقد ضاع تاريخ الميلاد بين الخرطوم بحرى التى وُلد بها وجزيرة بدين التى إنتقل إليها فى طفولته الباكرة مروراً بكوستى ، حتى إسمه تبدل من جعفر عباس إلى جافر اباس ، ثم تبدل مرة أخرى إلى إبى الجعافر فى ظروف غامضة ، وأبو الجعافر يقول أنه يتذكر أن مولده الميمون كان فى شهر سبتمبر، أما السنة ففيها خلاف كبير بين المؤرخين ، إذ تعذر على الجميع تحديد العقد ، منهم من يقول أن ذلك كان قبل الثورة ، وليس من

الواضح إذا كانت الثورة المعنية هى الثورة المهدية أو ثورة اللواء الأبيض، وهناك من يقول أن مولده كان قبل الحرب . ولكن أيّ الحروب، يؤكد البعض أنها الحرب العالمية، ولكن الأولى أم الثانية . إن كانت الأولى ففى أي سنواتها . يقول البعض أن ذلك كان بعد دخول فرنسا الحرب وقبل دخول تركيا العثمانية . والبعض الأخر يؤكد أن أبا الجعافر وُلد بعد إنتهاء الحرب . غالباً أثناء أو بعد توقيع إتفاقية فرساى . وإذا كنا نعلم أن ذلك التوقيع كان فى يونيو وأن مولد أبوالجعافر كان فى سبتمبر . فذلك يعنى أنه ولد بعد الإتفاقية . يبقى علينا أن نبحث عن السنة التى تمت فيها الإتفاقية . وبذلك يتم إستبعاد أنه ولد بعد الحرب العالمية الثانية.

والده عباس سيداحمد ، من قرية فيدي فى شياخة نُشى فى جزيرة بدين ، تمرد على العمل الزراعى وقرر أن يلحق بشقيقه الأكبر الطيب فى (بر مصر) كما كانوا يسمونها . وبعد عناء ووعثاء تمكن عباس من الوصول إلى الأسكندرية حيث أخيه . ولكن عباساً لم يهنأ بالمدينة البحرية المتوسطية المغرية . إذ قرر الطيب إرجاع عباس إلى بدين ليقوم بحراسة (الغقاب) . وبدلاً من العودة إلى بدين وصل عباس عن طريق الخطأ المتعمد إلى الخرطوم بحرى . حيث أخذه القطار إلى هناك . كما أخذ مصطفى سعيد إلى محطة فكتوريا . ونجح عباس في الحصول على وظيفة بحار في بواخر مصلحة النقل النهري التي كانت تعرف باسم "الوابورات" .

بعد أن إستقر عباس سيدأحمد فى الخرطوم بحرى إستقدم زوجته أمنة فقير من بدين . وبعد ولادة إبنهم جعفر عادت الأم مع أطفالها إلى بدين بعد قضاء فترة وجيزة فى كوستى التى كانوا قد إنتقلوا إليها بعد ولادة جعفر . وفى بدين إلتحق جعفر بمدرسة بدين الأولية . وبدلاً من أن يواصل تعلم العربية فقد نسيها وتعلم النوبية . ثم إنتقل إلى المرحلة المتوسطة فى البرقيق . حيث دخل فى عشق غارم أو غرام معشوق مع اللغة الإنجليزية . التى أصبحت مادته المفضلة . وقد برز فى الإنجليزية بقدر خيبته فى الرياضيات . وبجانب الإنجليزية يقول أبوالجعافر أنه بدأ فى حفظ الكثير من الشعر العربى . ومع أحتفاء الناظر محمد بشير الأحمدى بتفوق أبوالجعافر فى الإنجليزية إلاّ أنه أيضاً شجعه على إجادة اللغة العربية وخاصة الشعر العربى . ثم أهداه ديوانى الخمائل والجداول لإيليا أبو ماضي فقام أبوالجعافر بحفظ قصائد الديوانين . ثم حفظ بعض شعر المتنبى . (فطلع) هذا الشعر الكثير فى رأسه . وسبب له حمى شعرية . فأعتقد جعفر أنه أصبح شاعراً . وهكذا إستدعى شيطان الشعر الذى نزل عليه فى حصة اللغة العربية . فأخذ القلم وكتب فى ورقة أمامه هذا البيت من الشعر (من نارك يا جاق == أنا طالب المطاقى)

وفعلاً جاءته المطاقى ولكن فى شكل علقة لاطمة من مدرس اللغة العربية . فأُجهض موهبة أبى الجعافر الشعرية فى مهدها . وتحولت تلك الموهبة من الشعر إلى الكتابة الساخرة . فبلغ فيها إبوالجعافر شأواً عظيماً . وليت مدرس اللغة العربية عاش ورأى تلميذه أين وصل.

والدته هى أمنة حامد شوكت (فقير بحرية) . من أسرة دينية عريقة . وهى أسرة معروفة فى بدين . وما يزال مسجدهم العريق قائماً بجوار قبة الشيخ (فقير بحرية) .

من البرقيق الوسطى إنتقل جعفر إلى وادى سيدنا الثانوية ، ثم جامعة الخرطوم ، ثم بدأ حياته العملية أستاذاً للغة الإنجليزية في مدارس السودان ، ثم بدأ سنوات الغربة الطويلة ، وما زال يكافح (ليكوّن) نفسه كما يقول ، عمل في تلفزيون بي بي سي ، وبعد سلسلة وظائف أخرى انتقل الى قناة الجزيرة الفضائية حيث يعمل الآن في وظيفة مرموقة يسيل له لعاب الكثيرين ، ما زال ينشر مقالات يومية في عدد من الصحف الخليجية والسودانية ، سمى عموده الصحفي (زاوية منفرجة) ولكنها قليلاً إحتدت مع إحتداد الأحداث في العالم ، فأصبحت (زاوية حادة) وما لا يعرفه الكثيرون هو أنه الكاتب الساخر العربي الوحيد (رغم انه نوبي تعلم العربية في المدرسة كلغة أجنبية) الذي أُدرج في قائمة الكُتّاب الساخرين من مختلف القارات منذ مطلع القرن التاسع عشر.

الزعيم عكاشة ادريس صالح



أما والدنا الزعيم عكاشة فرجل ولد بنزعة زعامية أصيلة، وطموح سياسي كبير، ولكن غلبته الأمية، كان ذو بنية برلمانية، ولو وجد فرصة تعليم لكان له شأن آخر، ترشح لعضوية البرلمان في أحد الإنتخابات ، ولكنه إنسحب لصالح مرشح آخر ، وكانت داره منزلاً لكبار زوار الجزيرة، وفي بيته رأينا الدكتور محي الدين صابر بكدوسه الإنجليزي ونحن صغار. توفي الزعيم رحمه الله ولسان حاله يقول (أضاعوني وأي فتي أضاعوا)، رحل وترك كوكبة من أبناء بررة ذوي أيد حاتمية بيضاء، أفاض الله عليهم من فضله فتفضلوا به علي من احتاج من ذوي القربي والغرباء، وهوسمى نفسه زعيماً بقولته الشهيرة {أنا زعيم شبة كما أن موسوليني زعيم تشي } ، وله الكثير من الطرائف الخفيفة التي يرويها الشباب، ولأخي عبدالله فقير كثير من المواقف مع الزعيم، وقد جاءني هذا الحوار من حفيده محسن عبداللطيف، وهذا الحوار يمثل شخصية الزعيم في كثير من النواحي، وقد تحدث محسن مع جده في العالم الآخر، قال محسن:. ((جدي الزعيم عكاشة حينما إتصلت به في عالم البرزخ وعرّفْته أن ود الشيخ فقير علي كتب عن جزيرتك بدين في المدونات العنكبوتية العالمية، قال: مين فيهم؟ قلت محمد، قال: لا إن كان محمد معليش ... قال: ماذا كتب عن بدين ... قلت سرد تاريخي بأسلوب سلس ورائع، عن تاريخها وقصصها وأُحجيتها... قال: قصصها عرّفناه، أون أحجيتها ده شنو، أنت ياولد وماهتبطل فلهمتك دا، ملعيش ياجدو زلة لسان ...قال: بعدين تعال أنت يا إبني أنت محمد فقير ده مش الكان عايز يهدم الكعبة الجنب الجامع حقنا .. قصدك القبه ياجدو ... قال: سبحانك يا دايم، آهن أنتو غيرتو أسمو ولاّ شنو ... قلت لا ياجدو داك شيخ طويل، ياجدو محمد بيكتب كلام جميل عن بدين وشعر من عندو، وكلام من هنا وهناك، زي ناس الطيب صالح والفيتوري .. قال: الطيب صالح كان صحبي ، وهو جانا هنا في الآخرة ، وجا سلم عليْ ، لكن الفيتوري ده ما عرفته، كان فوقه فايدة كنت عرفته .. بعدين وين أخوهم الوستاني عبدالله؟ لسع بيحاكيني؟، قلت برضو هو في أمريكا ... قال: أمريكا أمريكا، إنتو هسع عارفين أمريكا يعني شنو؟ قول ليه ياأبني

يامحمد. بدين لومازرتها قريب... زرها ياولدي ، كلكم زورا بدين. إنتو اللأقاب. نحن عملنا العلينا ولاقينا رب العزة والجلة. أنتو عليكم الباقي.))

الأستاذ سيد ادريس صالح شبر

ومرة أخري أتكئ علي أحاديث الأستاذ جعفر عباس. لم يكن بمقدوري الكتابة عن سيد إدريس. لعدم معرفتي به. ولعدم وجود مصادر وثيقة توفر عنه أية معلومة. وهذا مقال كتبه أستاذنا جعفر في أحد أعداد جريدة الرأي العام. أورده هنا كما هو:

((كان مقالي الأخير عن صالح شبر. الذي يعتبر بحق أول داعية إسلامي في جزيرة بدين.. قد يغضب هذا الكلام بعض أفراد عائلتي التي تحمل لقب «فقير نسي» أي أحفاد الفقهاء (الذين اضطلعوا بتعليم القرآن وتعمير المساجد لعدة قرون). فمنذ ان نال الدرجات العلمية الرفيعة في العلوم الدينية جعل صالح شغله الشاغل توعية الناس بأمور دينهم مع الانخراط في أمور دنياهم بالعمل معهم في الحقول وغيرها.لصالح هذا أخ يعيش الأن في الحاج يوسف. ويعاني من ويلات تعقيدات السكري واسمه سيد إدريس صالح شبر.. كان يسبقني في المدرسة الابتدائية بعام او اثنين. ولكننا كنا نتعامل معه ك «مدرس» فقد كان فارع القوام وفصيحا يقول كلاما «كبيرا» بالعربية والرطانة.. كان ذكيا فطنا و»لايوق» وينشف ريق المدرسين بأسئلة صعبة لأنه لم يكن ببغاء مثلنا تردد كلام كتب الحكومة بلا نقاش.. ثم اختفى من شاشة راداري بعد ان التحق بمعهد التربية وصار مدرسا في المرحلة الابتدائية. والتقيت به مجددا وأنا طالب بجامعة الخرطوم.. وما أدراك ما جامعة الخرطوم في ذلك الزمان.. كان من يتخرج منها يجد القبول للدراسات العليا في كيمبردج واوكسفورد وهارفارد بالمزيكة وبلا حاجة الى انترفيو او معادلة شهادة. وكنا نمارس الاستعلاء على الدارسين في الجامعات الأخرى أجنبية كانت ام محلية .. شخصيا كنت اعتبر نفسي قارئا نهما لكل صنوف الكتب. ثم اكتشفت انني «ولا حاجة» مقارنة بسيد ادريس.. قرأ كل شيء من مقدمة ابن خلدون الى روايات هندي عوض الكريم (كان رجلا شاطرا يصدر كتابا يحمل كلمات الأغنيات الرائجة و.. بالمرة يكتب قصة طويلة مسلسلة بالاشتراك مع صديق له يدعى مصطفى الكضبي)وبعد نحو 15 سنة في التدريس قرر الحصول على درجة جامعية وجلس لامتحان الشهادة ونجح بتفوق.. تذكر أنه خريج معهد تربية ينتج مدرسي المرحلة الابتدائية وبالتالي فحصيلته من الانجليزية مثلا تحت الصفر بقليل. ولم يكن بمقدوره لاعتبارات مالية التفرغ للدراسة الجامعية. وهكذا التحق بكلية القانون بجامعة القاهرة فرع الخرطوم حيث الدراسة مسائية.. وطبعا وزارة التربية تعجبك في النكد والتنقلات العشوائية للمعلمين.. بعد التسجيل في الجامعة وجد سيد شبر نفسه منقولا الى مدرسة في دارفور. فاقترحنا عليه ان يستقيل من التدريس والتفرغ للدراسة مع البحث عن عمل أخر (وكانت الوظائف وقتها بالهبل لكل ذي جدارة). ولكنه توجه الى دارفور وظل يأتي الى الخرطوم مع موعد الامتحانات الجامعية واكمل دراسته في اربع سنوات بتقدير ممتاز... ثم «عملها» مرة أخرى.. جلس لامتحان المعادلة ونجح على الفور.. هناك من تخرج في الجامعة قبل 30 سنة ولم ينجحوا في ذلك الامتحان الى يومنا هذا.. خذ في الاعتبار ان الامتحان كان بالانجليزية وسيد شبر كان شبه ماحي في تلك اللغة.

ولكن وبقوة الإرادة ولأنه ذكي بالفطرة فإن سيد صار «بلبل» في اللغة الانجليزية.. وكان جميع معارفه موقنين أنه لو دخل مجال المحاماة فسيصير ذا شنة ورنة وملايين خلال سنوات معدودة، ولكنه ركب رأسه الناشف وأعلن أنه لن يرضى بغير التدريس مهنة.كنت في أبو ظبي عندما تلقيت اتصالا هاتفيا من سيد إدريس من سلطنة عمان، وقال لي كلاما جعلني أحس بأنه متسلطن أي محشش، وبعدها بأيام وصلتني منه ملزمة ضخمة من الأوراق تتكلم عن «المنظور الاحتباطي».. قرأت الأوراق نحو ست مرات وأحسست بخلل في قواي العقلية.. سيد توصل الى شفرة لفك رموز الأحلام تمثل مفتاح علاج العديد من الاضطرابات النفسية مثل الفصام والهلوسة والبرانويا.. قابلت وأعرف عديدين تعافوا على يد ابو السيد.. المسألة ليست تخاريف، بل تقوم على معطيات متفق على معظمها في علم النفس الاكلينيكي، وقد اطلع سيد على كل ما كتبه فرويد والتجاني الماحي وغيرهما من عمالقة الطب النفسي،.. وبالمناسبة، لو أراد الله لك البهدلة فحاول ان تكافئ سيد نقدا او عينا لأنه عالج قريبا لك.وهناك أطباء نفسانيون مقتنعون تماما بجدوى المنظور الاحتباطي، ولكن مشكلة سيد أنه يخشى ان يطرح مفاتيح رموز الأحلام التي توصل اليها في منبر علني، فيسرقها منه بعضهم وينسبونها الى أنفسهم خاصة وأن سيد لا يحمل مؤهلا تقليديا معترفا به.. والأطباء يقولون: لا نستطيع ان ندلي برأي حاسم حول النظرية حتى يطرحها أمامنا بالكامل.ويا عزيزي سيد اطال الله عمرك اطرح كل ما عندك عبر أي منبر تختار واعتبره هديتك لوطن تحبه وتحملت في سبيله شتى صنوف البهدلة.. احتسبها يا أخي فقد عشت طوال عمرك «مفلسا» لأنك كنت تشيل هموم الأخرين ولن تزداد فقرا او غنى برفع القيد عن رموزك ومفاتيحها.))

محمد محي الدين أحمد

تاريخ الميلاد: 1940 م . الولاية الشمالية . دنقلا . جزيرة بدين

المراحل الدراسية:

المرحلة الأولية: مدرسة بدين الشمالية بنين

الوسطي والثانوي: الأزهر الشريف

المرحلة الجامعية: كلية الإعلام . جامعة الأزهر الشريف

درجة الدكتوراة الفخرية من جامعة اوليا نوفسك 1995

المراحل العملية:

مدير المطبعة الحكومية

مدير إدارة الطباعة والنشر بوزارة الثقافة والإعلام

عضو مجلس الشعب 1981 م

عضو المجلس الوطني دورة 1996 عن الدائرة 30 شرق النيل

مؤسس الجمعيات الخيرية بشرق النيل

مؤسس داخلية الطالبات بالخرطوم بحري

مؤسس نقاط بسط الأمن الشامل شرق النيل

مؤسس دور اللجان الشعبية شرق النيل

مؤسس مركز الأمومة والطفولة وتنظيم الأسرة

المدارس الإبتدائية التي اسسها:

1. مدرسة الفاروق بنين 2. مدرسة تاجوج بنات 3. مدرسة الزهراء بنات 4. مدرسة الإمتداد جنوب بنات

المدارس الثانوية التي أسسها:

1. مدرسة ود السائح الثانوية النموذجية بنات 2. مدرسة ودالسائح الثانوية بنين شمبات

3. مدرسة محمد محي الدين الثانوية النموذجية بنين (ود السائح الثانوية سابقاً)

من مؤسسي مستشفي البان جديد بشرق النيل

من مؤسسي مركز صحي الكمبوني بالحاج يوسف

من مؤسسي الأندية الرياضية والثقافية شرق النيل

من مؤسسي الأسواق المحلية شرق النيل

من مؤسسي نادي جمعية سلنارتي الخيرية بالخرطوم بحري

من مؤسسي نادي جمعية جزيرة بدين الخيرية بالخرطوم بحري

رئيس تحرير جريدة رايات العز

رئيس نادي الحاج يوسف

رئيس جمعية جزيرة بدين الخيرية

رئيس جمعية سلنارتي الخيرية

رئيس لجنة توزيع الأراضي السكنية لإمتداد الحاج يوسف

رئيس لجنة توزيع المشاريع الزراعية بمشرع ارقين بالولاية الشمالية 2006 م

رئيس الإتحاد العام لمعاشي الخدمة المدنية بالسودان

مؤسس دار اتحاد معاشي الخدمة المدنية شرق النيل

توفي في 18 / 6 / 2007.

الخليفة محمد عثمان الخليفة يعتبر اول شخص من جزيرة بدين تخّرج من الأزهر الشريف، حسب ما جاء في منتديات بدين، فقد تخرج العلامة محمد عثمان خليفة من الازهر فى 1914 وساعده فى ذلك تقلد والده عثمان الخليفة الأب منصب كبير خلفاء السادة الأدارسة الذين كان لهم علاقة وثيقة بمشيخة الأزهر وتقلد بعد ذلك كبير خلفاء الأدارسة، وللعلم هو والد المرحوم عثمان الخليفة امام مسجد شبة الشرقية (مسجد الخليفة) رحمهم الله

جميعا. أما أول من توظف في الدوائر الحكومية من أبناء بدين كان محمد أفندى . ومن هنا أخذ لقب أفندي الذي عرف به. ويقال أنه والشيخ عبدالعزيز زمراوى كانا يدرسان فى خلوة الشيخ فقير محمد احمد الكبير فى فيدى، وهى خلوة عريقة جدا، وفي زيارة للمأمور الانجليزى للخلوة تم إختيارهما لحسن خطهما في الكتابة، وربما كان توظيفهم فى اوئل القرن العشرين، لأن الشيخ عبدالعزيز زمرواى كان يعمل فى مصلحة السكة الحديد وإحيل للمعاش فى عام 1938 . وجدير بالذكر أن أول من تخصص في علم الإحصاء فى السودان هو (صالح تور) وإسمه الكامل هو صالح أحمد طه صالح تور . من شبة.

وفي الجزيرة شخصيات عرفت بالمبالغات، والتعليقات الساخرة، والمواقف الطريفة، ودعنا نبدأ بعمنا أدم . وقد كان آدم رجلا أُميا ،لم يفتح الله عليه بحرف، إلا أنه كان يملك خيالاً واسعا، وذهناً مبدعا، لو وجد فرصة تعليم لكان روائيا شهيرا، كان يتعمد الكذب ويتحراه بصدق وإصرار، يبدأ قصصه القصيرة، والتي كانت في منتهي الجودة من حيث الحبك والسبك وترتيب الأحداث، بإبتسامة (ظاهرة)، تقول لك أنه يعرف أنك تعرف أنه كذاب، ولكنه يلمح لك أن تستمع له متغاضيا . فالمهم ان يحكي هو وان تستمع انت، والقضية كلها بالنسبة له ترفهية، وكنت كلما وجدته انعمد الجلوس بجانبه لأن له بعض التعليقات الساخرة والجريئة جدا والتي كان يطلقها بصوت خافت، وكان يحتفي بي ويعتبرني مستمعا جيدا ومثاليا، ومرة ونحن جلوس بجانبه، اخذ الناس يتحدثون عن قطع الأراضي وأسعارها، فجاء أحدهم من المسجد بعد الصلاة، ولما وجد الناس يتحدثون عن الأراضي طلب منهم السكوت، قائلاً ان الإمام قال ان كل الناس سوف يحملون أراضيهم علي رؤوسم اثناء الحساب يوم القيامة، فما كان منه إلا ان سخر من هذا القول وعلق بصوت خافت (طيب الناس حيشيلو الأراضي فوق رءوسم وحيقيفو وين؟ . يا غشيم إنت وإمامك) . وحكي انه مرة غضب من شخص عاكسه امام جمع من الناس، فرفع المسكين وقذف به الي اعلى، فانطلق كالصاروخ حتى إختفى في الفضاء، فانتطره الناس وهم في دهشة حائرون، فلم يظهر، وبعد ان يأس الجميع وقرروا الذهاب، إذا بحذاء المسكين يرتطم بالأرض، ويتحول الي قطع صغيرة، وإذا به يظهر نازلاً من السماء، وما ان إقترب من الأرض ووقعت عيناه عليه، حتي طار عائداً الي السماء، ولم ينزل المسكين حتي الآن . رحم الله عمنا أدم.

أما عمنا (مختار شركابة) فكان لا يقل سخرية عن أي كوميدي معروف، يذكرك بفلاسفة التشاؤم والإلحاد، او الشعراء الصعاليك، شخصية متميزة، نادر علي طريقته، لو وجد فرصة تعليم، وصادق الطيب صالح، لقام بدور منسي تماماً، كان يعمل مزارعاً في جزيرة زراعية تابعة لجزيرة بدين، اسمها موقة، وكان الموسم موسم حصاد الفول، فجاء مختار الي المركب وهو يحمل علي حماره شوال فول واحد، هو كل الذي خرج به من الموسم، ثم وضع الشوال في المركب، واستلقي علي جنبه متكئاً علي الشوال، وانحني برأسه مغمضاً عينيه، فسأله احدهم، اها يا خال، الفول السنة دي طلع كم ؟؟، فما كان منه ، ودون ان يرفع راسه او يفتح عينيه الأ ان قال، وهو يتبتب علي الشوال:(والله ياخي أرقن حسبامو . يعني لسع ما حسبنه) . كان ساخراً، حاضر البديهة بصورة مذهلة، وكان يتحدث

مع نفسه في الطريق، معلقاً علي كل الذي يراه، وكان يأتي الي بدين يوم الجمعة للصلاة، كان الدين كله يتلخص عنده في ركعتي الجمعة، يأتي بنفس ملابسه التي يعمل بها(عراقي وسروال وطاقية)، ويطبق الجلابية ويضعها علي كتفه مع العمة، ويؤدي الصلاة ويعود الي مزرعته دون ان يهبش الجلابية والعمة، وكما قلت كان يعمل مزارعاً في جزيرة موقة، وله زرع وبقر وبهائم، تحتاج الي رعاية يومية، وذهب اليه واحد من اصحاب الدعوة، الذين يخرجون في سبيل الله، ويسافرون بالأسابيع والشهور، الي باكستان وافغانستان والشيشان، (وكأن السودانستان استقام امره)، زاره شيخنا الداعية، وطلب منه الخروج في سبيل الله معهم، فأعتذر العم مختار بموضوعية شديدة، موضحاً ظروفه العملية التي لا تسمح له بالغياب، الزرع والبهائم، لمن يتركهم ويسافر، فقال له صاحبنا الداعية (اتركهم لله وسافر) فقال له مختار (إنْ أمّا بوم خالصا) وهي جملة تقريرية تفيد بعدم موضوعية الطلب . رحم الله العم مختار واجزل له العطاء.

اما صاحبنا الثالث، فمن أكثر الناس إستهبالاً علي سطح الأرض ، يذكرك بالممثل المصري أحمد بدير، ويومك سعيد اذا لاقيته، يبدأ معك الحديث متفضلاً عليك برتبة ملازم ثاني، وبعد دقيقتين من الكلام المتواصل، والذي لا تفهم منه شيئا، يعطي لنفسه الحق في ترقيتك الي ملازم، ثم يخاطبك قائلا، شفت يا سيادة الرائد، وقبل ان تستمتع بهذه الترقيات السريعة، يقنعك بانك عقيد، ثم يواصل حديثه مذكرا اياك بذلك اليوم الذي اصبحت فيه عميدا، وكيف انك من كرمك الحاتمي ذبحت توراً أكله الناس، ودون إكتراث لدهشتك يواصل حديثه المتسارع قائلاً: تعرف يا سعادة اللواء، وهكذا في خمس دقائق تكون أنت قد دخلت الكلية الحربية وتخرجت منها ووصلت رتبة لواء، ويكون صاحبنا السعيد قد تحصل منك علي (حركة) وذهب لإستهبال ضحية أخري. أما إذا عملت نائم، ولم يجد منك شيئاً ، فأنت في رأي صاحبنا السعيد، (أمة متقلة أرض الله ساكت). ويسافر (صاحب السعادة) بطرق عجيبة، فيقول لك أنا ماشي بورتسودان لكن يمكن أخش الكويت بهناك، أو يقول أنا ماشي كسلا لكن يمكن أخش ليبيا بهناك، فبالنسبة له كل الطرق تؤدي إلي الإستهبال.

أما أشهر الكوميديين على نطاق النوبة فهو (سيد تلول) ، هو حكيم النوبة وجحاهم ، من أبناء جزيرة صاى ، من مواليد بداية العشرينات من القرن الماضى ، سافر إلى مصر فى 1937 م ، عمل هناك لمدة 10 سنوات ، بعدها عاد إلى صاى وتزوج ، ثم عاد إلى مصر وعمل بالسكة حديد ، ثم إلى صاى ، ثم (شرد) إلى الخرطوم ، عمل بمطار الخرطوم ، وإنتقل منه إلى العمل بمطار حلفا حتى عام 1964 م ، حين غرقت مدينة حلفا عاد إلى صاى ، وكما ينسب معظم الفكاهات فى العربية إلى جحا فكذلك ينسب معظمها إلى سيد تلول فى النوبية ، وقد لاقيته شخصياً فى عبرى عندما كنا ندرس بها ، والحديث عنه وعن نكاته يحتاج إلى مجلد كامل ، والنكات تفقد (روحها) عندما تترجم ، وقد حاولت ترجمة بعض نكاته ، ولكننى صرفت النظر عن كتابتها هنا ، لأن الترجمة لا تعبر عن روح النكتة.

- 14 -

فيا برق ليس الكرخ داري وإنّما رماني إليه الدهرُ منذ ليال.

فهل فيك من ماء المعرّةِ قطرة، تغيثُ بها ولهانَ ليس بسال.

تَمثلتُ قول الحكيم الفيلسوف وأنا وإبني علي، أو إبني علي وأنا، نعافر الـSnow لتخليص عربتي من الثلج الذي إرتفع لعدة سنتيمترات عن الأرض. قال Snow shovel قال، مالي أنا وما للإسنو، مالي أنا وما للشفل، مالي وما لهذا الصقيع أصلاً، مالي وما لهذه الشقاوة، كنت هناك مرتاحاً، هناك في بدين، جزيرة في شمال السودان، هناك ولدتُ ونشأتُ، طفولتي وصباي وبداية شبابي، هناك في ذلك الطقطس الدافئ الحميم، جزيرة في منتصف النيل، يحيط بها الماء من كل جانب، Swimming pool طبيعي يا إبني، تنزل وتسبح مع الأسماك والتماسيح والسلاحف، تشرب من نفس الماء ولا يصيبك ضرر، لا برد هناك ولا ثلج ولا جليد، جزيرة (مهمشة) إذا قسناها بالمعطيات العصرية، ولكنها جزيرة منعشة جداً في (العصرية). تخرج من البيت فيتلقاك الهواء رقيقاً نظيفاً منعشاً، هواء نقي، مشبع برائحة الجروف، لم يتلوث بسموم العربات ولا الموترات، ولا المصانع ولا الـGreen House ، فلا قرين هاوس هناك ولا وايت هاوس، هناك طين هاوس، بيت من الطين، مسقوف (بالأمبو) ومروق السيسبان وجريد النخل، دافئ حميم شتاءٍ، بارد لطيف صيفاً، هناك يا إبني تسير الحياة بهدوء، علي فطرتها، دون عجلة، تخرج من البيت فتجد الناس هاشين باشين، ضاحكين مبتسمين ، :

وعم عبدالرحيم ما بيخبر زعل

كل الناس هناك ما تخبر زعل

يزعلوا لشنو، يزعلوا من منو

كل الناس هناك، كل الناس صحاب

كل النـاس أهل .

نعم، كل الناس صحاب، كل الناس أهل، ولكنك لن تعرف عم عبدالرحيم، ولن تعرف الحاج ود عجبنا، ولا حميد ولا الفرجوني ولا مصطفي سيداحمد :

الحاج ود عجبنا في الفريق يا هو الركيزة

هو البشيل حمل الرضاعة، وعندو كلمة علي الجماعة

في الطريق باقيلنا .. تاية، وكل طيب ليه غاية

للضعيف تلقاه ساند، ويقهر الكعب المعاند

وللضيوف ديوانو فاتح، ديل بهلو، وديل يقومو

عمنا الحاج ودعجبنا، من سنين ايام جهلتو

يسأل المولي السلامة، وسترة الحال والكرامة

نعم يا بُنيّ، عندنا عم عبدالرحيم، وعندنا الحاج ود عجبنا، في كل بيت، في كل حي وكل حلة، كبار المقام، محترمون مبجلون، اصحاب كلمة علي الصغير والكبير، بسطاء انقياء، عفيفو القلب واليد واللسان، ما كانوا ليهانوا، ولكن جاءهم زمان تعيس اهينوا فيه، و لن يرحم اللهُ ولا التاريخُ من اهانوهم، وتلك قضية اخري، وما أكثر القضايا الأخري. هناك يا إبني يعيش الناس في امان، يقضون أغراضهم بتأني وهدوء، والوقت هناك غير محسوب، واليوم طويل طويل، وليست كأيام هذا البلد المستعجلة، Shovel .يا ابنيShovel ، فأنت مستمتع بهذا البرد وهذا الإسنو، أما أنا فقد تجمدت أطرافي، واصطكت أضرامي، وتوقف الدم في عروقي، وليست لي في هذه متعة، أنا لا أنتمي الي هنا، لا أنتمي إلي هذا الطقس، إنما أنتمي الي هناك ، الي بدين، حيث لم تكن فيها عربات، فلم نكن نحتاج إليها، ماذا نفعل بها؟، المشاوير تُقضي علي الأرجل، مشياً علي الأقدام، او علي ظهور الدواب، هناك الحمار يعتبر The man's best friendوليست الكلاب كما هنا، لم يكن في الجزيرة بوليس، فالناس لا يخالفون القانون أصلاً ، لم يكن في الجزيرة مستشفي ولا Family Doctor ، ولا اسعاف ولا مطافئ ولا 911 ، لم نكن نعرف الحكومة، ولا الحكومة تعرفنا، تركتنا الحكومة في حالنا، وتركناها في حالها، رغم كل هذا التهميش، كانت الحياة سهلة ويسيرة، لا عناء فيها ولا شقاء، فيا برق ليس الكرخ داري وإنما ..... ، أقرأ أبيات المعري علي إبني، ذو الثلاثة عشر عاماً (حين كتبت هذه الفقرة وقد أكمل عامه العشرين الآن)، وهو يقول لي ?Dad, what are you talking about . فاقول له never mind, never mind، فأنت لن تفهم، وأنا ماذا فعلت ؟، ماذا صنعت بك ؟، أتيت بك الي هنا ولما تكمل عامك الأول، ويبدو انني سوف أتركك هنا وارحل عن الدنيا، ولا ادري انفعتك ام أصبتك بضرر، هل أذنبت في حقك؟، هل كان يجدر بي ان اربيك هناك؟، ام ان هذا افضل، لست ادري، ولكني ادري انني سعيت للأفضل، للحياة الكريمة، من هناك، من بدين سافرت الي الخرطوم، بحثا عن حياة أخري، تخيلناها افضل، ولمّا (غرّبْ حامد وشرّقْ بلّة)، تركنا الوطن بأكمله وإغتربنا، وطاب لنا المقام في الخليج سنوات طوال، صعدت بنا الحياة ونزلت، واستوت وتعرجت، أفرحت وأحزنت، ثم رمتنا الأقدار في ضواحي الإسكيمو، وها انا الآن، اقف معك هنا، ألبس الكوت والبوت والهات والقلفز والإسكارف، وأعافر معك الإسنو، هناك يا ابني، هناك في بلدي يا حبوب، نلبس الجلابية والتوب، ولكن أين هناك من هنا ، وأنت، ماذا تعرف عني، ماذا تعرف عن ماضيّ، ماذا تعرف عن ابي وامي، ماذا تعرف عن أهلي وعشيرتي، ماذا تعرف عن وطني، أنت لن تعرف شيئاً عن حلفا، ولا عن نمولي، ولا عن الجنينة، ولا عن الكرمك، وتلك أركان الوطن الأربعة، أنت لن تعرف وردي، ولا مسونكيل، ولا فقن ونجي، ولا صواردن شو، وكما أنك لن تعرف وردي فإنك لن تعرف أبوآمنة، أبوآمنة حامد، ولن تعرف أنهم غنوا، وما أحلي ما غنوا، حينما إلتقوا في حلفا بأم الضفائر، النافرة الأليفة، وفي كريمي شايقية بشلوخا، وفي شندي بنات جعل، نايرات خدودن زي فجرا اطل، وفي سنكات سمرا أبية، حلوة هدندوية، وفي قلب الجزيرة الحلوة النضيرة، وفي الغرب اغيد، تراقص المشاعر مع دقة النقارة، وفي الجنوب ساحرات يمشين في السهل والغابة، أنت لن تعرف عبدالقادر سالم، ولن تغني معه لكردفان، انت لن تعرف محجوب شريف، ولن تجلس معه في حضرة الوطن حيث يطيب الجلوس، وأنت لن تعرف ود المكي، محمد ابراهيم المكي، ولن

تشعل معه الحقول قمحاً ووعداً وتمني، أنت لن تعرف ودالأمين، ولن تشدو معه لأكتوبر، ولن تتعلم معه من الأيام، أنت لن تعرف عثمان حسين، ولن تعشق معه الجمال، أنت لن تستمتع بذلك اللحن الشجي الذي ينبعث من زمان الناس، وضنين الوعد، وتفشي الخبر، لن يطربك صوت الطنبور في (بت البلد عرفت تحب) او(حتي الطيف رحل خلاّني)، لن يتملك ذلك الصوت الأسطورة، صوت أبو داؤود، في زهرة الروض الظليل او انّة المجروح او هات لينا صباح، لن تعرف ابراهيم عوض، ولن (تجنن) الناس معه طرباً، أنت لن تعرف الصوفي المعذب، ولن تستمع له وهو يحدثك عن النيل، سليل الفراديس، لن تعرف جماع، إدريس جماع، لن تمشي معه في مواكب الليل، حاسر الرأس، تستشف معه من كل شئ جمالا، أنت لن تعرف عنّا شيئاً، لن تعرف الفركة والقرمصيص، لن تعرف قطع الرحط ، لن تعرف الخُمرة والدلكة، والطلح والدخان، انت لن تعرف المجذوب، محمد المهدي المجذوب، ولن تقرأ غمائم الطلح، ولكنيّ اروي لك منه:

وحفرة بدخان ـ الطلح ـ فاغمة ::: تندي الرّوادِفِ تلويناً وتعطيرا

مدت بناناً به الحِناءُ يانعة ::: ترد ثوباً الي النهدين مَحْسورا

قد لفها العطرُ لف الغيمِ منتشراً:: بدر الدجي وروي عن نورها نورا

يزيد صُفرتها لمعاً وجدتها :::صقلاً وناهدها المشدودَ تدويرا

أرخي الدخان لها سِتراً فبعدها ::: كدرةٍ في ضمير البحر مَسْجورا

أنت لن ترافق عمنا صالح جبريل الي كسلا، ولن تزور معه حديقة العشاق، بين صب في حبه متلاشٍ وحبيب مستغرق في عناق، أنت لن تعرف الهادي آدم، ولن تكتب معه الشعر علي ضوء ثقاب.

انت لن تعرف كوش ولا كرمة ولا مروي ، لا نوباتيا ولا المقرة ولا علوة، لن تعرف بعانخي وتهارقا، لن تعرف السلطنة الزرقاء ولا سلطنة دارفور، لن تعرف تقلي ولا المسبعات، لن تعرف معركة القلابات ولا كرري ولا ام دبيكرات، لن تعرف عَلِي عبداللطيف، لن تعرف حريق المك في قلب الدخيل، لن تعرف الجسارة، حينما أستشهد في مدفعه عبدالفضيل، لن تعرف مهيرة، ملهمة الفرسان جيلاً بعد جيل، لن تعرف الإمام المهدي، لن تعرف القرشي ولا التاية . انت لن تعرف عبدالخالق محجوب، كل هؤلاء رايات فوق هامة الوطن، فوق رؤوس الجبال، وجريد النخل، كلهم في صوت العاصفة، وصرير الريح، كلهم في رمل الصحراء، وثمار الغابة، كلهم في كل عين وفؤاد، وأنت لن تعرف العباسي، محمد سعيد العباسي، ذاك شاعر يا بني مجيد، وما أكثر الشعراء المجيدين في بلادي، لا احصيهم، ولكني اقتطف لك من عهد جيرون :-

ارقتُ من طول هم باتَ يعروني ::: يثير من لاعج الذكري ويشجوني

منيت نفسي آمالاً يماطلني ::: بها زماني من حين الي حين

ألقي بصبري جسام الحادثات ولي ::: عزم أصد به ما قد يلاقيني

ولست أرضي من الدنيا وإن عظمت::: الا الذي بجميل الذكر يرضيني

وقد سلا القلب عن سلمي وجارتها::: وربما كنت ادعوه فيعصيني

يا بنت عشرين والأيام مقبلة ::: ماذا تريدين من موعود خمسين

قد كان لي قبل هذا اليوم فيك هوي::: اطيعه وحديث ذو افانين

ازمان امرح في برد الشباب علي ::: مسارح اللهو بين الخرد العين

والعود أخضر والأيام مشرقة ::: وحالة الأنس تغري بي وتغريني

في ذمة الله محبوب كفلت به ::: كالريم جيداً وكالخيروز في اللين

وأنت لن تعرف الأزهري ولا المحجوب، لن تعرف قادة الإستقلال في وطني ولا في القارة السمراء، لن تعرف جمال عبدالناصر، ولانكروما ولا نايريري ولا سيكتوري، ولا سنقور ولا لوممبا، انت لن تعرف مانديلا، نلسون مانديلا، ذلك الرجل القارة، جدير بك ان تعرفه، وسوف احدثك عنه، كما انني سوف احدثك عن معاوية محمد نور وجمال محمد أحمد والأستاذ محمود محمد طه وغيرهم كثير.

فيا برق ليس الكرخ ! فيقول إبنى ....Dad, what are you saying؟ ، فاقول له Never mind فانت لا تفهم ما أقول، فأنت لن تعرف أبوالعلاء، حكيم المعرة، رهين المحبسين، فيلسوف الشعراء، وشاعر الفلاسفة، أنت لن تعرفه، ولكنه قال:.

إذا لم تكن دنياكَ دارَ إقامة::::فما لك تبنيها بناءَ مُقيم .

وجدت بني الدنيا لدي كل موطنٍ:::: يعدون فيها شقوة كنعيم .

يزيدك فقراً كلما ازددتَ ثروة::: فتلقي غنياً في ثياب عديم .

فسادٌ وكونٌ حادثان كلاهما::: شهيدٌ بأن الخلقَ صنعُ حكيم .

هكذا قال حكيم المعرة في اللزوميات، ولكن ما لي أحكي لك؟، أنت لن تعرف كعب ابن زهير ولا إمرؤالقيس، انت لن تعرف البحتري ولا ابوتمام، لن تعرف التوحيدي ولا ابن المقفع، لن تعرف جعد بن درهم ولا معبد الجهني، لن تعرف النظام، ابراهيم النظام، ولا الجاحظ ، ولا ابن سيناء ولا ابن رشد، لن تعرف ابونواس ولا بشار بن برد ولا ابن الرومي، لن تعرف السيوطي ولن تقرأ تاريخ الخلفاء لتعرف الحقائق، لا جرير ولا الفرزدق، لن تعرف امل دنقل ولا محمود درويش، لا طه حسين ولا العقاد ، لا نجيب محفوظ ولا يوسف إدريس، لا الإمام محمد عبده ولا الشيخ الشعراوي، أنت من ستعرف؟، الي اي الحضارت تنتمي؟، الي اي مستقبل؟، أنت لن تعرف حتي المتنبي، أستاذ الشعراء، ولكنه قال :.

مالَنا كُلُّنا جَوٍ يا رَسولُ ::: أنا أَهوى وَقَلبُكَ المَتبولُ

كُلَّما عادَ مَن بَعَثتُ إِلَيها ::: غارَ مِنّي وَخانَ فيما يَقولُ

زَوِّدينا مِن حُسنِ وَجهِكِ مادام ::: فَحُسنُ الوُجوهِ حالٌ تَحولُ

وَصِلينا نَصِلكِ في هَذِهِ الدُنيا ::: فَإِنَّ المُقامَ فيها قَليلُ

إن تَريني أَدِمتُ بَعدَ بَياضٍ ::: فَحَميدٌ مِنَ القَناةِ الذُبولُ

صَحِبَتني عَلى الفَلاةِ فَتاةٌ ::: عادَةُ اللَونِ عِندَها التَبديلُ

سَتَرَتكِ الحِجالُ عَنها وَلَكِن ::: بِكِ مِنها مِنَ اللَمى تَقبيلُ

مِثلُها أَنتِ لَوَّحَتني وَأَسقَمـ ::: ـتِ وَزادَت أَبهاكُما العُطبولُ

نَحنُ أَدرى وَقَد سَأَلنا بِنَجدٍ ::: أَقَصيرٌ طَريقُنا أَم يَطولُ

وَكَثيرٌ مِنَ السُؤالِ اِشتِياقٌ ::: وَكَثيرٌ مِن رَدِّهِ تَعليلُ

لا أَقَمنا عَلى مَكانٍ وَإِن طابَ ::: وَلا يُمكِنُ المَكانَ الرَحيلُ

كُلَّما رَحَّبَت بِنا الرَوضُ قُلنا ::: حَلَبٌ قَصدُنا وَأَنتِ السَبيلُ

فيكِ مَرعى جِيادِنا وَالمَطايا ::: وَإِلَيها وَجيفُنا وَالذَميلُ

ذلك هو المتنبي، مالئُ الدنيا وشاغل الناس، لم يكن الدهر بالنسبة له الا راوية من رواة قصائده، اذا قال شعرا أصبح الدهر منشدا، ذلك الذي نظر الأعمى الي أدبه، وأسمع كلماته من به صممُ، ذلك الذي عرفته الخيل والليل والبيداء، والسيف والرمح والقرطاس والقلم، ذلك هو المتنبي، قال ما قال ونام قرير العين هانيا، وسهر الخلق جراها واختصموا. أنت لن تعرف عبدالرحمن منيف ولا ابراهيم الكوني، لن تعرف حسين مروة ولا نصر حامد أبوزيد، لن تعرف فرانسيس دينق ولن تقرأ طائر الشؤم، لن تعرف محمد ابوالقاسم حاج حمد ولن تفهم جدلية التركيب، والمأزق التاريخي في السودان، لن تعرف الشهيد جون قرنق، نجم سيامي آخر، رفع لواء المساواة في الوطن الواحد، ولكنه مات، ليلاً فوق الجبال، من يدري كيف مات، لن تعرف أبيل ألير، حكيم عملاق، لو تركوا له ولأمثاله الحكم في السودان لكنا الآن في وضع آخر. أنت لن تعرف عبدالله الطيب ولا على الملك . لا شنوا اشيبي ولا وول سوينكا ولا سنغور ليوبولد، لن تعرف منابع النيل ولا مصبه، لن تعرف الهلال ولا المريخ، لن تعرف الزين ولا ضو البيت ولا الطاهر ود الروامي ولا سعيد عشا البايتات، لن تعرف حسنة بت محمود ولا ودالريس ولا بت مجذوب. واذا لم تقل لك بت مجذوب كل شئ، فلن يقل لك احد شيئا، ربما اخذك القطار يوماً الي محطة فكتوريا، وعالم جين موريس وايزابلا سيمور وأن همند، ربما زرت قاعة البرت، ومسرح البرنس اوف ويلز.ولكنك لن تذهب الي هناك برفقة مصطفي سعيد، لأنك لن تقرأ موسم الهجرة الي الشمال، رواية العصر ، تحفة نادرة، ولوحة بديعة، معين لا ينضب، عمل عبقري، عمل كتبه ذلك الساحر، وحقن به عروق الثقافة والأدب، واجراه في شرايين الإبداع. إستودعه رفوف المكتبات فلم تقعد، فطبُع ثم طبع، وتُرجم وترجم، إنه عمل خالد، والخوالد قليل.

انت لن تعرف الدوبيت ولا المسدار، لن تعرف الحردلو، ابوسن، ولكنه قال:-

الشَمْ خَوخَتْ بردن ليالي الحَرة

والبَرّاق برقْ من مِنا جاب القِرة

شوف عيني الصقيرْ بي جناحو كَفتْ الفِرة

تلقاها أم خدود الليلة مرقت بِرة

******

البارحْ أنا وقَصبَةْ مَدالق ألسيل

في ونَسَة وضِحكْ لمَن قسمنا أللبل

وكتين النعامْ إتشَقلَبَبّوا الخيل

لا بِخلَتْ ولا جادتْ عليّ بلْحيل.

وانت لن تعرف المديح، ولن تعرف البرعي، ولا حاج الماحي، ذلك المتبتل في محراب الحب النبوي، ذاب وجداً حين إهتدي، انت لن تعرفه ولكنه قال:-

عيب شبابي الْ سرَحْ ::: والله لأبْ شوقاً جرَحْ

قام العبيدْ من نومه صحْ ::: لقي جنبه لبناً في قدحْ

سمي وشربْ زين إتنتَحْ ::: حمد الإله حالُه انصلحْ

جدْ في السؤال لربّه لحْ ::: قال يا كريم بابه إنفتحْ

اعطوه تُفاحات بلخْ ::: حين ذاقها قال دماغُه تخْ

راد الجليل قلبُه إنشرحْ ::: طابْ عقلُه مسرور بالفرحْ

جابْ لي شفيع الناسْ مَدحْ::: شَتمُه الهبيس دقّ ونَبحْ

السمعُه في جوفُه إنجرحْ ::: من شوف حبيبُه يسوي أحْ.

ذكرتُ لك وردي ، محمد عثمان وردي ، ولكني لم أحدثك عنه ، أنه يا بني من أهرامات الوطن ، جاء إلي الخرطوم



مهاجراً من الشمال .. مع عصافير الخريف في موسم الشوق الحلو ...

من ضواحي النوبة جاء .. وعليه رحاله ... جاء يحمل علي كتفيه سبعة آلاف عام من الحضارة ... جاء وفي يده معول صغير .. ريشة مصقولة علي أنغام الطنبور بفن نوبي عتيق ... جاء شبلاً من ذاك الأسد .. قيثارة الوطن .. خليل عزة .. جاء ليغني للوطن .. كما غني الخليل.. مثلما غنت مهيرة.

غزا حاضرة بلاده بعبقرية فذة، وذكاء مدوزن ، وإمكانيات منغمة ، وصوت فخيم ، وطاقة متفجرة ، وموهبة أكيدة .. تبناه الوادي نهراً ثالثاً منساباً من عرس الشمال جنوبياً هواه .... جاء ولسان حاله يقول . يا صبية ، الريح ورايا ، خلي من حضنك ضرايا .. فاحتضنته العاصمة الصبية مع ريحة جروف النيل .. مع الموجة الصباحية .. عند ملتقي النيلين .. علي ضفاف المقرن الجميل.

جاء ووجد في ساحة الفن جيل عطاء من العمالقة .. الذين موسقوا ليالي العاصمة ونهاراتها بموسيقي رائعة وجادة ومعبرة .. كان أثير العاصمة يتماوج لحناً مع الكاشف وعثمان حسين وأحمد المصطفي ... وكانت المجالس تستخفها الطرب مع حسن عطية وإبراهيم عوض .. فإسترق فناننا السمع .. وسرعان ما التقط السر .. وخطف الأضواء .. وسار نحو القمة في شموخ وكبرياء .. وتحت شكوك أهل البندر في هذا الرطاني القادم من أقاليم الشمال .. لحّن وغنيّ .. فأدهشهم بالمتعة ومتعهم بالدهشة .. بيد سحرية وضع رياضاً وزهوراً على خديّ الأغنية السودانية .. فأصبحت ما أحلاها .. طروبة وحلوة بين يديْ فنه البديع .. ومنذ أن غني أول غرام دخل الجمهور معه في غرام .. كان لهم منه أجمل هدية .. وكان له منهم أنبل مودة ..ثم انفجر النبع وتدفق الشلال.

تمحرب في صومعة إتخذها سكناً في جنوب العاصمة .. هناك إختلي بالأنغام.. والعود في يده.. يهمس للأوتار.. فتخرج الألحان كفراشات مجنحة .. تطير عبر السما الممدود .. سما الوطن اللي مالو حدود .. حمامة جناحا لا خائف ولا مفقود .. هناك حرك ريشته السحرية الصغيرة .. فرسم لوحات من الفن .. تخرج منها ألحان تسمعها وكأنك تراها .. ألحان تذوب فيها وتذوب فيك .. كأنها منك إليك .. وكأنها فيك من الأزل .. ألحان ملأت سماء الوطن كسحابة صيف.. لم تجافي بلاد وتسقي بلاد .. بل كانت كالطرفة في عز الخريف بكاي .. هطلت علي أرض المليون ميل .. فسقت كل البلاد .. حارة حارة .. وروت كل العذاري والحياري .

بات يشكو حرقة الوجد علي لسان كل عاشق أخضر القلب .. في ريعان الشباب .. يعيش في دنيا الصبابة .. ويفتح الباب للسعادة .. أرسل المراسيل نيابة عن كل ملهوف فقد صبره وشرد نومه ونحل جسمه وشحب لونه.

سار في طرقات البلد الحبوب .. هنا وهناك .. وهو يخلّد الألحان لزمن ماشي وزمن جاي وزمن لسع ... نصب خيامه تحت شمس الوطن .. ونادى على الناس .. وعزم كل (زول) ليرتاح تحت ظلال فنه الوريف.

جابه مستحيلات الألحان وطوعها فغدت المستحيلة جميلة . هوّم الليل وساهر وحده كشمعة في مهب الريح ..

تاه من مرفأ قصيدة الي مرفأ قصيدة أخرى ليعود الينا بفرح كفرح البعيد العاد ..وتاه مرة أخري في بحور الشوق وأمواج الحنان .. وجاء الي بر الأمان في رفقة أمير الحسن .. رب المحاسن والبراءة والوداعة.

سافر في العتامير ليلاً .. وشق التيه .. وشدّ سرجه فوق الريح و(صنقر) فوق سحاب الري .. وعد نجوم الليل التي جوهرت سطح النيل من غير نظام .. ثم مدّ يده للرهاب .. وأمسك به .. وأساله حوضاً من النغم الزلال .. فارتادته الريلة .. ومسونكيل .. وذات الشامة .. وملاك.

في صومعته تلك كان يحدوه الأمل .. فيغني ويتودد ويهدي لحنه الغالي لأعز الناس .. والحنينة السكرة .. وشبه القمرا .. وكُجن ونجِقو .. هناك صارع غضبة الهبباي فارداها لحناً .. وأخرج منها مقطعين دوباي نزلوا علي الدنيا أشواق وحنية. من ليله ونهاره نسج أغان بديعة .. أرسلها مع الطير المهاجر تحت المطر وسط الرياح إلي كل حوش مرشوش وديوان مفروش. سنين وأيام قضي عمره وهو يفتش تراب البلد ..في الغابات وفي الوديان .. في التاريخ وفي اللوحات وفي أحزان عيون الناس .. وفي الضل الوقف ما زاد .

ذوّب شبابه في اللون الأسمر وأسمر اللونا وفقن ونجي وسليم الذوق ونورالعين وأمير الحسن. ومن غير ميعاد إلتقي في حلفا بام الضفائر النافرة الأليفة ..وفي كريمي شايقة بشلوخا ..وفي شندي بنات جعل نايرات خدودن زي فجراً أطل .. وفي سنكات سمرا أبية ، حلوة هدندوية .. وفي قلب الجزيرة السمحة النضيرة .. وفي الغرب أغيد تراقص المشاعر مع دقة النقارة .. وفي الجنوب ساحرات سارحات في السهل والغابة. قضي أحلي فصول عمره وهو يرطن بإسم الوطن ويغني له .. رفع صوته هيبة وجبرة .. وكان نشيده عالي النبرة.

جلس في حضرة الوطن حيث يطيب الجلوس .. وأخذ عنه عميق الدروس .. وتعلم منه المشي بمهابة في الضحي والظلام. ثم نادي وتنادي وغني في عرس الفداء .. لأرض البطولات .. وميراث الحضارات . كان هناك .. حينما ابتسم النهر القديم لبعانخي ولتهراقا وللمهدي .. لعلي عبداللطيف .. ولعبدالقادر الحبوبة .. وللقرشي .

صدح وصدح معه شعبٌ يتسامي .. يفج الدنيا ياما .. ويطلع من زحاما .. زي بدر التمام . منذ فجر الإستقلال رفع راية الوطن .. وغني له غناءً عاطراً تغدو به الريح فتختال الهوينا .. غني لأكتوبر الأخضر .. فغنت الأرض معه .. وأشتعلت الحقول قمحاً ووعداً وتمني.

عزف أغنياته للكمال فملأ الكأس وفاض بالجمال . سجّل حضوره بقلب الإبداع .. واشرأبّ الي سماء الشعر لينتقي درر القصائد .. متخيراً كل لحن عبقري سهل ممتنع.

وفي زمن الغربة والإرتحال ، وقف في شرفات المدن رافعاً راية منسوجة من شموخ النساء وكبرياء الرجال . كان قد نذر عمره قرباناً لفنه .. وأوفي بالنذر .. وبني جبلاً شامخاً من الإبداع وجلس عليه كنسور الجبال.

أنه محمد عثمان وردي ، أقول هذا مع التحية لكل شاعر إقتبست من شعره قبساً أضاء هذه الصيغة المتواضعة في حضرة فنه الرفيع. (الصورة في أعلى الصفحات من سودانيز أون لاين وهي من تصميم الأخ مدحت عثمان من أبناء فريق وهو شاب نوبي هميم ونشط).

وقبل هذا وذاك، فأنت لن تعرف الخليل، خليل فرح، قيثارة الوطن، ذلك الشرف الباذخ، والصباح الفالق، والنجم الالق، خليل، قامة الوطن السامقة، عندما يُذكر الوطن يُذكر الخليل، وعندما يُذكر الخليل، يُذكر الوطن، انت لن تذهب معه الي الضواحي، وطرف المدائن، لن تنظر معه شفق الصباح، ولكنني أحدثك عنه، ففي شخصه يتمثل حب الوطن والكفاح ضد المستعمر، في شخصه يتمثل الأدب، والشعر، واللحن، والغناء السوداني:

ولد خليل فرح بقرية دبروسة مركز حلفا في عام 1894م نال جزءاً من تعليمه في خلوة الشيخ أحمد هاشم في جزيرة صاي، فموطن أسرته في صابساب قرية (هيباب)، كما إختلف الي الكتاب في منطقة دنقلا، كان والده الشيخ فرح بدري يعمل بالتجارة، وكان كثير التنقل بين حلفا ودنقلا وأمدرمان . وكان خليل كثيراً ما يصاحب والده في هذه الرحلات، وكان جده بدري كاشف قد إستقر في جزيرة مفاصر، هناك درس خليل (الكُتّاب)، وكانت هذه الرحلات تتم في الغالب عن طريق المراكب في النيل، أو قوافل الجمال ، في صحبة فريق من العرب البدو ، وكانت هذه القوافل

تسافر فجراً وعصراً وتستريح نهاراً. وكان أولئك العرب البدو يتغنون بـ (الحداء) الذي يحثون به الجمال على السير، ويتطارحون الشعر والإنشاد . في المدح والهجاء والتغزل . ومن هنا نستطيع أن نفهم رمزية أو قل (وجودية) مفردات (بدوية) كثيرة تتردد في شعر الخليل. مثل الليل والنجوم والكواكب والرّكاب والرّحال . (راجع الفصل الخامس من كتاب الدكتور محمد جلال هاشم {جزيرة صاي .. قصّةُ الحضارة: صراعُ الثّقافات وقضايا التّنمية والتّهميش في بلاد النّوبة} المنشور في جريدة حريات . النسخة الإلكترونية . بتاريخ 4 يناير 2011 . وقد إرتبط شعر الخليل فيما بعد بالنيل والطبيعة. توفي والده في 1910 وأمه في 1927. تزوج من السيدة سلامة أغا إبراهيم في جزيرة صاي في 1923 . له من الأبناء إثنان. فرح وعائشة.

هاجر خليل فرح إلى الخرطوم. وسكن في أمدرمان. وإلتحق بكلية غردون التذكارية قسم البرادة الميكانيكية ونال فيها إجازة الهندسة المكانيكية. ثم عمل بمصلحة البوستة والتلغراف. شارك الخليل في العمل الوطني آنذاك ، صار عضواً. بجمعية الإتحاد السوداني التي تكونت في1921. وكان خليل داعية للتحرر من الإنجليز والإتحاد مع مصر. شارك بكلماته القوية في مقاومة المستعمر حتي قامت ثورة (24). له شعر قومي وطني رصين. الهب به الجماهير التي كانت تقاوم المستمر أنذاك.

عندما هاجر الخليل الي الخرطوم. كان (أعجمياً) نوبياً لا يجيد العربية. وكان عليه أن يواجه فصحاء المدينة. وأن يجاريهم في اللغة التي يجيدونها. وواضح أنه إستعد لذلك. فأطلع علي الشعر العربي كله. ذلك واضح فيما كتبه من الشعر بعد ذلك. ما لبث خليل أن دخل في الوسط الفني. ونازل شعراء الساحة. وأنتزع منهم قصب السبق. كانت ساحة الشعر في ذلك الوقت يسيطر عليها اساطين الشعر الثلاثة. لهم فيها صولات وجولات. ولا تحرر شهادة ميلاد شاعر جديد ما لم يزكّه اولئك الثلاثة وهم: يوسف حسب الله الذي كان يلقب بـ (سلطان العاشقين). ومحمد علي عثمان بدري. وابوعثمان جقود. وجاء الثلاثة لإمتحان خليل فرح. فاجتاز الإمتحان بجدارة. ومحمدعلي عثمان بدري هو إبن عم خليل فرح بدري. كان قد سبقه بوقت طويل الي أمدرمان. ومحمد علي من شعراء الحقيبة الكبار. وكان دائماً ما يكون حكَماً بين الشعراء عند المجاراة. فقد كان الي جانب شاعريته أديباً مثقفاً ملماً بقواعد اللغة وأصولها. من قصائده المشهورة :

مرضان باكي فاقد :: فبكي علاج طبيبي

قالو ترك سكونك :: يا دار وين حبيبي

والتي لحّنها عمر البنا وغناها كرومة والأمين برهان وأولاد المأمون وبادي محمد الطيب وبعده كثير جداً من المغنين.

بعد إجازة شاعريته إنطلق الخليل فكتب بسليقة البادية. وقريحة الدوبيت والمسدار. كأنه من أرض البطانة. أو مرابع الشكرية. ثم كتب بالفصحي. فجاري فطاحلة الشعر. ثم كتب أغنياته التي جاءت بما لم تألفه عين قارئ. وجاءت بألحان لم تألفها أذن مستمع. ذاع صيته سريعاً. وتوسعت علاقاته بالشعراء والأدباء والملحنين. وتمكن من ارتياد المنتديات . كمنتدى أبوروف ومنتدى الهاشماب ومنتدى الموردة . كان خليل وصحبه يرتادون شواطئ النيل في

بري وغابة الخرطوم والمقرن، ومن الأماكن المشهورة التي كانوا يرتادونها (دار فوز). وما دار فوز إلاّ صالون أدبي ، من تلك الصالونات التي كانت تنتشر في امدرمان في ذلك الوقت ، في شعره كثير من وصف الجلسات وما دار فيها من صفة الخمر والساقي والندمان:

دنّك دمهُ سايل أظنّه مات مَفلوق :: عبّق طيبهُ فاح عسّف ملانا خَلوق

دِر يا ساقي دون نُدماك علَيّ مطبوق :: وصَهْلِل يا نديم وأسمِعني مما يَروق

زيم يا شادي زيم شَنّفْ مسامع السوق :: وأنشُد في معاني البابلية وسُوق

دع ما قالَ مالك فيها وإبن دُسوق :: كُروم بابل قبيل ساقيتنا ليها تسوق

كاسك من سُلافة خَدك المعشوق :: ونغمك من لَدانة قدك الممشوق

صافية ورايقة طاب مزجِك صبوح وغَبوق:: ولهً غبيت أنا ونظرة نديم وعشوق

كان الخليل يخرج العمل الغنائي كاملاً، كلمات ولحن وأداء، وتقريباً كل أغانيه كانت مسجلة بصوته في الأسطوانات، كان الخليل، ثالث ثلاثة قاموا بتهذيب الأغاني، بل قاموا بثورة تجديدية، (إبراهيم العبادي، صلاح عبدالسيد{أبوصلاح} وخليل فرح)، ومن الأغنيات الكبيرة التي سجلها في مصر أغنيته الشهيرة (عزة في هواك) وربما



كان الخليل أول من لحن وغني من الشعر الجاهلي، فقد سجل في مصر أيضاً قصيدة عمر بن أبي ربيعة (أعبدة ما ينسي مودتِك القلبُ)، والحقيقة أن خليل من الشعراء المظلومين، فالناس لا يعرفون من شعره غير قصائده الدارجية المغناة، رغم أن له من الشعر الفصيح درر تعتبر من عيون الشعر. ويقال أنه غني باللغة النوبية، ولكن أغانيه النوبية لم تسجل ولم ينقلها من جاءوا بعده، ففقدت وما أعظمه من فقد.

في عام 1929 اصيب بداء عضال، ألزمه سرير المستشفي لمدة طويلة، وأصبح حديث المدينة، فقال فيه:

تلك ستون ليلةً ، هي كالسجنِ أو أشدْ

عِلتي وهي عِلتي ، قصة الناسِ في البلدْ

عاش خليل فرح فترة وجيزة لا تزيد عن التسع عشرة سنة منذ تخرجه عام 1913 م من كلية غردون إلى وفاته فى 30/يونيو 1932 م. ولكنه في هذه الفترة الوجيزة ملأ الساحة بإنتاج رائع كماً وكيفاً.

كُتب الكثير عن الخليل ، ولعل أشهر ما كتب عنه كتاب إبنة عمّه، حاجّة كاشف، [الخليل الشّاعر، 1945]، ثمّ كتب عنه حسن نجيلة [ملامح من المجتمع السّوداني، 1965]، فعبد الهادي الصّديق، فعلي الملكّ محقّقاً لديوانه، ثمّ دكتور محمد جلال هاشم في كتابه سابق الذكر، ثم آخرون.

فلنأخذ مع الخليل جولة قصيرة، نتجول في روضه الزاهي، وحديقته الغناء، تعال وشنف سمعك بهذه النماذج

ابدع الخليل حين مدح الرسول في المولد النبوي الشريف:

صرخة، في الشرقِ من فردٍ أغرّ :: ملأ العالمَ ديناً فاستقرْ

وتمشي العدل في أرجانه :: يطأ الظلمَ ويمحو كلّ شرْ

فانجلتْ عنّا غيومٌ جَمةٌ :: ولبسنا كلنا نسجَ القمرْ

نتساوي نحن والأتباع لا :: فرقَ بين العبد والحر الأغرْ

يا لها من دعوةٍ لم تُثْنِها :: دولةُ السيف وتأليب البشرْ

بل ولم يكترث الداعي لها :: مركب الصعبِ ولا الدرب الوَعِرْ

ثابت المبدإ والجأش رأي السـ :: يرّ مقروناً بنُجحٍ فاستمرْ

كرُمتْ أخلاقه طراً لذا :: كمُلت أفعاله فيما أمر

وفي الوطن قال:

وقفاً عليكَ وإن نأيتُ فؤادي :: سِيّان قربي في الهوي وبعادِي

يا دارَ عاتكتي ومهد صبابتي:: ومثارَ أهوائي واصلَ رشادِي

كم في سمائِكَ للنبوغِ وفي ثري::واديكَ كم للعبقريةِ وادِ

لك في الطبيعة في الخمائلِ روعةٌ :: وعليكَ من سُحُب الجلال هوادِ

فإذا وصفتُك فالبلاغة لا تفي:: وصفي ولا تُدني عظيمَ مُرادِي

إيه فديتُك يا بلادي الَّفي::من حاضر بين القلوبِ وبادِ

فعلي كلا الحالين نحن ودائعٌ::كودائعٍ لك في السحاب غوادِي

ومن عيون شعره الفصيح:

ما بال طرفي عنه النومُ قد أبقا :: ::واسترسل الدمعُ حتى أخجل الورقا

في يوم عرسٍ أرانا كل فاتكةٍ ::::باللحظ بالقد بالخصر الذي نطقا

ونغمة من رخيم الصوت كاد لها:: ::عقُولنا ان تربنا الطيشَ والنزقا

قابلننا بعيون زانها حَورٌ ::::والسحرُ معني علي اطرافها نطقا

واصطفّ جمعهم المأنوس وانفردت:: ::منهن جؤزرة تحكي المها الحدقا

وخلفها سائقٌ يحدو اذا خشيت ::::منه اللحاق تمد الردف والعنقا

ان رامت البعد عنه قام يجذبها ::::من الروادف حقفٌ أو كثيبُ نقا

بقامة مثل غصن البان يعطفها:::::فرعٌ أثيث كزي الليل إذ غسقا

ووجهها القمرُ الوضاح مبسمه ::::قد زانه لعس السفلي وما نطقا

وشلخها في انتصاب لا اعوجاج له ::::كألف فارسَ بالخدين ملتصقا

والجيد لو لا حلي فيه تُكَنفُه :::::رأيتَ فيه حباب الماء مندفقا

كأنما هي بلورٌ تعهده ::::وصائف الروم لم تنظر به رنقا

يزهو بها الوشي ادلالا برونقها ::::وإن تجرّد كان الحسنُ متفقا

تلك الفتاة التي هام الفؤاد بها ::::والطرفُ من عائدات الشوق قد أرقا

تهافتت نحوها أبصارنا عجبا ::::بخَلقِها فأرتنا أحسن الخُلُقا

وأيضاً هذه:

قَرِبا عودي ونايي للطربْ :: وادز كأسك عني يا ربِبْ

واصطبح في الروض وانظر يا تُري ::: أين نُدماي الأُلي صاغوا الأدبْ

اتراهم بين مصروع قضي :: نحبهُ سُكراً ومخمور رسبْ

يا نديمي قل لساقينا إذا :: مال كالغصن علينا وانتصبْ

رطِّبِ الجوّ علينا واسقنا :: كلنا تحت جني الكرم رطبْ

هذه الدنيا علي علاتها :: مقلةٌ إنسانها بنتُ العنبْ

فاسقنيها في الضحي ممزوجةً :: ومع الليل بريقاً من لهبْ

دع عزولي وحسودي جانباً :: لستُ بالعاذل والحاسد صبْ

إن تخف ودي فمازح من تري :: أو تخف عتبي فعاتب من عتبْ

ما علي الهجر بقاءٌ للهوي :: لا ولا في الصمت معنيً للأدبْ

أما شعره العامي فكثير:

شوف صباح الوادي وجماله

شوف خدارو وصيده ورماله

شوف يمينو وعاين شماله

شوف نسيم الليل صاحي ماله

شوف فريع الشاو مين أماله

القمر خجلان من كماله

والصباح لاح بهل الوشاح

****

وقت الليل برد طلع البدر بكواكبو

ولحقت الإبل وادي الأراك برواكبو

جادت وأسبلت عين المحب بسواكبو

واحتل الفؤاد ملك الغرام بمواكبو

****

نجومك يا ليل وللا جيش معبي وغاير

ومشتاق مثلي يا ليل ولآ ساكت غاير

طويل مسيخ ومعتم لاك مريح لا غاير

أضاير في همومك ويمشي جرحك غاير

****

او ان شئت فأسمع هذه :ـ

ياليل صباحك مالو

اصحابك جفوني ومالو

شوف صحبك فقد راس مالو

لا يعرف يمين لا شمالو

يا ليل بدري شاغلك مالو

نايم وصاحي مالك ومالو

لاتقول لي هواه امالو

ايه ضيعني غير إهمالو

وأنظر إليه كيف يفخر بقومه بأحسن مما فعل الحردلو او ودشوراني او ودضحوية:

أبواتك ملوك من أرقو لي سكوت

وكان دم الرجال ليهم شراب ومقوت

غِرِب صايساب جبوشم ذلت أب جبروت

كتلوا الجردة تسعة وفيها سووا الفوت

أنحنا المحس يحسن وليدنا حتوفو

متحمل جبال الواقعة ساندة كتوفو

ناره بتوقد الغيرة وتناجي ضيوفو

فرة سنو في داره تحاكي سيوفو

حدث أن إجتمع ذات مرة اربعة من كبار الشعراء في بيت احدهم. وكان بالبيت صورة معلقة لفتاة. وطلبوا من هؤلاء الشعراء إسترجال أبيات شعر في وصف الصورة. فقالوا:

1 . محمد علي عثمان بدري

أحسن من ظبي في حُسنها وفي نورهْ

أبهي من البدُر وصفاَها كالبنَورهْ

في جيلنا يْتفوق أم سُرتّي وتَنوره

نجلْاء العيون ألفَتْنا في تنَورهْ

2. يوسف حسب الله:

سيمات الجمال في صورتَه محصورهْ

رقّتهْ في النظر وأناملهْ وخُصورهْ

أبهي من الحَواري الفيْ الخِيام مقصورهْ

عجباً شوف جمالهْ في هذه التصويرةْ

3. ابراهيم العبادي:

شوف ريمة الأراكْ كيف جالسة في تصويرهْ

محيَها كالبدْر في نورهْ والتَدويره

انظرْ لعُيونهْ ودَعْجتهْ وتحويرهْ

من كُترْ الدلال تِنْشاف عويرهْ عويرهْ

4. خليل فرح:

يا ريمَ الفلَا الفيْ الدنيا ما في مِثالِكْ

من عدم الأنيس والوحْشة قلبي رتَالِكْ

حياكِ الفؤادْ لكِنهُ ما بتّالِك

عجباً شوف عِشِقْ كلَ الأنام تِمثالِك

ثم هذا اللحن الخالد، الذي تسمعه كل يوم، فيتجدد في سمعك::ـ

عازة في هواك عازة نحن الجبال

وللبخوض صفاك عازة نحن النبال

::::::::::::

عازة ما سليت وطن الجمال

ولا ابتغيت بديل غير الكمال

وقلبي لسواك ما شفتو مال

خذيني باليمين وانا راقد شمال

::::::::::::

عازة ما نسيت جنات بلال

وملعب الشباب تحت الظلال

ونحن كالزهور فوق التلال

نتشابي للنجوم وانا ضافر الهلال

::::::::::::

عازة في الفؤاد دوا يشفي الوبال

عازة في الفؤاد سحرك حلال

ونار هواك شفي وتيهك دلال

ودمعي في هواك حلو كالزلال

تزيدي كل يوم عظمة وازداد جلال

:::::::::::::

ودعنا في الختام نأمل بلقاء الوطن و نغني هذا المقطع:.

ما ينسنا الخير عوده سايق

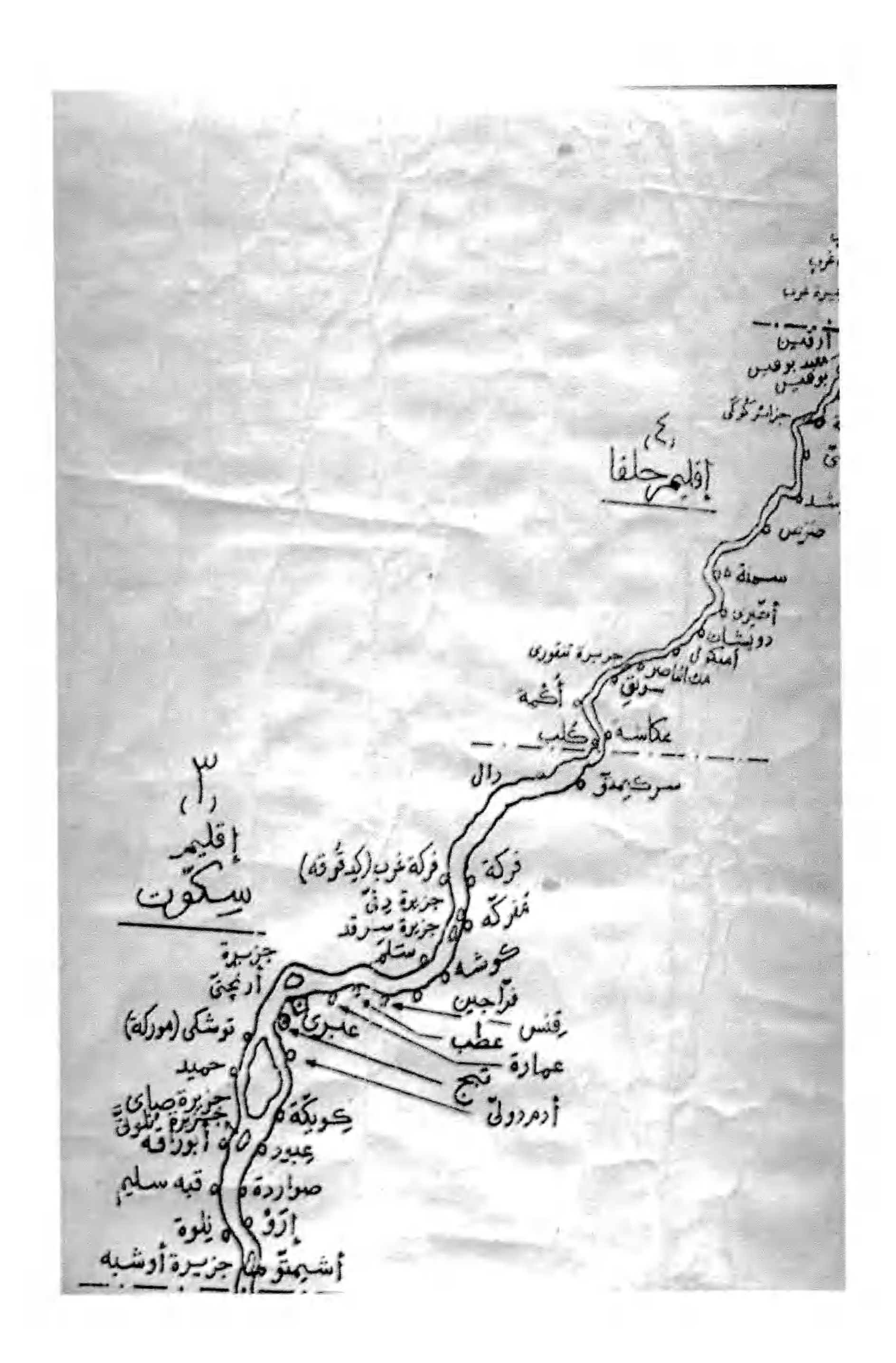
الحي يعود إن أتي دونه عايق

الي يوم اللقا وانت رايق

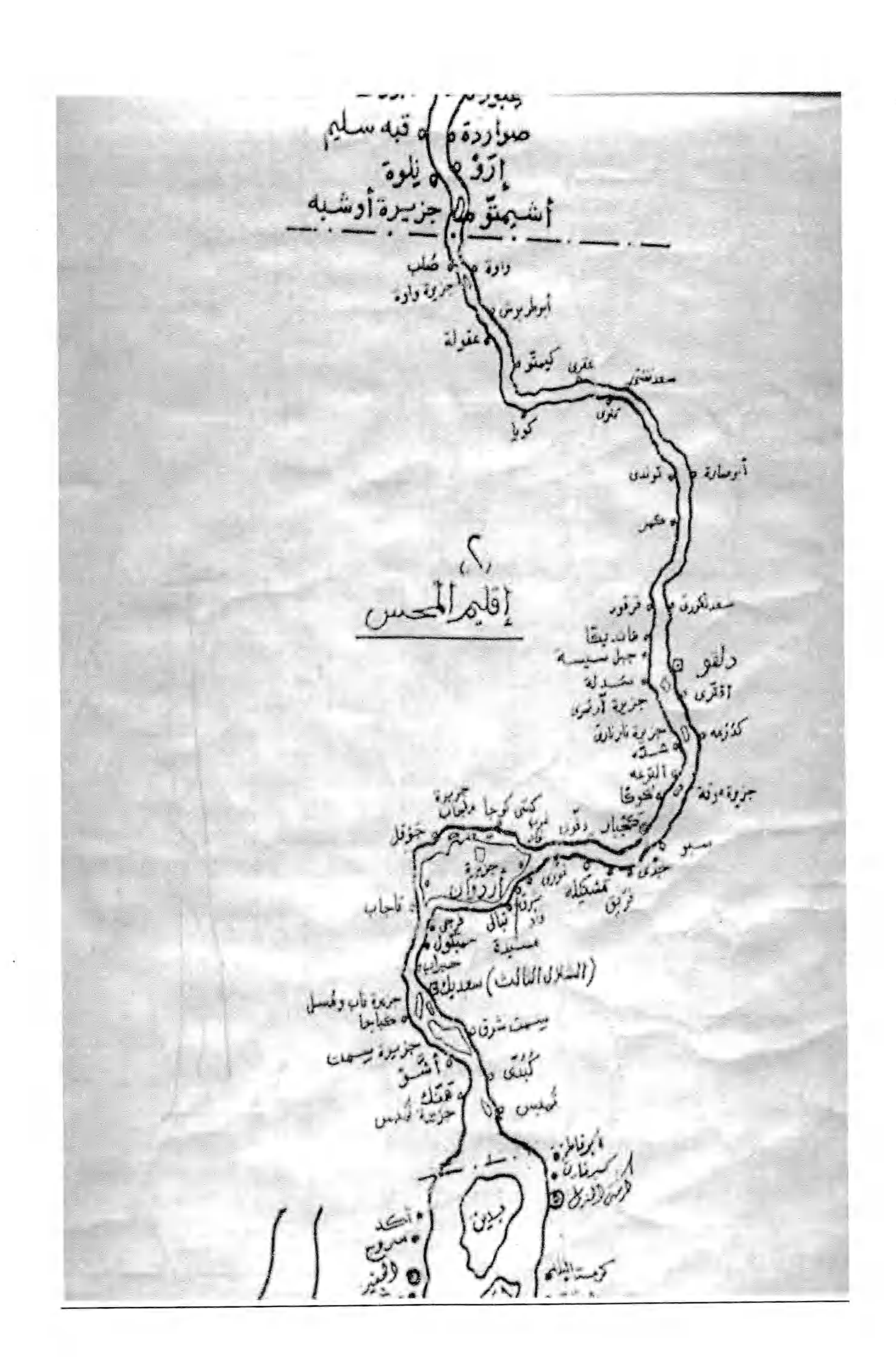
السلام يا وطني السلام

خريطة المناطق النوبية

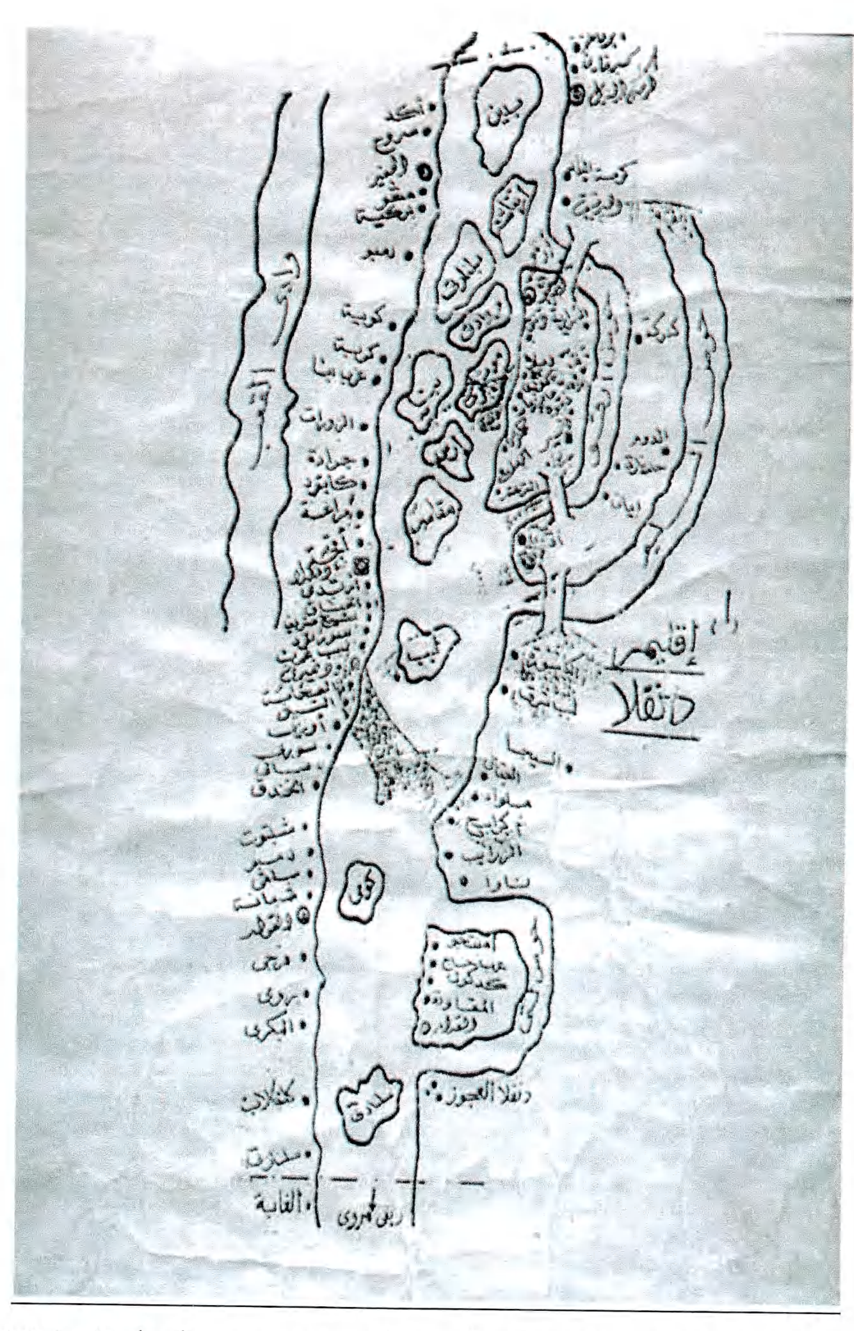




إقليم حلفا
إقليم سكوت
أرقين
جزيرة شوكى
جنس
سمنة
أكمة
عكاشة
كلب
دال
فركة
فركة غرب (كدفورقه)
جزيرة دفى
جزيرة سرقد
مفركة
كوشة
سلم
فراجين
قنس
عطب
عمارة
تبج
أدمردولى
عبرى
جزيرة ارنجتى
توشكى (موركة)
حميد
كويكة
جزيرة صباى
عبود
أبو راقة
صواردة
قبة سليم
ارو
نلوة
أشمتو
جزيرة أوشبه



صوارده
قبه سليم
إرو
يلوه
أشمتو
جزيرة أوشبه
إقليم المحس
دلقو
أرودان
(الشلال الثالث)



خريطة المناطق النوبية وجدتها عند الشيخ أحمد عزالدين ، وقد جاء بها من أحد أصدقائه في القاهرة ، ولم أتمكن من معرفة المصدر الأصلي، ولكن وحسب معرفتي للمنطقة فهي تبدو دقيقة.

خاتمـــة

قصائد في الخاطر

::::::::::::::::::::::::

في خاطري قصيدةٌ لوجهكِ الوَضئ

وجهُكِ الذي يُؤنِسُ ليلَ غُربتي

ياطِفلتي

يا زينة القَبيلة

....

في خاطري قصيدةٌ لوجهكِ الدَفِئ

وجهُكِ السَاحرِوالبَديع

كَوردةِ الربيع

كزهرةِ الخَميلة

::

في خاطري قصيدةٌ لوجهكِ البَهيَ

وجهُكِ الذي إستحي الزمانُ من بهاءِه

فلم يَطأ سماءِهِ

بخَطوِهِ الثَقيلة

....

في خاطري قصيدةٌ لوجهكِ الشَهيَ

وجهُكِ الذي أحلمُ أن أراه

بالشَوْقِ مُنتهاه

في ليلةٍ كَحيلة

::

في خاطري قصيدةٌ لوجهكِ الوريف

كشتلةٍ يانعة قامت علي شطِ المـُني

كبسمةٍ حالمةٍ تختال بالسَنا

كغيمةٍ ظَليلة

....

في خاطري قصيدةٌ لوجهكِ العَفيف

وجهُكِ الذي إستدارَ وإنتدي

وجهُكِ الذي إنتحي

بجانبِ الفَضيلة

::

في خاطري قصيدةٌ لوجهكِ الرقيق

وجهُكِ النضير

وجهُكِ الأسر والأ ثير

كلوْحةٍ جَميلة

....

في خاطري قصيدةٌ لوجهكِ الأنيق

وجهُكِ الذي يَخرُجُ في الزّحام

كَطلةِ الأحلام

في الغُربةِ البَخيلة

::

في خاطري قصيدة، لوجهكِ البَليل

وجهُك الذي زَرعتُ في ساحاتِه

ودَعتُ في باحاته

أمانيَ النَبيلة

....

في خاطري قصيدةٌ لوجهكِ الخَليل

وجهُكِ الذي أكتبُ في الصُبحِ له

أعزفُ في الليل له

ألحاني الجلَيلة

::

في خاطري قصيدة، لوجهكِ السعيد

كفرحةٍ عنيدةٍ عنيدة

كنجمةٍ بعيدةٍ بعيدة

وخطوتي كَليلة

....

في خاطري قصيدةٌ لوجهكِ الـ.....

وجهُكِ الذي ......

عَفواً جميلتي ..

فأحْرُفي عليلة .